علي محمد عبد اللطيف
افريقيا العربية
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

إهـــــــداء٢٠٠٨
جمعية الدعوة الإسلامية العالمية
الجماهيرية العربية الليبية

أفريقيا
العربية



علي محمد عبد اللطيف

أفريقيا العربية

الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 3289 / 98 ـ دار الكتب الوطنية ـ بنغازي

مكتب الإعلام والبحوث والنشر
بجمعية الدعوة الإسلامية العالمية

الإهداء

إلى روح الأجداد الذين حملوا نور الإسلام بين ثنايا قلوبهم إلى مجاهل أفريقيا... فرسموا هناك معالم إيمان الملايين...

إلى كل من يصرخ الآن بنداء ـ الله أكبر ـ في كل مكان... أهدي هذا الجهد المتواضع.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كانت البداية مع القارة الأبنوسية ـ أفريقيا ـ تأخذ السؤال ـ الإشكالية بما فيها من طرح لا ينتهي وهو:

أين الحضور الأفريقي بالمستوى الإيجابي عبر مختلف الساحات ـ القضايا. . . ؟

ولماذا أفريقيا تقدم على أنها أخت الثالوث البغيض؟ ولا يرى المنظار الغربي الاستعماري فيها سوى أنها الفناء الخلفي للبيت الأوروبي بما تحمله الجملة الأخيرة من شحنة قدحية أي ـ المزبلة ـ في حالة توفر حسن النية، والمراوغة بتحديد أدق، ففي الواقع التعاملي لا يسمح لأبنائها أن يتجاوزوا ساحة الخدم والمهرجين فهم أبناء الجارية غير الشرعيين. . . فالأفريقي، وأمه العبدة يشكلان ثقلاً على ضمير الأوروبي الذي يمتهنهما ويخجل من أن يعلن ذلك.

* * * * *

هذه المشكلة السابقة هي عصب المشاكل التي لا تنتهي وهي وليدة ما قبلها وهكذا لا تنتهي الإشكالية ففي كل مرة ينطلق السؤال ويعود وينطلق غيره وتتضح معالم المأزق إلى ما لا نهاية. . . ونصطدم به أينما نولي وجوهنا، ولا يتوقف فرض الشعور بالدونية على الأفريقي من خلال ممارسة الإسقاطات

حياله إلى الحد الذي يتحقق فيه غسيل المخ وتحويل الإنسان الأفريقي، وإنسان العالم الثالث عموماً إلى مسخ هو نفسه يحتقر ذاته ولا يثق فيما يتعلق به للحد الذي يرفض لون بشرته، ويقبل أن يكون مهرجاً في سيرك الرجل الأبيض في مرتبة لا تقبلها بعض الحيوانات وهذا أسوأ ما يعانيه المرء.

* * * * *

الصور السوداوية لذات وكيان الأفريقي تترسخ عندما يرتضي الدور المهمش، وعندما يتأقلم مع المفاهيم التي تطرحه كظل وتابع حقير ومسخ... وعندما يعترف للرجل الغربي بما يحمله الأخير من أمراض سيكوباتية بأن يتقمص دور السيد، ويرى فيه المنقذ والصادق والرب أحياناً، هذه الدونية وجلد الذات تعمقها الأطنان من الأضابير التي يعدها كتبة الدوائر الاستخباراتية الاستعمارية، والتي لا تخرج عن نهج رصد كل ما يساعد على فرض الهيمنة، وتفريخ طابور خامس من العملاء وغرس كل ما يقزم تطلعات البعض من الأفارقة، خدمة لبرامج التبعية الأبدية واستنزاف خيرات الشعوب المغلوبة على أمرها واستحلابها، وتفريغها من العناصر المتميزة من أناسها بكل طرق التغريب وصولاً إلى:

أن يتنكر المرء لحريته ويهرب من كرامته الإنسانية.

* * * * *

من هنا تكون المتابعة لما يقدمه أبناء أفريقيا على كافة مستويات المعرفة من المسائل الهامة لما يحمله ذلك من صدق، فالمكتبة الأفريقية تبحث عما يسد كل ثغرة وفي كل مجال.

والمساهمة في هذا الإطار خاصة من أبناء أفريقيا تبعث على الراحة، وعلى مستوى التفاعل الغربي مع المفاصل المتماسة مع بقية القارة تتحقق الخصوصية.

وهذا ما شدني لما كتبه الأديب الطيب صالح في بعض أعداد مجلة المجلة، وإن كان عرضه الأدبي فيه التركيز على الأطراف المتماسة مع السودان وفي إطار تاريخها ويقترب من الواقعية السحرية التي يحتملها الإبداع لا التاريخ. . . ويأتي هذا الكتاب الذي يتحدث عن مجد الأجداد في أفريقيا العربية للكاتب علي عبد اللطيف لينفي حدود التماس العربي الأفريقي كما فرضته الخرائط السياسية المفروضة معلناً حقائق يحاول المستعمر طمسها ليفرض تغييب الذاكرة العربية الأفريقية.

هذا العمل الذي نقدمه للقارىء يحاول أن يرفض خطوط التماس السياسية التي تفرض تحجيم الروابط والحضور العربي في أفريقيا على مستوى دوائر أكثر اتساعاً في محاولة لتقزيم الحضور العربي وخلق الجيوب التي تبتلع أطراف هذا الجسد على حساب توسع للزنوجة والتنصير.

* * * * *

إن العنوان الرئيسي «أفريقيا العربية» وتتبع خط سير الأجداد الذين تركوا بصماتهم في القارة البكر ومهدوا لأحفادهم أرضية صالحة لقبولهم بما حملوه من عقيدة صالحة لا تفرق بين لون وآخر، ولا لسان وآخر إلا بميزان التقوى بالإضافة إلى ما جاء في المقدمة بما لزيارة الأخ القائد معمر القذافي التاريخية وغير المسبوقة إلى كل من النيجر ونيجيريا وإمامته لملايين المسلمين فيهما في صلاة الجمعة الأولى من العام القمري «1427» كان البوصلة التي حددت توجه تفكير الكاتب في محاولة رصد ما يؤكد حقيقة الماضي الذي جمع العرب والأفارقة وكان السؤال الذي وجهه لنفسه:

كيف وصل الإسلام إلى المناطق النائية ومن أوصله. . .؟ لقد تتبع الكاتب الإشارات التي أنارت له الطريق، كحقيقة تواجد العرب في أجزاء كبيرة من أفريقيا قبيل الإسلام.

لقد طرح السؤال وأصبحت مهمة كتاب أفريقيا البحث والحفر الجاد لربط الماضي بالحاضر بشكل منطقي لا عاطفي خاصة وأن الحفريات في هذا الموضوع تستند على الوهم بقدر ما تتجسد كحقيقة يؤكدها الواقع.

وقد اعتمد الكاتب «علي عبد اللطيف» على بعض الزيارات الميدانية وتابع موضوعه بشغف من خلال البحث في المراجع التي تمكن من الوصول إليها، وأعتقد أن ما يتيح له فرصة تقديم الأفضل هو عشقه وجديته في المتابعة في إطار ما يؤكد عروبة رقعة واسعة من أفريقيا، ويأتي الحضور الإسلامي في القارة إلى ترسيخ وحدتها ديناً وتقريبها لغة، وتسليط الأضواء على التمازج العرقي والدم الواحد. فما يوحد أفريقيا طبيعي، وما يعمل على إجهاض وحدتها من الأمور المستحدثة ـ البدعة ـ وكل ما يبنى على باطل فهو باطل... كما جاء عند حامورابي.

* * * * *

وجاءت الأسئلة الحائرة ما هو السر في الإسلام الذي جعله ينتشر عبر أنحاء البسيطة في فترة زمنية وجيزة؟ إن هذا يولد سؤالاً آخر يتعلق بالجماعات البدوية التي حملت المشعل، ودور الأتباع الذين اهتدوا إلى الإيمان وقناعاتهم للاستشهاد في سبيل العقيدة الجديدة.

هذا ما وقف عنده العلماء وهذا ما دفعهم إلى الربط بين الأسباب، والانتباه إلى الهجرات الأولى التي انطلقت من الخزان الأم بعد الانهيار الأول لسد مأرب.

وفي إطار ندرة المراجع وغياب ما دوّن كان للقرآن الكريم كتاب الله ما يحكيه من قصص لم تجتمع لغيره من مراجع.

لقد راهن (علي عبد اللطيف) على الحس الانفعالي الصادق الذي يصل أحياناً إلى التقريرية وهذا مطلوب في الكتابة السياسية... وكان خط انطلاقه

ومساره واضحاً وهو إثبات عروبة أجزاء من أفريقيا. . . أي أن العرب لهم حضور موغل في هذه القارة.

وقد ساعده على تقديم جهد متميز المعلومات التي وظفها. . . حاول أن يحيل إلى العديد من المراجع وأن يسلط ومضات على الكثير من الأسماء بشأن الأمكنة والشخوص من عرب وأجانب وأن يتتبع فضاءات زمنية ومكانية انطلاقاً من حقب غابرة والتي تمثل حفريات لم يتم الكشف المتكامل لما يحيطها حتى زمان الناس هذا. . . ولأنه ينطلق من قناعات شخصية ينحاز لها ككاتب من هنا أمسك بطرح ما ينحاز إليه. . . المؤكد لعروبة المنطقة الصحراوية الأفريقية المتماسة مع الشمال الأفريقي العربي. . . عنصر عربي يشترك في تماس حقيقي وتداخل وتكامل جغرافي وتاريخ مشترك وعقيدة ولغة روافدها تقترب من المنبع الواحد وتفرعاتها تحمل خصائص متقاربة وفوق كل ذلك قرآن كريم بلسان عربي مبين حقق تواجد لغة الضاد في المحليات، أيضاً حقق الكاتب تقديم إشارات مختصرة للعديد من المراجع في إطار خصوصية بحثه.

وكان توظيف القديم في طرح وتمازج عصري ساعدته عليه لغته الصحفية المباشرة وغير المتقعرة. أما الإشكالية التي لا يستطيع جهد فرد أن يحقق تجاوزها فهي غياب المصادر الوافية، فما يستند عليه المرء في الغالب ومضات تحتاج إلى الحفر الجاد من المهتمين ببحث مثل هذه الموضوعات. وإذا ما كان القرآن له حضوره في الإشارة إلى ما هو مجهول من تاريخ العرب وغيرهم من الأقوام فيما سبق ظهور الإسلام من أحداث فإن جزءاً من التغطية الأخرى جاءت عبر سيرة ابن هشام، ومحمد بن إسحاق، وابن قتيبة، والطبري، والمسعودي، والأصفهاني، وابن عبد ربه، والبكري، والهمداني، وياقوت الحموي، وابن خلدون وغيرهم.

وقد أشار إلى ما حدث من تحريف للنقوش اليمنية من خلال رموز عبرية كما فعل يوسف «خليفي» عام 1869ف.

إن شواهد المناطق التي تحدث عنها الكاتب خاصة على مستوى الجزيرة العربية وأطرافها وما زخرت به من آثار ـ كصهاريج وخزانات عدن، وسد مأرب، وعرش بلقيس وبقايا حضارة سبأ وحضرموت، إضافة إلى المراجع والكتابات التي اهتمت بالمنطقة فإنها جميعها في المحصلة النهائية تصب في مجرى تأكيد عروبة المنطقة التي استقبلت الهجرات المتتالية وتعايشت معها، وفي إطار تمازج الدم بالمصاهرة والتي حققت أنموذجاً حجب في داخله بقية النماذج الوافدة أو المستقبلة، ومع سهولة وبساطة الحياة المشتركة وغياب العقد التي تقف حاجزاً في وجه الانصهار فقد تحقق التمازج الحقيقي الذي أبعد التنافر والاغتراب، وكانت أرض الله لعباد الله وجاءت الدعوة الإسلامية بقيمها لتتوج الارتباط الأخوي الإسلامي، وتجذرت القيم الجديدة «لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى»، الكل لآدم حقيقة لا خلاف عليها مثلما هو للتراب... وتتلخص النتائج في الارتباط الجغرافي بين الجزيرة العربية وقارة أفريقيا في الفضاء الذي تحرك فيه العرب الممثل للمكان المتجانس المحقق للحركة عبر كل الاتجاهات... شواهد التاريخ على التواصل السكاني في الفضاء المكاني المشار إليه قبل الإسلام، وبعد الإسلام وهذا ما حقق عمق العلاقات والتواصل بين العرب وأفريقيا منذ القدم، ولكن ما يجب التركيز عليه هو الدور الذي لعبه الدين الإسلامي في توحيدهم وتعميق الروابط وتجذرها. فقد شاركت الجغرافيا في خلق تاريخ متجانس ومترابط في تمازجه الأفريقي العربي، ولا زالت الهجرة في الفضاء المكاني للمنطقة سيدة هذا الواقع ولولا الحدود السياسية وما ترتب عليها لما كان للتمايز والتفريق أي حضور، فمن بين المعطيات التي ساعدت الإسلام على الانتشار في أفريقيا التواجد العربي السابق عليه.

كما جاء عند الأستاذ علي عبد اللطيف وما (إحياء مجد الأجداد في ـ كانو ـ) أو في أنجامينا، أو تمبكتو أو أية نقطة من القارة السمراء اليوم وغداً

إلا إعادة إلى توهج نور الدين الذي جاء للناس كافة والذي عم المنطقة وغيرها من البسيطة يوماً، محققاً إنسانية وكرامة خليفة الله على الأرض، والعدالة والسلام المنشود والحقيقي، والتكافل لأبناء آدم والد البشرية.

ترتبط أفريقيا بالعالم العربي ارتباطاً روحياً وحضارياً يستند على دعائم ومقومات راسخة فجوهر الثقافة فيهما واحد نظراً لوحدة التكوين البيئي والانطلاق من فطرة الإنسان وطبيعته التي تعتبر في نقائها وصفائها حقلاً للإيمان بالقيم والمثل الروحية، ونظراً للرباط الحضاري المستمد من العقيدة المشتركة والتراث الواحد.

ومثل هذا الكتاب محاولة في إطار التواصل وخطوة عندما تسندها جمعية الدعوة الإسلامية العالمية فالدافع لذلك سعيها الحثيث لتحقيق الأهداف المرسومة لها خدمة للتواصل الإنساني والعمل الإسلامي.

الدكتور / زياد علي



المقدمة

كان لزيارة الأخ القائد معمر القذافي التاريخية وغير المسبوقة على الإطلاق إلى كل من النيجر ونيجيريا وإمامته لملايين المسلمين فيهما، أبلغ الأثر في قلوب الملايين التي اصطفت وراءه في خشوع في صلاة الجمعة الأولى من العام القمري الحالي.. عام 1427، مستذكرة في قلوبها الماضي العريق الذي جمع العرب والأفارقة منذ أزمنة موغلة في القدم، ومستلهمة في أفئدتها إمكانية استعادة تلك الأمجاد التي بناها الأجداد بدمهم على مدى حقب طويلة من الزمن، كما كان لذلك الحدث العظيم أبلغ الأثر أيضاً في قلوب عشرات الملايين التي تابعت الحدث من خلال المرئيات العربية والدولية التي تكفلت بنقله للمسلمين في شتى أصقاع الأرض.. وكنت أنا واحداً من أولئك الذين اهتزوا بالحدث وانفعلوا به إلى أبعد الحدود.

كان السؤال الأول الذي تبادر إلى ذهني، ولا شك أنه تبادر إلى ذهن الملايين التي تابعت الحدث العظيم من خلال المرئيات يومها، هو كيف وصل الإسلام إلى تلك المناطق النائية؟.. ومن الذي أوصله إلى هناك؟.. ثم كيف انتقلت القبائل العربية التي قال القائد معمر القذافي إنها متواجدة هناك؟.. وهل كان انتقالها قبل الإسلام أو بعده؟.. وفي أية فترة من التاريخ حدث ذلك؟.. وإلى أين وصل امتدادها هناك؟..

عشرات الأسئلة الحائرة كانت تتقافز على السطح تبحث عن إجابة لها، وعشرات الاستفسارات كانت تتصارع من أجل معرفة الحقيقة، حيث كانت الأغلبية الساحقة والتي هزها الحدث وما يعنيه، والحقائق التي أماط اللثام عنها القائد يومها. . في شغف لمعرفة المزيد.

وأعترف هنا. . أنني وعندما بدأت الكتابة مباشرة بعد رحلة القائد التاريخية تلك، كنت أعرف منذ البداية أن الموضوع لن يكون سهلاً، خاصة وأنني لم أكن أعرف شيئاً عن تلك المناطق باستثناء موريتانيا التي عشت فيها قرابة السنتين، وما سمعته ودونته هناك من ملاحظات عنها وعن مالي والسنغال المجاورتين لها، وعندما انتهيت من كتابة الجزء الأول والذي نشر عقب زيارة القائد مباشرة وخصصته للحديث عن كيفية دخول المسيحية لمنطقة غرب أفريقيا، اقترحت على الأخ أمين تحرير صحيفة «الشمس» أن أقوم بزيارة المنطقة مباشرة للاطلاع عن كثب عما أبحث عنه فاستجاب مشكوراً وخاطب الأخت أمينة الأعلام التي لم تتردد في الموافقة فوراً، مما أتاح لي استكمال الجزء الثاني من الدراسة.

وهكذا. . .

كانت صفحات التاريخ المضيء تتراءى أمام ناظري في كل خطوة خطوتها سواء بين سطور الكتب والمراجع التاريخية العديدة التي عدت إليها، أو على الرمال وفي واحات وبوادي وحضر البلدان التي زرتها بالمنطقة. . تاريخ بكامله، حافل بالأمجاد والبطولات خطه الآلاف من الأجداد حاملين بين ثنايا ضلوعهم رسالة الإسلام عاملين على نشره بالحكمة والموعظة الحسنة بين أشقاء لهم كانوا قد سبقوهم إلى تلك الفيافي منذ حقب طويلة من الزمن. باعدت بينهم المسافات والصحارى والقفار. . وأعاد الإسلام عندما شعّ بنوره العظيم على يدي خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، أعاد اللحمة بينهم فجمع بين قلوبهم على كلمة ـ لا إله إلا الله

محمد رسول الله ـ فعاد الترابط الأخوي بين الجميع واستكمل الكل نشر دين الله بين بقية خلقه، فساد وتعاظم امتداده إلى أن أصبح كما نراه اليوم سداً في وجه كل الحاقدين، ولا زال يواصل الإشعاع والانتشار على أيدي أحفاد أولئك الأجداد العظام جزاهم الله كل خير.. ورحمهم الله في كل موقع.. وكل مكان.

لقد أعاد القائد الأممي معمر القذافي قائد القيادة الشعبية الإسلامية بإمامته لملايين المسلمين في ـ كانو ـ والنيجر وتشاد إشعاع نور كان أجداده قد أوصلوه إلى هناك منذ بدء ظهور الدعوة، وربط القائد معمر القذافي بتلك الزيارة التاريخية للنيجر ونيجيريا وتشاد.. ربط ماضيا بكامله مع قبائل عربية أصيلة هاجر بعضها قبل الإسلام ولحق بهم أشقاء أخرين بعده، إلى تلك المناطق النائية، وكانوا، وكما شاءت إرادة الخالق عز وجل أن يكونوا مقدمة وعامل تهيئة لاستقبال دينه الختامي على أيدي أشقاء لهم لحقوا بهم بعد الإسلام إلى تلك المناطق النائية.. حيث مناطق استقرارهم..

لقد أحيا القائد معمر القذافي بإمامته لملايين المسلمين في الجمعة الأولى من شهر محرم الحرام أمجاداً سطرها الأجداد فوق رمال الصحارى والوديان والأنهار والجبال والسهول على امتداد نصف قارة بكاملها، جابها أولئك الأجداد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، في تواصل تاريخي طويل.. ولا زال حتى الآن.. وسيستمر بإذن الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإن كانت هناك كلمة.. أو إهداء.. في بداية هذه السطور، فهي للقائد معمر القذافي الذي أعاد التواصل بين الأشقاء، ومهد الطريق بإمامته للملايين المسلمة في نيابي وكانو وتشاد لأجيال لاحقة ستواصل اللقاء دون شك.. وستواصل العمل على نشر دين الله بين خلقه الذين لم يهتدوا إلى نوره بعد...

علي



أسئلة حائرة

عندما فاقت أوروبا من عصور الجهل والظلام التي كانت فيها وبدأت تتطلع إلى ما حولها من أمم وشعوب بدءاً من القرن الخامس عشر، كان أول سؤال طرحه الأوروبيون على أنفسهم هو. . . ما هو السر الذي أعطى العرب ميزة اكتساح العالم بعد ظهور الإسلام، وانتشار تلك الجماعات البدوية الغاية في البساطة والزهد إلى تلك المساحة الهائلة من العالم القديم الممتد من الصين شرقاً إلى موريتانيا والأندلس غرباً، ومن وسط أفريقيا جنوباً إلى جبال القوقاز شمالاً. .

وما هو السر الذي جعل أولئك البدو البسطاء الزاهدين في الدنيا وملذاتها يتغلبون في أقل من عشرين عاماً على دول كانت دولاً عظمى في تلك الفترة، مثل الفرس والروم الأكثر عدداً والأعرق تقدماً والأكثر قوة بكثير من العرب. . وهو ما لم يسجله التاريخ لأية أمة من الأمم لا في السابق ولا في اللاحق له.

ومن هنا. . ولإيجاد إجابات عن تلك الأسئلة الحائرة. . بدأ علماء الغرب وبحّاثهم في التنقيب فيما سجله التاريخ المدوّن عن هذه الأمة العربية العظيمة بحق، التي استطاعت بدينها الإسلامي الذي حمله أولئك العرب البسطاء بين جوانحهم التوغل به إلى كل هذه المساحات الهائلة من الكرة الأرضية في زمن قياسي. .

وفي أثناء هذا البحث عن أسرار كل ذلك. . وجد علماء الغرب ثم بعدهم علماء العرب المحدثين شيئاً عجباً. . وهو أن العرب الذين اكتسحوا كل هذه المساحات الهائلة من العالم، سبق لهم أن اكتسحوا وعبر هجرات متتابعة قبل التاريخ أماكن واسعة من قارتي أفريقيا وآسيا بالتحديد، أوصلت أجدادهم إلى وسط أفريقيا ووسط آسيا وإلى أبعد من ذلك، إلى الصين وجنوب شرق آسيا.

ومن هنا. . بدأ البحث عن تلك الهجرات القديمة، ولماذا حدثت. . وكيف تمت. . في ذلك الزمن السحيق من التاريخ، وأين اتجهت تحديداً. وهل هي هجرات امتدت ثم ارتدت. . أم أنها امتدت ثم استقرت. . . إلخ.

وهكذا. . امتدت البحوث والدراسات والتنقيبات الأثرية لتشمل كل موقع عثر فيه على أثر لتلك الهجرات القديمة.

وعلى الرغم من قلة ما كشفت عنه تلك البحوث وتلك الآثار من معلومات حول هذا الموضوع لأسباب متعددة منها عدم اهتمام تلك الهجرات بتدوين أسباب هجرتها، وخطوط سير تلك الهجرات. . أو اندثار مدوّناتها وما تركته من نقوش أو آثار بسبب عوامل الزمن البعيد أو الطبيعة. . على الرغم من ذلك فإن المعلومات الشحيحة للغاية التي أميط اللثام عنها كشفت أسراراً تفوق الخيال، وأكدت للباحثين عن الحقيقة، إن هذه الأمة لها تاريخ أبعد مما كان يتصور، ولها جذور تمتد مباشرة إلى المراحل الأولى لبدء الخليقة على هذا الكوكب.

وقد لاحظ من حاول، سواء من العرب أو من الغربيين البحث عن أسرار تلك الهجرات العربية القديمة. . لاحظ بوضوح أن المدوّنات العربية عن تاريخهم السابق للإسلام كانت من القلة والشح بحيث أنّ الكثير من الباحثين سواء كانوا عرباً أو غربيين تهيبوا في البداية من الخوض في غمار البحث، ومنهم من جرب ثم تراجع، وغيرهم حاول ولم يوفق.

كانت المشكلة التي واجهت الجميع، هي أن أولئك الأجداد الذين خلّدهم وخلّد أعمالهم التاريخ، لم يتركوا كتابات سجّلت ودونت أعمالهم باستثناء قلة من المعلومات أوردها العرب في أقاصيص وحكايات كانت تروى في الغالب لأخذ العبرة والموعظة أكثر منها لتسجيل تاريخ حافل، مرت به أقوام ودول وشعوب سادت وامتد تواجدها إلى كل الاتجاهات في مناطقها، ثم هجرتها إلى أقاصي الأرض دون أن تهتم بتسجيل شيء عن فعلها ولماذا قامت به..

الكتاب الوحيد الذي دوَّن وتحدث عن تاريخ العرب قبل الإسلام وأثبتت الاكتشافات الأثرية وفك طلاسم الكتابات القديمة صحته مؤخراً، هو القرآن الكريم، الذي حكى قصة القبائل والأقوام العربية البائدة وتحدث عما حل بها بسبب انحرافها عن تعاليم الخالق عز وجل.. مثل عاد وثمود..

وكان القرآن الكريم بما حواه من معلومات عن تلك الأقوام التي سادت ثم بادت.. بداية الخيط الذي به وعن طريقه بدأ الأجداد بحثهم عن ماضي هذه الأمة.. وأين كانت.. وكيف كانت.. وأين اتجهت بعض قبائلها وبطونها.. ولماذا.. إلخ..

كان أول من تحدث عن أخبار عرب الجاهلية السابقين على ظهور الإسلام هو ـ عبد الملك بن هشام ـ المتوفى سنة 218هـ وقد روى معلوماته عن محمد بن إسحاق المتوفى سنة 151هـ، كما نقل ما كان يرويه أبو عبيدة والأصمعي المتوفيان في أوائل القرن الثالث للهجرة وهما أصل أغلب ما تم تناقله عن أخبار العرب القدماء، غير أنهما لم يتركا شيئاً مدوناً عن ذلك.

ثم يليه في التتابع ـ ابن قتيبة ـ المتوفى سنة 276هـ وصاحب كتاب «المعارف» الذي خصص فيه فصلاً عن أنساب العرب حسب التسلسل والتعاقب دون أن يدخل في تفاصيل ما حدث للأقوام السابقة باستثناء شذرات عن اليمن وغسان والحيرة.

بعده، جاء ـ اليعقوبي ـ المتوفى سنة 277هـ والذي ألف كتابين في التاريخ وفي أحدهما فصل عن تاريخ قدماء العرب.

وفي القرن الرابع الهجري ظهرت مجموعة من علماء العرب المؤرخين الذين صرفوا اهتمامهم لتدوين وتحقيق روايات العرب عن تاريخهم القديم. وكان أول أولئك ـ الطبري ـ المتوفى سنة 310هـ والذي دوّن في كتابه أخبار قومي عاد وثمود وملوك اليمن والحجاز. ثم أتى بعده ـ المسعودي ـ المتوفى سنة 346هـ وفي كتاب «مروج الذهب» دون الكثير من المعلومات عما سبق من تاريخ، ثم جاء ـ حمزة الأصفهاني ـ المتوفى في أواخر القرن العاشر للميلاد والذي يوصف بأنه أول من أورد أخبار العرب في كتابه «سني ملوك الأرض» والذي ذكر فيه أنساب ملوك حمير وغسان ولخم وكنده إضافة إلى الفرس، وفي نفس الفترة ظهر ـ ابن عبد ربه ـ صاحب كتاب «العقد الفريد» والمتوفى سنة 328هـ وأبو فرج الأصفهاني ـ صاحب كتاب «الأغاني» وعاصر هذه الفترة أيضاً ـ الهمداني ـ المتوفى سنة 334هـ وصاحب كتاب «صفة جزيرة العرب» وكتاب «الإكليل» حيث سجل بعين المدقق الباحث كل ما كان قد رآه أو سمع عنه وتحقق منه في عصره. بعد ذلك جاء ـ أبو عبيدة البكري ـ المتوفى سنة 487هـ وصاحب كتاب «معجم ما استعجم» وهو قاموس جغرافي، ثم ياقوت الحموي المتوفي سنة 626هـ وصاحب كتاب «معجم البلدان». . ثم اختتمت هذه الطائفة من الكتاب والباحثين العرب بابن خلدون الذي جمع في الجزء الثاني من تاريخه خلاصة ولب ما قاله المتقدمون عنه وجاء حديثه أوفى وأعم مِنْ كل مَنْ سبقه. .

وإضافة إلى ما سبق. . اهتم عدد كبير آخر من البحاثة والمؤرخين العرب في القرون اللاحقة بما ورد في أشعار وأمثال وقصص العرب الجاهلية التي روت ما سبق من تاريخ الأمم السابقة من أمثال ـ ابن تمام ـ وأبي دريد وكامل المبرد ـ وابن قتيبة ونشوان بن سعيد الحميري ـ والميداني وغيرهم. . .

ومن غير العرب وردت شذرات عن تاريخ العرب القديم في كتب التوراة، ثم ما دوّنه المؤرخ اليوناني الشهير الملقب بأبي التاريخ «هيريدوت» المتوفى سنة 406 قبل الميلاد. والذي ذكر العرب لدى حديثه عن الحروب التي نشبت بين المصريين والفرس أيام الملك ـ قمبيز ـ في القرن السادس قبل الميلاد. ثم المؤرخ اليوناني ـ ثيوفراست ـ المتوفى عام 312 قبل الميلاد والذي تحدث عن القبائل العربية التي حكمت بابل في ذلك الزمن البعيد. إضافة إلى العديد من مؤرخي اليونان قبل الميلاد أيضاً أمثال ـ أراقوستينس ودودوروس الصقلي ـ و ـ أغاثار سيدس ـ وغيرهم ممن ذكروا العديد من القبائل العربية القديمة وبعض مدن العرب. .

وبعد الميلاد كان استرابون ـ وهو رحالة يوناني توفي عام 24م. حيث أفرد فصلاً خاصاً في مؤلفه الجغرافي عن العرب ذكر فيه مدنهم وبعضاً من قبائلهم وأحوالهم التجارية. إضافة إلى إسهابه في الحديث عن حملة «اليوس غالوس» لفتح الجزيرة العربية لتأمين طرق تجارة القوافل عبرها باتجاه الشرق، وهي الحملة التي انتهت بالفشل الذريع بسبب تصدي القبائل العربية لها وتدمير العناصر التي شاركت فيها. .

ثم تحدث عن العرب ومدنهم المؤرخ اليهودي اليوناني المعروف باسم «بوسيفوس اليهودي» المتوفى عام 93م ثم «بطليموس القلوذي» المتوفى عام 140 بعد الميلاد. والذي ألف كتاباً في الجغرافيا خصص جزءاً منه للحديث عن العرب ومدنهم وقبائلهم وتجارتهم. . إلخ. .

وهناك غير هؤلاء عدد كبير من مؤرخي اليونان الذين قدموا معلومات مختلفة عن العرب ومناطق تواجدهم وتأثيرهم في الشعوب المجاورة لهم. .

وهكذا. . بقيت تلك الشذرات التي وردت في كتب اليونان، وبعدهم في كتب بعض مؤرخي أدباء العرب بعد الإسلام، هي كل ما كان يعرف عن تاريخ العرب قبل وصول الإسلام، إلى أن تم فك رموز الكتابات والنقوش

المسمارية والحميرية والآرامية التي لاحظ العرب الأقدمون وجودها في آثارهم، غير أنهم عجزوا عن فك رموزها أو الاهتداء إلى ما تحمله من معلومات أصبحت الآن في غاية الأهمية دونت وسجلت تاريخاً بكامله كان يعج بالحياة فوق جزيرة العرب شرقاً وغرباً . .

كان الأوروبيون الذين ينتقلون عبر البحر الأحمر باتجاه الشرق أو بالعكس سعياً وراء التجارة سواء مع مصر وبلاد اليمن أو مع الهند، قد سمعوا كثيراً ومرات عديدة عن وجود كتابات غريبة على أبنية وأعمدة قديمة مدفونة في العديد من المواقع في شبه جزيرة العرب وحضرموت بصفة خاصة، وشاءت الأقدار أن يسمع بهذه القصص في منتصف القرن الثامن عشر عالم ألماني اسمه (ميخاليس) «ولد عام 1717ف وتوفي عام 1791ف» فاقترح على ملك الدانمارك «فريدريك الخامس» ـ سنة 1756ف إرسال بعثة علمية إلى اليمن لتقصي حقيقة تلك الآثار والنقوش التي عليها فاستجيب لطلبه، وهكذا تشكلت تلك البعثة العلمية وشارك فيها عدد من علماء اللغات الشرقية والتاريخ الطبيعي والجغرافيا حيث وصلوا اليمن سنة 1762ف . .

وحدث أن أربعة من علماء تلك البعثة قضوا نحبهم أثناء المهمة، اثنان منهم توفيا باليمن واثنان في الطريق إلى الهند، ولم يتبقّ سوى عالم واحد هو عالم الجغرافيا ـ نيبوهر ـ الذي اطلع على نماذج قليلة من تلك الآثار في اليمن غير أنه لم يتمكن من التوغل كثيراً داخلها وعاد إلى بلاده ليؤلف كتاباً طبع عديد المرات في أوروبا ونقل إلى معظم لغاتها، وهو أول كتاب في أوروبا يتحدث عن آثار عرب ما قبل التاريخ . .

وأحدث الكتاب ضجة في أوروبا وبين علمائها وحوى تلك النقوش والكتابات الغريبة التي لاحظ بعضاً منها الألماني ـ نيبوهر ـ أثناء رحلته القصيرة لليمن ومن هنا بدأ السعي للسفر إلى مجاهل اليمن بحثاً عنها بجدية ومثابرة أكثر مما سبق . .

وهكذا سافر المستشرق الألماني ـ زتسن ـ سنة 1810ف إلى اليمن حيث عثر في ظفار على ثلاثة نقوش فنسخها وفي مدينة مخا اليمنية وجد غيرها فنسخها أيضاً، ونظراً لتسرعه في نسخ ما وجده فإن العلماء الذين درسوا ما حمله فيما بعد لم يستفيدوا منها شيئاً مهماً ولم يستطع أحد منهم حل رموزها. بعده جاء ضابط إنكليزي عام 1838ف اسمه «ولستد» كان على ظهر باخرة تجارية رست في اليمن، فنسخ كتابات ونقوش حمْيَرية كانت مكتوبة على صخر ضخم من بقايا حصن قديم يعرفه أهل البلاد باسم «حصن غراب» وعندما عاد إلى بلاده لم يستطع أي من العلماء الذين حاولوا حل رموزها الوصول إلى يقين بشأنها إلا بعد ذلك بعدة سنوات..

وفي نفس العام نسخ ضابط إنكليزي آخر اسمه «كروتندن» نقوشاً أخرى من على صخر حجري ذكر له أن مصدره خرائب مدينة مأرب حيث كان السد الذي تحدث عنه القرآن الكريم.

وفي عام 1843ف استطاع عالم فرنسي اسمه «أرنو» وكان قد تستّر خلف مهنة الطب وعمل بموجب ذلك كطبيب في العاصمة اليمنية صنعاء في تلك الفترة، استطاع اختراق وسط اليمن بأمر مباشر من صديقه قنصل فرنسا في جدة الذي أشار إليه بالذهاب في مهمة استكشاف داخل اليمن والتأكد مما يتناقله الناس عن وجود نقوش غريبة غير مفهومة ولم يستطع أحد قراءتها أو فك رموزها على أعمدة خرسانية وبنايات قديمة في مدينة مأرب.

وهكذا.. استطاع «أرنو» تدبير انضمامه إلى قافلة عربية كانت تعتزم المرور بالمنطقة المذكورة ضمن رحلتها التجارية المعتادة في تلك المنطقة، وسافر الرجل متنكراً في زي عربي مع تلك القافلة بسبب معرفته المسبقة برفض أهل البلاد وجود الغرباء بينهم بسهولة، وتصنّع «أرنو» أن يبدو أمام تلك القافلة بمظهر الفقير المحتاج مع إبداء استعداده لخدمة القائمين على تلك القافلة طوال الرحلة.

وغادرت القافلة صنعاء وشاء سوء طالع هذا الطبيب الفرنسي العالم الباحث عن كنوز مأرب وسدها العظيم الواردة قصته في القرآن الكريم، دون أن يتأكد أحد من وجوده حتى ذلك الوقت، شاء حظه العاثر أن كان سادة تلك القافلة يكلفونه بأعمال شاقة أثناء الرحلة تفوق طاقته، وكان نتيجة لذلك لا يجد الوقت الكافي لنسخ ما كان يجده أو يلاحظه أثناء رحلته تلك من نقوش قديمة على بقايا آثار وأعمدة كانت تخبر بجلاء عن مدن وعواصم عظيمة سادت ثم بادت واندثرت، وغطت وأخفت عوامل الزمن والطبيعة معالمها. . وكان ـ أرنو ـ وفي المرات القليلة التي أتيحت له لنسخ ما يجده على بقايا الآثار من نقوش كان يفعل ذلك سراً وتحت تهديد الخوف من افتضاح أمره في أية لحظة أمام أعين رجال القافلة وهو ما كان يعني ببساطة موته المحقق. . دون شك.

ولكن. . وعلى الرغم من كل العذاب والتعب والإرهاق الذي لاقاه ـ أرنو ـ أثناء رحلته تلك فإنه استطاع أن ينسخ 56 نقشاً نقلها عن آثار وبقايا أعمدة من المرمر وجدها في صنعاء ومأرب وحرم بلقيس، وهي كلها مدن شهدت حضارات عربية قديمة دون شك قبل اندثار أغلبها.

وبسبب معاناة الرحلة ومشاقها تعرض ـ أرنو ـ لمرض أصاب عينيه أثناء رحلته مما أفقده بصره تماماً في نهاية المطاف، فعاد إلى صنعاء دون بصر، ومنها أرسل ما نسخه من مخطوطات إلى من كلفه بالرحلة وهو كما قلنا قنصل فرنسا في جدة الذي قام بدوره بإرسال تلك النماذج إلى «المجلة الآسيوية» التي نشرتها على عدة حلقات، ومن بين ما نشرته خريطة واضحة لسد مأرب كما رسمها ـ أرنو ـ في ذلك الزمن وكان ـ أرنو ـ بتلك الرحلة المغامرة أول أوروبي يتمكن من مشاهدة سد مأرب والتحقق من وجوده. . تماماً مثلما ذكر ذلك القرآن الكريم قبل رحلته بأكثر من ألف سنة.

الغريب. . أنه وعلى الرغم مما نشر عن نسخ تلك النقوش والاهتمام

الواسع بها في فرنسا وأوروبا عموماً في تلك الفترة، إلا أن أحداً لم يتمكن من حل رموزها ومعرفة ما حوته من معلومات. إلا بعد ذلك بسنتين أي في عام 1845ف على يد المستشرق الشهير ـ أوسياندر ـ.

وبسبب تزايد الاهتمام الأوروبي لمعرفة المزيد عن نقوش وآثار اليمن، اهتم وزير المعارف الفرنسي بالأمر، وقام بتكليف المستشرق اليهودي «يوسف هاليفي» عام 1869ف بالسفر إلى اليمن وتتبع نفس الطريق التي سار فيها ـ أرنو ـ من قبل، وهكذا توجه الأخير إلى اليمن ووصل مدينة مأرب، وعاد ومعه نسخٌ لـ 680 نقشاً جديداً حاول هذا اليهودي تحريفها بحيث بدت وكأنها كتابات عبرانية قديمة مما أفقدها أية أهمية، وكان هذا اليهودي قد تظاهر أثناء الرحلة بالإسلام فكان يدّعي أداء فروض الصلاة مع العرب، وإن كان الرعب قد سيطر عليه تماماً خوفاً من افتضاح أمره كما قال بعد ذلك. . وعلى الرغم من ذلك فقد اكتشف هذا اليهودي الفرنسي أثناء رحلته ـ بلاد الجوق ـ التي مر بها الغازي الروماني ـ اليوس غالوس ـ أثناء محاولته الفاشلة لغزو جزيرة العرب، ولم يكن أحد قد عرف موقعها من قبل.

ومن الجوق ارتحل هذا اليهودي إلى ـ نجران ـ فاكتشف عاصمة دولة العرب المعينيين ـ معين ـ التي كان اليونان قد تحدثوا عنها قبل الميلاد على أنها من عواصم اليمن الشهيرة، وفي النقوش التي حملها معه تم التعرف على أسماء العشرات من ملوك اليمن وآلهتهم وقبائلهم وعواصم بلادهم وأغلبها لم يكن أحد يعلم عنها شيئاً من قبل.

في هذه الفترة. . عاد حنين العلماء الألمان لاكتشاف مجاهل اليمن مرة أخرى. وكان على رأس العلماء الألمان الذين اهتموا بذلك عالم الآثار ـ إدوارد جلازر ـ الذي اخترق براري وصحراء وجبال اليمن وقفارها عديد المرات، وزار مدينة مأرب أكثر من مرة وهو ثالث أوروبي يصلها ويعود منها سالماً، حيث تمكن من نقل استنساخات لأكثر من ألف نقش من آثارها وآثار

غيرها من مدن وعوالم اليمن، من بينها نقوش وكتابات أرّخت لبناء سد مأرب العظيم المذكور في القرآن الكريم وتواريخ الإصلاحات التي أدخلت عليه في أزمنة مختلفة من التاريخ البعيد. .

بعد ذلك. . حاول ثلاثة علماء أوروبيين آخرين وهم إنكليزي ونمساوي وفرنسي الوصول إلى سد مأرب، غير أنهم لقوا حتفهم جميعاً أثناء الرحلة، وحاول العديد غيرهم فيما بعد الوصول إلى قفار اليمن غير أنهم إما فشلوا وعادوا أدراجهم، أو خافوا على حياتهم فصرفوا النظر عن البحث تماماً.

وتقبع الآن في متاحف أوروبا مئات القطع النادرة من آثار اليمن ونقوش حجارتها النادرة التي تتحدث عن عرب سادوا في تلك الديار، وكانت لهم حضارات ودول وعواصم وتجارة ورجال جابوا تلك المنطقة بكاملها، التي كانت تعج بالحياة والإخضرار والأنهار والسدود الضخمة على مجاريها التي لا بد أنها كانت هائلة الاتساع والوفرة في المياه. .

وعلى رغم اعترافنا المبدئي بفضل علماء الغرب في كشف أسرارها وما حوته من معلومات، إلا أن استمرار وجودها في دول ومتاحف الغرب حتى الآن وعدم إعادتها للدول التي نقلت أو نهبت منها، يعتبر سرقة لجزء هام من تاريخنا وماضينا وهو أمر يجب أن ينتهي.

عرب عاربة.. وعرب بائدة

اتفق علماء التاريخ العربي على تقسيم أو تبويب تاريخ هذه الأمة العظيمة قبل الإسلام إلى قسمين:

ـ **عرب بائدة**: وهم القبائل العربية القديمة التي كانت تقيم شمال جزيرة العرب، والتي بادت واندثرت آثارها قبل الإسلام بآلاف السنين.

ـ **عرب عاربة**: باقية وهم بدورهم يتفرعون إلى قسمين:

أ ـ **العرب القحطانية**: وهم العرب الذين كانوا يقيمون في جنوب جزيرة العرب من أهل حِمْيَرْ وحضرموت وغيرها، وكانوا يقيمون في اليمن.

ب ـ **عرب عدنانية**: وكانت تقيم في أراضي الحجاز وشمالها.. ويرجع علماء التاريخ، العرب العاربة في طورهم الأول إلى قوم عاد، وثمود، والعمالقة، وطسم، وجديس، وأميم، وجرهم الأولى وحضرموت، وقالوا إنهم من أبناء ـ سام بن نوح ـ عليه السلام.

ويقول ابن خلدون في تاريخه عنهم (وكان لهذه الأمم ملوك ودول في جزيرة العرب، وامتد ملكهم إلى الشام ومصر، ويقال إنهم انتقلوا إلى منطقة بالقرب من بابل عندما زاحمهم فيها بنو ـ حام بن نوح ـ (شقيق سام بن نوح) فسلكوا جزيرة العرب).. وهو أمر سنراه يحدث بعد ذلك فعلاً..

ومن نسل سام بن نوح خرجت قبائل عربية أخرى لابنه ـ لاوذ ـ ومنهم خرج العمالقة، أو العماليق، ومن نسل شقيقه الآخر ـ أرم ـ خرجت قبائل العرب البائدة.

وهكذا.. اصطلح المؤرخون على أن العمالقة هم قدماء العرب الذين كان موطنهم بصفة خاصة شمال أرض الحجاز وهم بذلك عرب عدنانيون، وقالوا إن اسمهم اشتق من اسم قبيلة عربية كانت تتواجد في المنطقة المعروفة الآن بالعقبة جنوب الأردن، وهي قبيلة كان البابليون يطلقون عليها اسم (ماليق) فأضاف إليها العبرانيون لفظ (عم) أي شعب، فأصبحت ـ عم ـ ماليق ـ ودمجها العرب فأصبحت عماليق.

وكان للعمالقة دولتان عربيتا الأصل إحداهما حكمت العراق قروناً عديدة عبر سلسلة طويلة من الملوك، والأخرى انسابت نحو مصر فحكمتها قروناً طويلة.. ومن هاتين الدولتين العربيتين في مصر والعراق تفرعت قبائل عربية أخرى عديدة انسابت هي الأخرى عبر هجرات جماعية باتجاه الشرق والغرب عبر آلاف السنين.

واستمرت هذه الهجرات العربية في التدفق والانتقال في طول وعرض جزيرة العرب على مدى آلاف السنين ومنهم خرج ـ السومريون ـ الذين حكموا بلاد ما بين النهرين قبل أن يتمدد حكمهم فيما بعد حوالي سنة 3800 قبل الميلاد على عهد ملكهم ـ سرجون الأول ـ الذي استقل بمملكة بابل في البداية ثم انطلق بقومه وجيوشه ليفرض سيطرته على الفرس شرقاً، وغرباً إلى حدود شبه جزيرة سيناء والبحر المتوسط.

وحدث.. أن هذه الدولة اعتراها ما يعتري تطور الدول عادة، من تطور.. ثم نكوص واضمحلال، مما أدى بها إلى الضعف والانحلال بعد أن انغمس قادتها وقوادها في الملذات والشهوات والتطاحن على السلطة، وهو

أمر أتاح في نهاية المطاف لقوم آخرين من العرب أيضاً عرفوا باسم ـ الساميين ـ للاستيلاء على السلطة، وكان أول ملوكهم ذلك الذي عرف باسم (سامرابي) أو ـ أبو سام ـ وهو الذي تذكر المصادر التاريخية أنه استولى على شمالي بابل عام 2460 قبل الميلاد وأقام هناك دولة كبرى كان لها شأن عظيم في التاريخ، ومن نسله توالى عدة ملوك حكموا الدولة ووسعوا سلطتها وفرضوا سلطانها في كل الاتجاهات، وكان من بينهم الملك ـ حامورابي ـ وهو سادس ملوكهم وحكم وحده لمدة 55 عاماً متواصلة من سنة 2287 قبل الميلاد إلى سنة 2232ق.م وهو أكثر ملوك تلك الدولة ذكراً في التاريخ القديم بسبب فتوحاته العديدة وإصلاحاته وتشريعاته التي كانت أول تشريعات دستورية حقيقية نظمت شؤون دولته ورعيته وحددت لكل عنصر فيها مسؤولياته وواجباته، ومنحته حقوقه، وهي تشريعات رتبها في 282 مادة نقشت بالخط المسماري على مسلة من الحجر الأسود عثر عليها عام 1901.

وتوالى على هذه الدولة البابلية الأولى أحد عشر ملكاً حكموا لمدة ثلاثة قرون متوالية بين القرن 24 قبل الميلاد والقرن 21ق.م.

وقد أكدت أحدث البحوث التاريخية التي أجريت خلال العقود القليلة الماضية أن دولة حامورابي عربية الأصل، وليس كما كان يعتقد من قبل.

ومرة أخرى دار الزمن دورته المعهودة على الدولة البابلية الأولى أو دولة حامورابي كما اشتهرت، فضعفت الدولة وانحلت أركانها فاستولى عليها قوم آخرون هم ـ بنو حام ـ غير أن سكان تلك الدولة من ذوي الأصل السامي لم يطيقوا العيش في ظل الحكام الجدد لدولتهم، فانطلقوا باتجاه الجنوب حيث جزيرة العرب، وحملوا معهم إلى الأرض الجديدة علمهم وتشريعاتهم الراقية المتقدمة واستقر بهم المقام بعد رحلة طويلة عبر الصحراء في اليمن حيث أقاموا هناك دولة عربية أخرى عرفت في التاريخ باسم ـ دولة العينيين ـ التي

أصبح لها شأن وذكر في تاريخ المنطقة قبل قيام دولة سبأ وحمير في نفس المنطقة بعد ذلك بعدة قرون، وفي نفس هذه الفترة شاءت قدرة الخالق عز وجل أن تنطلق هجرة أخرى من العرب العمالقة باتجاه وادي النيل، التي كان العرب الحاميون، نسبة إلى حام بن نوح، وابنه كوش، قد نزحوا إلى تلك المنطقة منذ زمن سحيق وفي عصر ربما تزامن مع عصر هجرة الساميين إلى بابل واستيطانهم بها كما رأينا قبل قليل. .

وقد أطلق سكان مصر على العمالقة الذين قدموا إلى أرضهم اسم (الشاسو) أو (الرعاة) بينما عرفت تلك القبائل العربية المهاجرة إلى مصر في تاريخ اليونان باسم «الهكسوس» ونعرف الآن أنهم من العرب البائدة، وقد حكموا مصر في أوائل القرن الثالث والعشرين وحتى أوائل القرن الثامن عشر قبل الميلاد. .

الفراعنة .. عـرب

تاريخياً. . عرف الآن وبعد تحليل آلاف الكتابات والنقوش الخاصة بتاريخ وآثار الحضارات المصرية القديمة، أن المصريين القدماء الذين نعرفهم حالياً باسم (الفراعنة) هم حاميون من نسل ـ حام بن نوح ـ وابنه كوش الذي هاجر مع قومه من شبه جزيرة العرب إلى حيث وادي النيل في زمن تاريخي قديم جداً. . وقاد أشقاؤهم من بني ـ سام بن نوح ـ هجرة أخرى إلى وسط وجنوب جزيرة العرب في نفس الفترة.

وحدث. . في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد أن تدفقت هجرة عربية جديدة باتجاه وادي النيل أيضاً قادها هذه المرة العماليق نسبة إلى قبيلة عربية أصيلة كانت تقطن بالقرب من العقبة بالأردن حالياً وهم الذين أطلق عليهم الفراعنة اسم «الشاسو» وتعنى في لغة الفراعنة «العرب» أو «البدو» وعرفهم علماء التاريخ العرب على أنهم من العرب البائدة قبل الإسلام وكانوا ينتقلون في شرق مصر بين النيل وحتى البحر الأحمر، وحتى جزيرة سيناء، كما كانت لهم صلات مع سكان منطقة بلاد الرافدين. ونتيجة لتطور التاريخ وعوامل البحث عن المزيد من الرزق والتوسع في إنشاء الممالك والدول، أو نتيجة لانهيار نظم هذه الدول وتفككها واضطرار أهلها للهجرة من جديد، خرج عمالقة العراق الذين كانوا يستوطنون بابل وما بين النهرين إلى جزيرة

العرب كما رأينا في الصفحات السابقة حيث أنشأوا في اليمن دولة (المعينيين) وخرج على أثرهم وفي نفس الفترة الزمنية تقريباً عمالقة بادية مصر أو «الشاسو» إلى وادي النيل حيث تفرقوا مرة أخرى إلى قبائل وأفخاذ وتوسعوا في إنشاء المزيد من الدول والممالك بعد ذلك في اليمن والحجاز وعلى امتداد ضفتي البحر الأحمر.

ولخروج الشاسو من مصر قصة تقول، أنّ الملك ـ أحمس ـ مؤسس الدولة الثامنة عشر في مصر قرر طرد العمالقة من بلاده، وهكذا كوّن وأعد حملة عسكرية هائلة طاردت العمالقة في كل التراب المصري وأخرجهم في نهاية المطاف من مصر بكاملها.

ولم يكتف ـ أحمس ـ بذلك بل قام بمطاردة الشاسو إلى أن أوصلهم إلى منتصف جزيرة سيناء التي نعرفها الآن في نحو سنة 1700ق.م وكان يعتزم الاستمرار في تلك المطاردة إلى أبعد من ذلك لولا وصول أخبار عاجلة من قواده على وادي النيل تفيد بأن الحبشيين وأهل النوبة استغلوا فرصة غياب ملكها وجيشها فهاجموا مصر وأوسعوا القتل والنهب فيها، وعلى ضوء هذه التطورات قرر ـ أحمس ـ العودة إلى بلاده بجيشه لمواجهة تلك الهجمات، وكانت حملة ـ أحمس ـ ضد العمالقة ومطاردته لهم خارج نطاق سيطرة الفراعنة المعهودة على وادي النيل، أول خروج للفراعنة من أرض مصر باتجاه الأراضي المجاورة لهم، والتي لم يكن أحد يعلم عنها شيئاً قبل ذلك.

ومرت مائة عام أخرى قبل أن يأتي بعدها ومن نفس العائلة الفرعونية الملك ـ تحتمس الثالث ـ الذي قاد حملة هائلة على كل ممالك الشرق العربي في القرن السادس عشر قبل الميلاد واكتسح بجيوشه سيناء وفلسطين وسوريا ولبنان وأعالي شبه جزيرة العرب وبابل وكامل المنطقة ما بين نهري دجلة والفرات، وجنوباً حتى الحبشة والصومال التي كانت تعرف باسم ـ بلاد بنت ـ.

وكانت تلك الحملات متتالية بحيث أن النقوش الفرعونية التي خلدت

تلك الحملات على بلاد الشرق ذكرت أن عددها وصل إلى 51 حملة، وأن المدن التي فتحت وصل عددها إلى 269 مدينة.

بعده قام ـ رعمسيس الثالث ـ من الأسرة الفرعونية العشرين بمهمات مماثلة حوالى سنة 1200 قبل الميلاد، وتوغل في بلاد العرب إلى أبعد مما فعل سلفه، فعاود غزو بلاد بنت ـ الحبشة ـ وأمّن طرق تجارة القوافل على طول البحر الأحمر، كما فرض الإتاوة على العديد من ملوك جزيرة العرب.

وقام بنفس المهمة وبهدف تأمين طرق التجارة بين اليمن ومصر ـ رعمسيس الرابع ـ سنة 1166 قبل الميلاد.

وفي القرن التاسع قبل الميلاد استولى الآشوريّون على بلاد بابل طمعاً في ذهب العرب وإبلهم وخيولهم وما في بلادهم من خيرات ومعادن ومنها توغلوا في شتى نواحيها.

وكانت كلا الحملتين الفرعونية والآشورية والتي اشتطت في النهب والسلب والتقتيل بين قبائل العرب، وفرض الجزية والإتاوات على ملوكهم ودولهم وقبائلهم بشكل مجحف فاق في بعض الأحيان حدود المعقول.. كل ذلك كان سبباً في الإسراع في تشتت قبائل العرب وانتشار جنسهم في المزيد من الأراضي المجهولة من قبل، وانتشار وتوالد المزيد من بطونهم وقبائلهم في مناطق بعيدة عن تلك التي عرفوا بالتواجد فيها على امتداد آلاف السنين السابقة، وكأن الله جلّت قدرته قد أراد بتلك الغزوات الظالمة على أيدي الفراعنة والآشوريين ومن بعدهم الفرس على بلاد العرب، أراد أن تكون تلك الغزوات سبباً في إعطاء دفقات جيدة من هجرات العرب باتجاه المزيد من الأراضي المجهولة في أفريقيا وآسيا لتغذي من جهة هجرات العرب القديمة السابقة إلى تلك المناطق، ومن جهة أخرى تمهّد الطريق أمام هجرات عربية أخرى سيكتب لها أن تأتي بعد ذلك بآلاف السنين عندما يشع نور الحق والإيمان من نفس المنطقة التي دفعت بأبنائها وقبائلها باتجاه الأراضي الجديدة منذ بدء الخليقة.

هجرات متتاليـة

وهكذا.. شهدت جزيرة العرب وعلى امتداد آلاف السنين قبل ظهور الإسلام العديد من الهجرات المتتالية التي كانت سبباً في انتشار المزيد من بطون وأفخاذ العرب الذين استوطنوا كل بقاعها التي كانت عامرة بالخضرة والأنهار. وهي هجرات أملتها طبيعة العربي البدوي الأصيل الذي يأبى الضيم ولا يخضع لأية إملاءات أو شروط مهما كان نوعها قد تحد من حريته وانطلاقته.. أو قد تجبره على التقوقع داخل حيِّز معيَّن من الأرض.

هذه الهجرات.. دعمتها وزادت من وتيرتها تلك الغزوات التي تعرضت لها المناطق الطبيعية لتواجد العرب داخل شبه جزيرتهم، وهي الغزوات التي شنها العرب المصريون ـ الفراعنة ـ والآشوريون ثم الفرس، تحت شعار تأمين طرق القوافل التجارية، وحقيقتها كانت بهدف الاستحواذ على ما في أيدي ومناطق تلك القبائل العربية من ذهب وأحجار كريمة تفوق الوصف.. وزاد من تكالب الآخرين على بلاد العرب وقبائلهم، ما كانت ترويه رواياتهم عن الثروات الموجودة لديهم.. وهي روايات كان لها دور بالغ الأهمية في إذكاء نزعة حب السيطرة والاستحواذ على بلاد العرب لتسخير تلك الخيرات لصالح أولئك الغزاة.

ومن بين الروايات التي كان العرب يتداولونها عن ثراء وضخامة مدنهم

ووفرة ما كان بأيديهم من خيرات تفوق الوصف، تلك التي كانت متداولة عن ثراء مدينة ـ إرم ذات العماد ـ التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وقال عنها الخالق عز وجل: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: 8] والتي اختلف المؤرخون في تحديد موقعها. وإن كان أغلبهم رجح وجودها في اليمن.

تقول القصة.. أن (شداد بن عاد) أمر ببنائها تحدياً لنبي الله «هود» عليه السلام الذي دعا أهل هذه المدينة للإيمان بالله الواحد الأحد، وأخبر أهلها بأن من يفعل ذلك منهم فإن جزاءه سيكون الجنة التي بها قصور الذهب والفضة وأنهار تجري من تحتها..

وأراد هذا الملك الكافر ـ شداد بن عاد ـ أن يبرهن لقومه أنه بإمكانه أن يفعل مثل ذلك «فأمر سكان مدينته أن يجمعوا كل ما تطاله أيديهم من الذهب والفضة والزبرجد.. والياقوت.. والمسك والعنبر.. ففعلوا.. وأمر الغواصين في بلاده بأن يستخرجوا من البحر كل ما يجدونه من الدرر واللآلي، ففعلوا.. وعندما جمع كل ذلك.. أمر ببناء المدينة بالذهب والفضة ورصعت جدرانها بالياقوت والزبرجد، والعقيق، فأنشأ بمدينته 3000 قصراً حماها بسور كان ارتفاعه 300 ذراعاً، وأقام خارج السور 300 ألف منزل لجنوده وحراسه، ثم.. أجرى تحت المدينة نهراً عظيماً كان يجري تحت كل قصورها وشوارعها عبر قنوات طليت بالذهب الأحمر، وجعل حصى الوادي من الجواهر والدرر.

وقد استمر البناء في كل هذا.. حوالي 500 عاماً كاملة عاش خلالها هذا الملك 1200 عاماً وتزوج ألف امرأة. وكان له أربعة آلاف ولد».

ونفس القصة تقريباً تناقلها العرب عن قوم ـ ثمود ـ والذين قال القرآن الكريم إنهم جاءوا بعد قوم ـ عاد ـ فخالفوا ما وصّاهم ونهاهم عنه نبيهم صالح عليه السلام في مسألة الناقة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: 78] أيضاً تداول العرب قروناً عديدة ثراء قبيلتين عربيتين

أخريين هما ـ طسم ـ و ـ جديس ـ وهما أيضاً من العرب البائدة التي اندثر أي أثر لها باستثناء روايات شعبية تداولها الناس نقلاً عن أجيال سابقة. . وبعض آثار قليلة وجدت في الأماكن التي يعتقد أنها كانت تعيش فيها.

وتروي قصص العرب أن إبادة هاتين القبيلتين اللتين كانتا متجاورتين في الإقامة سببها ملك ظالم تولى حكم ـ طسم ـ فسن قانوناً أباح به لنفسه أن يدخل على أي فتاة من ـ جديس ـ قبل زفافها إلى زوجها ـ وهو أمر لم يصبر عليه أهل جديس طويلاً، فاتفقوا على دفن سيوفهم في الرمال وأقاموا وليمة فوق نفس الموقع دعوا إليها هذا الملك الظالم، وعندما حظر الملك مع أتباعه استلوا سيوفهم وقتلوا الملك وأتباعه شر قتلة.

وحدث أن واحداً من أتباع ذلك الملك كتبت له النجاة. فهرب إلى ملك اليمن وهو ـ الملك تبع -سان ـ فأخبره بما فعلت جديس، فجند هذا الملك جيشاً حمل به على القبيلتين معاً فأبادهما. . ولم يبق ذكر لهما بعد ذلك. . سوى أطلال وبقايا حصون وقلاع موجودة حتى الآن.

وتروي قصص العرب أن ـ زرقاء اليمامة ـ التي كنا نتداول ونحن صغارٌ قصتها العجيبة في الرؤية على بعد آلاف الأميال. هي من أهل جديس، وقيل إنها أخبرت قومها بالجيش العرمرم الذي سيّره الملك تبع حسان قبل وصوله بأيام، غير أنهم لم يصدقوها. . حتى وقعت الواقعة. وهذه القصص عن الثراء التي كان الناس يتداولونها جيلاً بعد جيل على امتداد المنطقة التي كانت تعيش فيها قبائل العرب قبل الإسلام هي التي فتحت شهية الدولة المجاورة وحركت أطماعهم لمحاولة غزو بلاد العرب. . وهو غزو وإن كان قد دفع العرب ثمناً له من دماء أبنائهم. إلا أنه كان سبباً في تنشيط حركة هجرة القبائل العربية إلى المزيد من الأراضي سواء داخل شبه جزيرتهم أو في الدول المجاورة لها، ثم فيما بعد إلى تلك البعيدة عنها.

الهجـرة.. جنـوبـاً

وفي زمن ما قبل التاريخ المدوَّن، شاءت إرادة الخالق عز وجل أن يتواصل القحط وانعدام سقوط الأمطار على شبه جزيرة العرب لقرون متتالية بحيث استحالت الأرض التي كانت قبل ذلك تنعم بالخضرة والنماء، إلى صحارى جرداء قلّت الخضرة فيها وانعدمت وانحصرت في بعض الأماكن التي أصبحت واحات منعزلة هنا. . وهناك. . في تلك البوادي هائلة الاتساع.

ونتج عن هذا القحط. . أن أهل تلك المنطقة من العرب لم يجدوا أمامهم مفراً من النزوح عنها في هجرات متتالية بحثاً وسعياً وراء الكلأ والمرعى لمواشيهم وأغنامهم وأبلهم التي قيل أنها عرفت تاريخياً في تلك المناطق منذ ما قبل التاريخ بما لا يقل عن ثلاثة آلاف عام، إضافة إلى خيولهم التي كنت تتوافر لديهم بكثرة قبل زحف الصحراء والرمال على مناطق سكانهم. .

وبسبب هذا العامل، إضافة إلى عوامل التضامن على السلطة والنفوذ. . رأينا كيف انسابت هجرات القبائل العربية من شمال جزيرة العرب باتجاه الجنوب إلى حيث اليمن بجبالها وأنهارها وأراضيها الخصبة وباتجاه الشرق إلى حيث بلاد الرافدين، حيث نهري دجلة والفرات، وإلى الغرب حيث مصر ووادي النيل العظيم فيها، وهي هجرات قلنا إن أول من دشنها قوم ـ سام بن نوح ـ إلى بلاد الرافدين وشقيقه ـ حام بن نوح ـ إلى وادي النيل، ثم أعقبتها

على مدى التاريخ القديم هجرات عربية أخرى زادت وضاعفت من الجنس العربي فيهما وإن تسمّى كل منها باسم آخر.

وما يهمنا هنا.. بعد رحلة الصفحات السابقة التي بيَّنا فيها جزءاً من تلك الهجرات وأصولها العربية التي لا يرقى إليها شك، هو.. تسليط المزيد من الضوء ومعرفة المزيد من المعلومات عن هجرة القبائل العربية باتجاه الجنوب، إلى حيث «اليمن السعيد»، كما أطلق عليها العرب، ومن هناك، انطلاقها فيما بعد لتعم نصف القارة الأفريقية المجاور بكامله عبر الحبشة والصومال، بل وامتداد عناصر منها إلى شرق القارة الأفريقية، حيث هناك حكمت وأقامت الممالك والدول وامتزجت بمن سبقها من هجرات لا يعلم سوى الخالق عز وجل الطريق الذي سلكته، أو الزمن الذي تم فيه ذلك..

واليمن.. عرفها اليونانيون القدماء باسم ـ العربية السعيدة ـ بينما كان العرب قبل الإسلام يطلقون عليها اسم ـ اليمن السعيدة ـ ويعتقد أن اسم ـ اليمن ـ أطلق عليها تيمناً وتبركاً ببركة أراضيها الخصبة وأنهارها التي كانت تشق أراضيها وسهولها فتحيلها إلى خضرة دائمة.. وجنات عن يمين وعن شمال.. وكنا قد أشرنا إلى هجرات عرب شمال شبه جزيرة العرب باتجاه جنوبها وشرقها وغربها، وهي هجرات أطلق عليها العرب اسم ـ هجرات العرب العاربة ـ أو البائدة، وهم الذين كانوا أساس ونواة القوم الذين سكنوا واستوطنوا بلاد الرافدين ووادي النيل وجنوب الجزيرة العربية في أزمان سحيقة من التاريخ يعتقد أنها كانت قبل القرن 25 قبل الميلاد..

وينسب علماء التاريخ العرب على ضوء ذلك سكان اليمن القدماء إلى العرب العاربة أو البائدة، وقالوا إن الهجرة العربية الأساسية التي طبعت بصماتها على تلك المنطقة هي تلك التي تنسب إلى عرب ـ بني قحطان ـ نسبة إلى أول ملوكهم المعروفين ـ يعرب بن قحطان ـ والذي يقال إنه من أبناء سام بن نوح.

وهكذا.. بدأ تاريخ هذه المنطقة منذ ذلك الوقت معروفاً في تاريخ العرب، وهو أمر أكدته الدراسات التاريخية المبينة على ما تم العثور عليه من نقوش وآثار بيَّنت تاريخ هذه الدولة وعدَّدت ملوكها، وحدَّدت مناطق نفوذها وحكمها..

وتقول الدراسات التاريخية إنه وعندما نزل بنو قحطان أرض اليمن، وكانوا قد قدموا إليها في هجرة جماعية ضخمة من أواسط شبه جزيرة العرب، سرعان ما امتد نفوذهم وحكمهم على يد ملكهم الذي سبقت الإشارة إليه إلى كامل المنطقة المحاذية لجنوب شبه جزيرة العرب «وكان ـ يعرب بن قحطان ـ من أعظم ملوكهم وهو الذي على يديه امتد حكم تلك الدولة ليشمل كامل منطقة اليمن الحالية وسلطنة عُمان، والحجاز كله».

واستدل علماء التاريخ العرب على سعة سلطة هذه الدولة من خلال تعيين هذا الملك لعدد من أشقائه كولاة على تلك المناطق «فقد عين شقيقه ـ جرهم بن قحطان ـ والياً على الحجاز، وشقيقه ـ عاد بن قحطان ـ والياً على الشحر، وشقيقه ـ حضرموت بن قحطان ـ والياً على جبال الشحر، وشقيقه الرابع ـ عُمان بن قحطان ـ والياً على عُمان» حسب ما ذكره ابن خلدون في تاريخه..

وعندما توفي ـ يعرب بن قحطان ـ خلفه في الحكم ابنه ـ يشجب بن يعرب بن قحطان ـ ثم تولى الحكم بعد ذلك ابنه الآخر ـ عبد شمس ـ والذي أطلقت عليه بعض الروايات التاريخية اسم ـ سبأ ـ وقيل أنه هو الذي أقام السد الشهير الذي ذكره القرآن الكريم في أرض مأرب، وتعاقب على هذه الدولة 27 ملكاً، وكان أهلها سادة تجارة القوافل البرية بين الهند والحبشة ومصر والشام، وعلى عهدهم ساروا بتلك التجارة في شمال وشرق جزيرة العرب، وازدهرت بلادهم بعد تحكمهم في مياه الأمطار والسيول، وإقامتهم للسدود عليها ومن بين ذلك سدهم الشهير الذي تهدم بعد أن غضب الله عز

وجل على أولئك القوم الذين رفضوا تصديق ما جاء به نبيه هود عليه السلام وترك ما كانوا يعبدونه من أصنام، وقبل أن يتهدم سدهم أصابهم القحط لثلاث سنين متتالية أعقبها هبوب زوابع وأعاصير أصابتهم فأهلكت دولتهم فتدمر سدهم وغرق أغلبهم.. وكانت نهاية دولتهم سنة 115 قبل الميلاد بعد حكم دام 700 سنة..

وعندما مات ـ سبأ ـ «أو عبد شمس» شاءت إرادة الله عز وجل أن يترك بعضاً من ذريته، كان أشهرهم ـ حمْيَرُ ـ و ـ كهلان ـ وحمير المذكور هو مؤسس دولة حِمْيَر في اليمن، وعرفت دولتهم فيما بعد في تاريخ اليمن ـ بدولة الحِمْيريين.

التوسع العربي في كافة الاتجاهات

رأينا في الصفحات السابقة أن عصر دولة حمْير في اليمن بدأ سنة 115 قبل الميلاد وأن هذه الدولة قامت بعد تهدم سد مأرب في عهد السبئيّين، فنقلوا عاصمة ملكهم إلى ظفار أو ـ ريدان ـ كما كانت تعرف، وقد شن ملوكهم الذين تعاقبوا على حكم هذه الدولة العديد من الغارات الناجحة ضد الدول والممالك المجاورة لهم فحاربوا الفرس والأحباش. . وتقول رواية عربنا الأقدمين أن أشهر ملوك هذه الدولة هو المعروف باسم ـ شمر يهرمش ـ الذي استولى على أرض العجم وفارس وخرسان ووصلت جيوشه إلى ما وراء نهر «جيجون» في تركيا كما افتتح «شمركند» والتي سماها على اسمه. . والتي أصبحت بعد ذلك تعرف باسم «سمرقند» في آسيا الوسطى، ولا زالت على ذلك حتى الآن. وقال ابن خلدون «إنه ملك حتى بلاد الروم نفسها».

كما أن من بين أشهر ملوكهم ـ ذو القرنين ـ أو ـ أفريقس ـ الملقب بالصعب وهو من نقل المزيد من قبائل العرب إلى شمال أفريقيا في هجرة عربية جماعية.

وذكر أيضاً أن أحد ملوك هذه الدولة واسمه ـ أسعد أبو كرب ـ غزا دولة أذربيجان، وهزم الأتراك وذاع صيت غزواته وشراسة قواته في القتال فهابته الملوك وانصاعت له ودفعت له الجزية، ومن بين أولئك ملوك الهند في الشرق.

وقيل أيضاً «إنه أرسل ابنه ـ حسان ـ إلى الصفد وابنه الثاني ـ يعفر ـ إلى الروم وابن أخيه شمر إلى الفرس، وأن شمر هذا التقى بجيوش الفرس مع ملكهم فهزمهم وقتل الملك ـ كيقباد ـ ثم اجتاز بقواته إلى سمرقند فهزم ملكهم وقتله» واجتازت قواته تلك البراري والقفار في آسيا الوسطى نحو الصين فوجد شقيقه حسان قد سبقه إليها فاستوليا عليها، ويقول ابن خلدون «إن قوماً من حمير لا زالوا في الصين حتى ذلك العهد».

كما أرسل هذا الملك أسعد أبو كبر ـ ابنه الثالث ـ يعفر ـ إلى القسطنطينية ففرض الإتاوة والجزية على ملكها دون قتال واجتاز بقواته إلى روما فحاصرها، غير أن مرض الطاعون انتشر بين قواته ففتك بها، فانتهزت عساكر الروم المحاصَرة الفرصة فانقضت على ما تبقى من جيش ـ يعفر ـ فأوسعوا فيهم القتل بحيث لم يفلت أحد باستثناء يعفر نفسه وبضعة أفراد من قادة جيشه عادوا جميعاً إلى اليمن.

وقد دامت دولة حمير 640 عاماً متواصلة توالى على الحكم فيها ما بين 30 إلى 40 ملكاً. وكان آخر ملوكهم ـ ذي نواس ـ.

بعد دولة حمير جاء الدور على دولة أخرى أقيمت في اليمن، عرفت في التاريخ باسم دولة «التبابعة» والتي تولى خلالها 16 ملكاً حكم دولتهم، وقيل أنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى أول ملوكهم وهو ـ الحارث الرائش ـ الذي حكم لوحده لمدة 125 عاماً متواصلة، وذكر أنه هو الذي وحّد الدولة في عهده وكانت مجزأة إلى جزئين أحدهما في ـ سبأ ـ والآخر في حضرموت..

وعندما انصاع له حكام الشطرين سمي ـ تبعاً ـ وهو أول ملوك التبابعة كما قال ابن خلدون.

وفي هذه الفترة.. كثرت أطماع الدول المجاورة في اليمن بسبب ثراء

أهلها وكثرة خيراتها من جهة وسعة نفوذها من جهة أخرى. وتطاحن حكامها على السلطة مما مهد الطريق.. لتغير الزمن اللاحق.

وهكذا..

كان لا بد أن يفعل الزمن فعله في دولة سيطرت عليها أطماع الملوك وتطاحنهم على السلطة فيها مما ضعضع دولتهم وكسدت معه تجارتهم وأحوالهم، وهم الذين كانوا يسيطرون على تجارة القوافل القادمة من الهند إلى مصر والحبشة.

وهكذا وجد «الأحباش» فرصتهم التي كانوا يبحثون عنها منذ زمن طويل، وهم الذين بدأت دولتهم تزداد قوة ونفوذاً على حساب قوة ونفوذ اليمنيين السابق، وتقول المصادر التاريخية أن الأحباش حاولوا عديد المرات وبدءاً من القرن الأول قبل الميلاد احتلال اليمن، غير أن فرصتهم الحقيقية لم تسنح إلا في أوائل القرن السادس الميلادي عندما تمكن الأحباش في نهاية المطاف من النزول بجيوشهم في أرض اليمن. ولنزول الأحباش في أرض اليمن قصة تقول إن رجلاً من اليمن اسمه ـ ذو ثعلبان ـ أراد الانتقام من ملك اليمن في تلك الفترة وهو ـ ذو نواس ـ بسبب دعوى اضطهاده، وتعذيبه للنصارى في اليمن ونجران، وكان النصارى يتواجدون في تلك المنطقة قبل الإسلام، فسافر إلى قيصر الروم طالباً مساعدته فاعتذر ملك الروم بسبب بعد المسافة وخوفه من فشل حملة أخرى في قفار اليمن وصحراء الحجاز مثلما حدث للحملة الرومية السابقة في عهد «اليوس غالوس» غير أنه بعثه إلى ملك الحبشة النصراني، وحثه على محاولة غزو اليمن، وعندما وصل هذا الخائن مع كتاب ملك الروم إلى الحبشة أمر ملكها أحد قوّاده ويدعى «أرياط» بالخروج إلى اليمن صحبة حملة عسكرية كان فيها 70 ألفاً من الفرسان والجند إضافة إلى أعداد كبيرة من الفيلة، وكان من ضمن قواد ذلك الجيش ـ أبرهة ـ الأشرم.. الملعون.. وكان ملك الحبشة قد أوصى قائد تلك الحملة بكتاب

جاء فيه: «إذا دخلت اليمن فاقتل ثلث رجالها واضرب ثلث بلادها وابعث لي بثلث نسائها».

ولدى وصول حملة الأحباش إلى بر اليمن خرج إليهم ذو نواس في جيش ضخم واقتتل الجيشان أياماً وليالي كانت الغلبة في نهايتها لجيش الأحباش، ولم يشأ ملك اليمن «ذو نواس» أن يقع أسيراً في أيدي الأحباش ففر بفرسه إلى أن لاقاه البحر «فخاضه وهو ممتطياً صهوة جواده فغرق في البحر»، وهكذا دخل الأحباش اليمن فقتل قائد الحملة ـ أرياط ـ ثلث رجالها وضرب ثلث مدنها وبعث بثلث نسائها إلى ملك الحبشة، وتولى أمر الأحباش في اليمن بعد ذلك الملعون ـ أبرهة الأشرم ـ الذي سوّلت له نفسه وأغراه انتصار جنده في اليمن بالزحف على الكعبة المشرفة راغباً في هدمها في «عام الفيل» غير أنه هلك مع كامل جيشه وأفياله بطيور الأبابيل، كما ذكر القرآن الكريم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: 1 ـ 5] صدق الله العظيم.

دام حكم الحبشي ـ أرياط ـ في اليمن وهو الذي قاد حملة الغزو الحبشي عشرون عاماً قيل أنه في نهايتها نقم عليه بعض قادة جيشه بسبب استئثاره مع حاشيته بالغنائم والأموال التي كان يجنيها عن طريق السلب والنهب وفرض الضرائب الباهظة على أهل اليمن، وهم الذين كانوا على درجة كبيرة من الثراء بفضل تجارتهم التي كانت تتم مع بلاد الهند شرقاً ومصر والشام غرباً والحبشة جنوباً، والتي كانوا يجنون منها أرباحاً طائلة.

وهكذا تآمر عليه قادة الجيش الحبشي وكان من بينهم الملعون «أبرهة الأشرم» فحاربوه وغلبوه، وبعد انتصارهم عليه نصبوا عليهم ـ أبرهة ـ كملك وكقائد للجند، فاستمر على نهج سلفه في النهب والسطو وارتكاب الفظائع ضد سكان البلاد، إلى أن جاء وقت سوّلت له فيه نفسه إمكانية احتلال مكة

المكرمة وهدم بيتها العتيق، فسار في جيش عرمرم باتجاهها عاقداً العزم على تنفيذ جريمته النكراء، غير أنه فني وسحق مع جيشه وقواته وأفياله قبل أن ينال من مكة بالطير الأبابيل التي حمت بيت الله ودمّرت قوة أبرهة الأشرم قبل أن يصلها أو يمسها بسوء، ودام حكم هذا الملعون قبل مقتله 23 عاماً.

وعندما وصلت أخبار ما حل بالملعون أبرهة وانسحاق جيشه وأفياله بالطير الأبابيل التي صبت عليهم حجارة من سجيل فجعلتهم «كعصف مأكول». .

عندما وصلت تلك الأخبار إلى بقايا الأحباش في اليمن وتأكد الجميع من موت أبرهة الأشرم، خلفه في حكم اليمن ابنه ـ يكسوم بن أبرهة ـ فحكم هو الآخر 19 عاماً ثم مات، فخلفه شقيقه الآخر ـ مسروق بن أبرهة ـ الذي دام حكمه 12 عاماً.

وطوال هذه الفترة التي دام فيها حكم الأحباش لليمن وحضرموت حاولوا، وهم المعتنقون للديانة النصرانية نشر المسيحية بالقوة بين سكان تلك المناطق التي كانت تحت نفوذهم، غير أنهم لم يفلحوا على الرغم من أن الملعون أبرهة الأشرم كان قد بنى في صنعاء التي أصبحت عاصمة الدولة أثناء فترة حكم الأحباش كنيسة ضخمة نقشها بالذهب والفضة والزجاج الملون، ورصّع جدرانها بالفسيفساء وأقام الأصنام الخشبية فيها، وقيل إنّه جعل على تلك الكنيسة قباباً من المرمر كانت تغطى بالحرير ولا يزاح عنها ذلك إلا في أيام الأعياد المسيحية، فكانت تعطي مع أشعة الشمس لمعاناً يبهر الأبصار.

وبعد هذه السنوات الطويلة من حكم الأحباش تدمّرت أسس ومقومات الدولة اليمنية التي ساهم فيها المئات من ملوك اليمن على مدى آلاف السنين السابقة، ومعها تدمّرت تجارة القوافل التي كانت تنقل البخور والتوابل من الهند إلى مصر والشام ومنها إلى أوروبا، وعمّت الفوضى طرق تلك القوافل فلم يعد أحد يهتم بها.

ونتيجة لكل ذلك سئم سكان اليمن وملُّوا من استمرار سيطرة الأحباش على بلادهم، وكان الأجداد يقصون ويروون لأحفادهم ما حل ببلادهم على أيدي الأحباش وما حل باليمنيين من قتل وتشريد ودمار طال كل شيء، فكان لا بد من عمل شيء تعاد به عروبة اليمن، ويعاد به الحكم لأهله وأصحابه الشرعيين.

وهكذا.. قيّضت الأقدار لرجل من أمراء حِمْيَر اسمه ـ سيف بن ذي يزن ـ أن يتولى المبادرة لطلب المساعدة من الفرس لإخراج الأحباش من اليمن، فتوجه إلى ملك الفرس ـ كسرى أنو شروان ـ طالباً مساعدته لإجبار الأحباش على الخروج من اليمن وبقية المناطق الأخرى المجاورة لها، ولم يبخل عليه كسرى في تحقيق مطلبه بعد أن رأى بأن هذه هي فرصته لتوسيع حكمه باتجاه تلك المناطق والسيطرة على تجارتها وقوافلها فأرسل معه حملة عسكرية بقيادة قائد من قواد جيشه اسمه ـ وهرز ـ الذي تمكن فعلاً من الانتصار على الأحباش وطارد فلولهم حتى البحر فغرق أغلبهم في مياهه.

وكتب ـ وهرز ـ إلى ملكه كسرى يخبره بانتصاره، فأمر هذا الأخير بأن يولي سيف بن ذي يزن على اليمن بعد أن يفرض عليه دفع الجزية والاعتراف بنفوذ الفرس على اليمن وما جاورها.. وهكذا.. تولى ابن ذي يزن الحكم، وكان أول ما فعله هو استئصال كل تواجد للأحباش قد يكون لا زال في اليمن، فأوسع القتل في بقاياهم حتى أفناهم بالكامل تقريباً.

وارتكب ابن ذي يزن غلطة عمره عندما اتخذ من بعض بقايا الأحباش حراساً شخصيين له، وحدث أن خرج هذا الملك يوماً في سفر أبعده عن عاصمة ملكه، وكان يصحبه بعض من أولئك الحراس الأحباش.. «فاستخلوا به في الطريق بعد أن تمكنوا من قتل حراسه اليمنيين فقتلوه طعناً بالخناجر حتى الموت» كما ذكر الأصفهاني في كتابه الشهير ـ الأغاني ـ.

وبمقتله انتهى حكم دولة الحميريين في اليمن وعمت الفوضى

والاضطراب كافة ثغورها ولم يجد حكام الولايات التي كانت خاضعة لها بداً من الانفصال عن الدولة الأم، فاستأثر كل حاكم بالولاية التي كان يدير شؤونها تحت حكم الفرس إلى أن جاء الإسلام وشع بنوره في مكة ثم عم بقية جزيرة العرب قبل أن يعم العالم كله.

وبعد.. فقد كانت تلك وباختصار شديد قصة العرب في شبه جزيرتهم العربية، وهي قصة وجدت أنه من الضروري معرفة فصولها منذ البداية للتأكيد على أصالة الجنس العربي والذي كتبت فصوله على مدى آلاف السنين منذ آدم عليه السلام، تلك القبائل العربية الأصيلة في شبه جزيرة العرب التي كانت تجوب صحاريها ووديانها ووهادها وجبالها لتفرز عبر حقب طويلة من الزمن المزيد من البطون والأفخاذ العربية التي انتشرت واستقرت واستوطنت في كل مكان.

ومن تلك المنطقة خرج الجنس العربي إلى المناطق المجاورة له ليكتسح عبر آلاف السنين مناطق عديدة في أفريقيا وآسيا ويضع هناك بذور عروبة عشرات الدول حيث ينتشر الجنس العربي هناك حتى الآن.. وذلك حديث آخر في الصفحات التالية.

معلومات مطمورة تحت الرمال

تماماً.. مثلما لم يجد علماء التاريخ والآثار إلا القليل من المعلومات عن الحضارات العربية الضخمة التي شهدتها شبه جزيرة العرب في أوج ازدهار تلك المنطقة، وقبل أن يعم عليها الجفاف الذي أحال أراضيها الخصبة إلى صحارى جرداء.. فإنهم لم يجدوا أيضاً الكثير من المعلومات عن كيفية تنقل الجنس العربي عبر آلاف السنين قبل الميلاد نحو المناطق المجاورة لشبه جزيرة العرب في أفريقيا وآسيا، باستثناء شذرات قليلة من المعلومات وجدت مبعثرة وبالصدفة على نقوش أثرية لم يحل علماء الآثار ألغازها ورموزها إلا منذ حقب قليلة مضت.

وكما أهمل العرب بصفة عامة ذكر وتخليد دولهم ومدنهم وحضارتهم التي عمت الآفاق، وإهمال ذكر نشاطهم التجاري عبر شبه جزيرة العرب بواسطة قوافلهم التي كانت تجوب تلك المناطق باتجاه الدول المجاورة لهم في بلاد فارس وبلاد الروم ومصر والحبشة.. فإنهم أيضاً أهملوا ذكر نشاط أهل اليمن ونشاطهم البحري مع الهند والحبشة بصفة خاصة ومصر والشام بصفة عامة. كما أهملوا ذكر حقيقة الحضارات الجبارة التي تحدث عنها اليونانيون في سطور مختصرة وردت في كتاباتهم عن تاريخ المنطقة قبل الميلاد.

ومثلما أهمل سكان اليمن القدماء ذكر أي شيء عن كيفية إقامتهم لتلك السدود الهائلة التي أقاموها على أنهار ووديان بلادهم التي كانت لها جنتان عن يمين وعن شمال، فقد أهملوا الحديث أيضاً عن كيفية شقهم لتلك الممرات العميقة في الصخور عبر أميال عديدة، وطواحين المياه التي كانت تنظم الري في مزارعهم، والصهاريج الضخمة المنحوتة في الصخر بفن ومقاييس لم تعرف عند كافة الشعوب التي عرفها العالم في تلك الفترة السحيقة من التاريخ، والتي وجدت آثارها هنا وهناك في ديار اليمن وحضرموت وعُمان.

وكما أهملوا ذكر أي شيء عن ذلك.. فإنهم أهملوا أيضاً ذكر أية معلومات عن تلك التجارة البحرية الضخمة التي كانت تربط تجار اليمن مع الهند والحبشة وزنجبار ومدغشقر التي كانت تحط على سواحل بلادهم قبل عبورها بواسطة القوافل باتجاه الشمال والغرب.. وهي التجارة التي كانت سبب الثراء الفاحش الذي وردت بشأنه شذرات قليلة في كتب الأقدمين وعرف به سكان اليمن قديماً.

ويعتقد بعض علماء الآثار والتاريخ أن حضارات مثل تلك التي تم العثور على بعض آثارها في اليمن وعُرفت لمحات عن مجدها وعزها سواء في كتب الرومان واليونانيين أو عن طريق الروايات الشفهية التي توارثها الأجداد جيلاً بعد جيل.. لا يمكن أن يغفل أهل تلك الحضارات ذكرها بهذا الشكل الذي نراه الآن، ولا بد أنها لا زالت مطمورة تحت الرمال التي زحفت على تلك المناطق بعد حلول الجفاف وتغير المناخ فيها، وهم يؤكدون أن ذلك التاريخ لا بد أنه لا زال موجوداً تحت أنقاض المدن العريقة التي شهدت تلك الحضارات العظيمة في مأرب، وصرواح، ومعين، وضفار، وحضرموت، وعشرات المدن الأخرى الضخمة، والتي ستكشف الأيام عنها وعن أسرارها يوماً ما.

وكما لم يجد علماء التاريخ والآثار ما يشفي غليل شغفهم لمعرفة ما كان

يحدث في تلك الديار وما يجيب عن عشرات الأسئلة التي لا زالت عالقة دون إجابة عنها، كذلك فإنهم لم يجدوا ذكراً يشفي غليلهم عن سبب هجرة العرب القدماء إلى بلاد الحبشة وإقامتهم على مرتفعاتها الشمالية حضارة ـ أكسوم ـ التي طبّقت شهرتها الآفاق في زمن ما قبل التاريخ المدوّن.

وحتى تلك المسلات المعروفة لدى علماء الآثار باسم ـ مسلات أكسوم ـ المنحوتة على صخر الجرانيت والتي يبلغ طول الواحد منها أكثر من ثلاثين متراً، لا زالت حتى الآن لغزاً محيراً أمام علماء الآثار، حيث لا كتابات عليها تروي قصتها، باستثناء تلك الرسوم الغامضة المنحوتة على واجهتها بدقة فائقة والتي رسمت صور نوافذ وأبواب مثل تلك التي نراها في العمارات الشاهقة والتي وجد لها مثيلٌ في حضرموت. وحتى اليونانيون وفي فترة بدء تمدد نفوذهم باتجاه العالم القديم، كانت كتاباتهم القليلة عن اليمن وعن شبه جزيرة العرب بصفة عامة قد اختلطت فيها الحقائق بالأساطير والخيال، بحيث أنها أتت أشبه بروايات السندباد وعلي بابا، أكثر منها وصفاً لمدن وأقوام شهدت مجدهم تلك المناطق.. وحتى أبو التاريخ ـ هيريدوت ـ الذي زار مصر في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، يوم كانت مصر واقعة تحت الاحتلال الفارسي، وسافر عبر نيلها العظيم إلى السودان وزار شبه جزيرة سيناء وسجل ما شاهده في تلك المناطق، ورصد بعين العالم المدقق الحضارات التي كانت قائمة في تلك المناطق، لم يتمكن هو الآخر من إعطائنا صورة واضحة لما كانت عليه بلاد جزيرة العرب وجزئها الجنوبي حيث حضارات سبأ ومعين وحضرموت وغيرها، ولم يتطرق إلى تجارة تلك المناطق سواء منها البحرية أو البرية، واكتفى بسماع روايات شفهية سمعها عن بلاد العرب حَوَتْ أساطير تفوق الخيال..

قصص... أغرب من الخيال

«هيريدوت» هو أبو التاريخ كما اتفق العالم كله على إعطائه هذا اللقب، وهو مؤرخ يوناني عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وتجوّل في الكثير من بلدان العالم القديم حيث سجل ما شاهده من حضارات ودول وشعوب في كتاب ضخم كتبه بعد عودته إلى بلاده اليونان.

وعندما زار هذا المؤرخ مصر وبلاد السودان وكتب عما شاهده فيهما من حضارة عظيمة كانت قائمة على وادي النيل في القرن الخامس قبل الميلاد، توجه إلى شبه جزيرة سيناء حيث مكث هناك فترة. ومن هناك سجل معلومات سمعها من سكان تلك المنطقة عن بلاد العرب التي كانت موجودة في شبه جزيرة العرب، وجاءت معلوماته تحوي من الخيال والخرافات أكثر مما تحوي من معلومات حقيقية عن أوضاعها والأقوام التي كانت تعيش فيها، ولا بأس من إيراد بعضها هنا ـ كاستراحة ـ بعد كل المعلومات التي عشنا معها في الصفحات السابقة.

فقد قال مثلاً «إن بلاد العرب هي الموطن الوحيد للبخور واللبان المر والقرفة» وللحصول على هذه الأشياء التي كانت تجارتها رائجة في ذلك الزمن ولا تعرف عنها أوروبا شيئاً ولا عن موطنها وكيفية جنيها قال (إن الحصول عليها دونه مصاعب وأخطار هائلة وجسيمة، فالثعابين الطائرة تهاجم من يقترب

من أشجار البخور، وهذه الثعابين هي من نفس الصنف الذي طار من بلاد العرب وهاجم مصر، وهي صغيرة الحجم ومتعددة الألوان، ويقوم بحراسة أشجار البخور في بلاد العرب عدد كبير منها، والطريقة الوحيدة لإبعادها عن الأشجار هي حرق نوع معين من الصمغ فتهرب الثعابين من دخانه.. فيأتي الناس لجمع البخور من تحت أشجاره).

(أما طريقة جمع عيدان القرفة فهي أكثر غرابة من ذلك، فالعرب أنفسهم لا يعرفون من أين تأتي القرفة ولا المكان الذي تنمو فيه، ويعتقد معظمهم أنها تنبت في مكان ما من الأقليم الذي تربى فيه باخوس (إله الخمر عند الرومان) وعيدان القرفة تحملها طيور ضخمة إلى أعشاشها المصنوعة من الطين في رؤوس الجبال الشاهقة التي يصعب تسلقها، والطريقة التي ابتدعها العرب للحصول على عيدان القرفة هي أنهم يقطعون جثث عدد من الثيران والحمير إلى قطع كبيرة ويحملونها إلى المناطق القريبة من أعشاش تلك الطيور الضخمة ثم ينسحبون إلى مسافة بعيدة عنها. فتأتي الطيور وتحمل تلك القطع من اللحم إلى أعشاشها التي لا تقوى على حملها فتسقط الأعشاش على الأرض، فيأتي الرجال ويلتقطون عيدان القرفة التي يتم تصديرها فيما بعد إلى الدول الأخرى).

ثم يروي هيريدوت خرافات أخرى تتحدث عن الذهب في صحراء الهند والذي يحرسه نوع من النمل بحجم الثعلب، إذا أدركه الباحثون عنه يلتهمهم ويلتهم جمالهم... إلخ.

ولا أحد يدري من أين استقى هذا المؤرخ معلوماته الأسطورية السابقة عن بلاد العرب وعن البخور والقرفة وغيرها من الطيوب التي كانت تشكل جزءاً هاماً من تجارة أهل تلك الفترة، وإن كان يعتقد أنها معلومات سمعها من تجار عرب القوافل أنفسهم الذين كانوا يتاجرون في هذا النوع من الطيوب، وذلك بهدف إدخال الرعب والهلع في قلب كل من يفكر من الطامعين في تجارتهم وبلادهم بالحصول عليها من مصادرها.

وبالطبع لم تستمر هذه الأساطير طويلاً. فبعد هيريدوت اتسعت معارف اليونانيين بالعالم من حولهم، فنجد أن «فيثوفراست» الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد قد وصف بلاد العرب الجنوبية بشكل أكثر واقعية حيث ذكر أنهم يتاجرون في التمر واللبان والبخور، ووصف بشكل حقيقي كيفية استخراج البخور، وتحدث عن عرب سبأ وحضرموت فقال «إنهم رجال حرب وتجارة وزراعة وإنهم يسافرون على وجه البحر بواسطة سفن وزوارق مصنوعة من الجلد».

وبعده تحدث ـ إيراتوستيس ـ اليوناني عن بلاد العرب، فقسمها إلى جزئين عربية سعيدة وتقع في الجزء الجنوبي من شبه جزيرة العرب، وعربية قفراء وتقع في جزئها الشمالي. وقال عن الأولى إن أرضها خصبة ترويها العديد من الأنهار وتكثر فيها الماشية والطيور باستثناء الدجاج والأوز. أما الثانية فأرضها رملية ولا وجود للمياه فيها غير مياه الآبار، وبها بعض الواحات التي ينبت فيها النخيل ويسكنها رعاة الإبل.

وفي القرن الأول قبل الميلاد وصف «ريدورس الصقلي» ثراء سكان مدينة سبأ اليمنية بقوله (أما السبئيون فإنهم متفوقون على جميع العرب المجاورين لهم وغيرهم من الشعوب الأخرى بثرواتهم الطائلة، وهم في الواقع يحصلون على أفضل الأسعار في مقايضات البضائع والصفقات التجارية، ولكون بلادهم قد جعلتهم في منأى عن الغزو لزمن طويل، فقد تراكمت لديهم أكوام الذهب والفضة، ولا سيما في سبأ حيث يقوم القصر، فهم يستعملون أقداحاً مزينة ومنقوشة بالذهب والفضة، كما أنهم يستعملون أثاثاً فخماً لا يكاد يصدقه عقل، وانتصبت أمام منازلهم أعمدة طويلة بعضها مذهب وبعضها الآخر مزين بتيجان تحمل رسوماً فضية).

ووصف ـ بليني ـ المتوفى عام 79 بعد الميلاد عرب شبه جزيرة العرب بقوله «إن أكثر من نصف القبائل العربية التي تفوق الحصر يشتغلون بالتجارة

والعرب هم أغنى أمم العالم لتدفق الثروة عليهم من روما وفارس وتكدسها بين أيديهم، فهم يبيعون ما يحصلون عليه من البحر ومن غاباتهم ولا يشترون شيئاً مقابل ذلك».

«وإن السبئيين كانوا أعظم القبائل ثروة بما تنتجه غاباتهم الغنية بالأشجار من عطور وبما يملكونه من مناجم الذهب وما ينتجونه من العسل وشمع العسل والعطور».

وبعد.. فتلك شذرات مما كتبه بعض الغربيين القدماء عن بلاد العرب، وهي وإن حوت الكثير من الأساطير والخيال، إلا أنها أعطت في جانب آخر منها حقائق عن العرب الذين كانوا يقطنون تلك المناطق وعن ثراء تلك القبائل العربية. وهو الثراء الذي جمعته من تجارة بحرية وبرية كانوا هم سادتها دون منازع على مدى قرون عديدة قبل التاريخ وهي تجارة أوصلت الجنس العربي إلى سواحل موزمبيق على ساحل أفريقيا الشرقي، وإلى بلاد السودان في غربها، والهند وفارس في شرقها، وبلاد الشام في شمالها.

اليمنيون سادة البحر

على بقايا آثار حجرية قليلة عثر عليها في أنحاء مختلفة من اليمن. وجد علماء الآثار نتفاً من المعلومات القليلة عن حركة بحرية عظيمة ربطت سواحل شبه جزيرة العرب الجنوبية بسواحل الهند وأفريقيا منذ أزمنة تعود إلى العصر الحجري الحديث قبل آلاف السنين من ميلاد عيسى عليه السلام.

وإجمالاً. . يقول علماء التاريخ إن اليمنيين الذين يعود الفضل إليهم في الدفع بالهجرات العربية إلى أفريقيا تحديداً وإلى آسيا، وهي الهجرات التي أوصلت الجنس العربي إلى وسط وغرب أفريقيا منذ أزمنة لا أحد يستطيع تحديد بدايتها بدقة، ثم غذتها عبر هجرات أخرى متتالية عبر آلاف السنين اللاحقة، كانوا قد عرفوا النشاط البحري على طول سواحلهم الطويلة منذ أزمنة قديمة جداً، وازداد هذا النشاط تواصلاً بعد وصولهم إلى السواحل المجاورة لهم في أفريقيا وبلاد السند، ثم بلغ ذروته في فترة ازدياد حجم التجارة بين الشرق والغرب أيام اليونان والفينيقيين، وهي التجارة التي كانت فيها توابل وذهب ومعادن الشرق تنقل على ظهور الآلاف من الإبل في قوافل هائلة الطول عبر جزيرة العرب باتجاه الشمال والغرب، وقد بينت تلك النقوش الأثرية القليلة التي عثر عليها في حضرموت أن بلاد العرب الجنوبية ارتبطت بشرق أفريقيا بصلات بحرية قوية منذ عصور موغلة في القدم، حيث كانت مراكب

اليمنيين تقوم بالتنقل بين سواحل اليمن وسواحل أفريقيا الشرقية وعلى طول سواحل البحر الأحمر باتجاه مصر.

وفي القرن الأول قبل الميلاد زار سواحل بلاد العرب الغربية والجنوبية رحالة يوناني مجهول الاسم صاحب كتاب «الطواف حول البحر الأرتيري» وفيه كشف جوانب هامة عن ماضي اليمن البحري لم يتطرق إليها أحد قبله، وفيه بيّن أن العرب الجنوبيين لا يسيطرون فقط على تجارة القوافل البرية الرابطة بين جنوب شبه جزيرة العرب وبلاد الشام شمالاً، وإنما أيضاً كانوا يفرضون سيطرتهم على تجارة البحر بين موانئهم وسواحل شرق أفريقيا والهند، وذكر مراكبهم البحرية التي كانت تنقل التجارة والبشر حتى سواحل ميناء ـ رابطا ـ على ساحل موزنبيق إضافة إلى سيطرة العرب على نيجيريا والصومال والحبشة وساحل كينيا وعلى طول سواحل موزنبيق.

وعلى الرغم من هذه المعلومات عن تجارة سكان اليمن بواسطة قواربهم الشراعية وسيطرتهم على كل هذه الأجزاء من سواحل أفريقيا في الفترة التي زار فيها هذا الرحالة اليوناني المنطقة في القرن الأول قبل الميلاد، إلا أن السؤال لا زال قائماً. . كيف انتقل الجنس العربي وبكل الكثافة التي نراها الآن عبر منطقة تكاد تستحوذ على نصف قارة أفريقيا بكاملها، بل كيف تمكن العرب من الوصول إلى أبعد من ذلك إلى حيث جنوب أفريقيا وجزيرة مدغشقر. . ؟.

وهنا. . تقول المصادر التاريخية إن قارتي آسيا وأفريقيا كانتا في الزمن القديم براً واحداً لا يفصل بينهما شيء. . حيث يذكر ـ ابن مجاور ـ في كتابه «تاريخ المستبصر» أن القلزم ـ وهو هنا البحر الأحمر ـ إلى عدن وإلى وراء جبل سقطرة كله برٌّ واحد متصل لا فيه بحر ولا باحة، فجاء ذو القرنين في دورانه ووصل إلى هذا الموضع، ففتح خليجاً في البحر فجرى فيه إلى أن وقف على جبل باب المندب».

ويقول الدكتور «جواد علي» في كتابه «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» إن البحر الأحمر كان بحيرة في الأصل، وكانت أفريقيا والعربية الجنوبية ـ اليمن ـ قطعة واحدة عند جنوب هذه البحيرة ـ عند مضيق باب المندب حالياً ـ وحدث أن خسفاً وقع مما أدى إلى انفصال أفريقيا عن العربية الجنوبية الغربية، فاتصل المحيط الهندي بالبحيرة، وتكوّن البحر الأحمر، وكان الناس قبل وقوع هذا الانفصال ينتقلون براً وكأن أفريقيا وجزيرة العرب قطعة واحدة، ومن هنا كانت الهجرات». ويضيف ـ ابن مجاور «وكان بحر القلزم ـ البحر الأحمر ـ أرضاً يابسة فلما فتح ذو القرنين باب المندب غرقت جميع الأراضي وما علا منها صارت جزراً، فجرى البحر فيه إلى أن وقف آخر القلزم «قبل فتح قناة السويس» حيث كان مغلقاً عند طرفه الشمالي «فطال وعرض وترخى وانبسط، وانفرش فبانت أرض عدن».

أيضاً نجد معلومة أخرى عن ترابط قارتي أفريقيا وآسيا في الموقع المعروف الآن بباب المندب في كتاب «المفيد في أخبار زبيد» الذي كتبه الملك ـ فيجاش بن نجاح ـ أحد ملوك بني نجاح في اليمن حيث يقول: «إن البحر بين البرين العربي والأفريقي كان واحداً، وإن الناس كانوا يعبرون هذا البر سيراً على الأقدام».

وإذا أضفنا هذه المعلومات لما أكدته دراسات الجغرافيين عن ارتباط القارات بعضها ببعض في أزمنة تعود إلى ملايين السنين. وملاحظة عدم استحالة الفصل بين قارتي أفريقيا وآسيا في المنطقة المعروفة الآن بباب المندب لقصر المسافة بينهما، فإننا لا نستبعد ما أورده ـ ابن مجاور ـ عن قيام ـ ذي القرنين ـ بفتح ذلك الجزء. خاصة إذا عرفنا أن هذا الملك وهو من أشهر ملوك دولة حمير في اليمن وكان يحكم الدولة في الفترة الواقعة بين 300 و320 قبل الميلاد هو واحد من أهم الذين قاموا بنقل قبائل العرب إلى أفريقيا.

إذا ما سلمنا بذلك.. فإننا سوف لن نستغرب بعد ذلك في أن قبائل

عربية كاملة كانت تنتقل عبر تلك المنطقة سيراً على الأقدام أو خلف قوافل التجارة البرية، ناقلة في كل مرة المزيد من الجنس العربي إلى أفريقيا وسواحلها حيث استقرت تلك القبائل واندمجت واختلطت بسكانها عبر آلاف السنين.

الهجرة.. سببها الجفاف

والآن . . وبعد أن اقتنعنا بإمكانية وسهولة التنقل بين قارتي أفريقيا وآسيا عبر باب المندب بسبب ارتباط ذلك الجزء ترابياً قبل أن يقوم (ذي القرنين) في فترة ما من القرن الثالث قبل الميلاد بهدم الجزء الفاصل بين ـ بحر القلزم ـ حيث البحر الأحمر الآن، والمحيط الهندي، حيث تواصل امتداد البحر والمحيط بعد ذلك عبر بوغاز باب المندب.

بعد اقتناعنا بإمكانية حدوث ذلك، يجب الآن أن نعرف لماذا اضطرت القبائل العربية للهجرة من شبه جزيرة العرب حيث كانت تعيش هناك إلى الساحل المقابل لهم في أفريقيا.

يقول علماء الجيولوجيا، إن بلاد العرب كانت في العصر الجليدي الأعظم غزيرة الأمطار مثلها مثل المنطقة الواقعة في شمال أفريقيا حيث الصحراء الكبرى الآن بسبب الرطوبة الجوية الناشئة عن الثلوج الهائلة التي كانت تغطي معظم المناطق الأوروبية.

ويضيف أولئك العلماء أن شبه جزيرة العرب التي نراها الآن قاحلة تغطيها الرمال من كل جانب، كانت في تلك الفترة مغطاة بالمراعي الفسيحة والغابات الكثيفة وتتواجد فيها كافة أنواع الحيوانات الضخمة التي نراها الآن في وسط أفريقيا، واستمر الوضع كذلك لبضع ملايين من السنين إلى أن حدث

وبشكل مفاجىء ولأسباب لا زالت مجهولة حتى الآن، تغير في المناخ عم الكرة الأرضية بكاملها وهو أمر أدى إلى ذوبان ثلوج أوروبا مع مرور الزمن، وأدى بالتالي إلى انقشاع الرطوبة الجوية عن المناطق الأخرى الواقعة جنوبها وشرقها حيث تناقصت معدلات سقوط المطر تبعاً لذلك. . وشيئاً فشيئاً أخذ الجفاف يعم مناطق شبه جزيرة العرب وشمال أفريقيا، وحلت الرمال والحرارة المتصاعدة محل ما كان موجوداً هناك مما أجبر الإنسان الذي كان يستوطن تلك المناطق على الهجرة باستمرار طلباً للكلأ والمرعى لحيواناته، وهرباً من الجفاف والقحط.

ومع استمرار الجفاف استمرت قبائل العرب في التنقل في كافة الاتجاهات هرباً من ذلك الجفاف الذي بدأ يزحف ودون توقف على المناطق التي اعتادوا العيش فيها من قبل، وبحثاً عن مناطق أخرى تصلح لأن تكون مأوى لهم وتمدهم مع قطعان ماشيتهم بالحياة.

ومن هنا. . رأينا في الصفحات السابقة كيف انتقلت قبائل العرب البائدة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد وما بعده من شمال جزيرة العرب باتجاه الجنوب إلى حيث سواحل الجزيرة العربية الجنوبية، حيث اليمن وحضرموت وغيرهما، وحيث أقاموا هناك الدول والممالك التي بلغت هناك أوجاً عظيماً من الحضارة والثراء، وإلى حيث وادي النيل ونهري دجلة والفرات. .

ومع استمرار تدفق الهجرات العربية من شمال الجزيرة العربية، كان لا بد أن تبحث تلك القبائل عبر آلاف السنين من تدفقها إلى الجنوب عن مناطق أخرى أكثر ملائمة لها وأكثر استعداداً لاستقبال أعدادها المتزايدة باستمرار، ومن هنا ولأن قارتي أفريقيا وآسيا كانتا ملتصقتين في منطقة باب المندب كما رأينا فيما سبق، فقد انتقلت قبائل العرب باتجاه. . أفريقيا.

وهناك. . في أفريقيا أدت هذه الهجرات العربية وعلى مدى عشرات السنين إلى امتزاج الدم العربي بالدم الأفريقي حيث اختلطت قبائل العرب

بالأفارقة فامتزجت معهم وتزاوجت معهم أخذاً وعطاءً مما نتج عنه ظهور جيل عربي الأصل أفريقي الدم واصل هو الآخر امتداده في أعماق دواخل أفريقيا الشرقية ووسطها حتى منطقة البحيرات العظمى.

ويقول المؤرخون إن هجرة معاكسة إلى سواحل بلاد العرب الجنوبية انطلقت لأسباب غير محددة من شرق أفريقيا أساسها أجيال المولَّدين الذين تجري في عروقهم دماء عربية ويحملون لون بشرة الأفارقة، وهو ما أدى إلى المزيد من الامتزاج بين الدم العربي والأفريقي مرة ثانية، ونتيجة لهذا الاختلاط في الدم بين الأفارقة وأشقائهم من عرب سكان السواحل الجنوبية والغربية من شبه جزيرة العرب، استقر في تلك المنطقة لون جديد من العرب من ذوي البشرة شديدة الإسمرار، مما جعل بعض علماء الأجناس يعتقدون أن سكان تلك المناطق يرجعون في أصولهم العرقية إلى الأفارقة، وهو أمر عارضه غيرهم من علماء الأجناس بشدة فيما بعد، على ضوء ما استجد من معلومات حديثة، وأثبتوا أن العرب من ذوي الدماء الأفريقية والذين قاموا بهجرة معاكسة عبر باب المندب وبرزخ السويس، مروا أثناء هذه الهجرات ببلاد العرب، وهناك اختلطوا بالقبائل العربية فأثّروا فيهم وتأثّروا بهم عبر التزاوج والامتزاج مرة أخرى.

وفي هذا الصدد يقول المؤرخ (ج. بيرين) في كتابه (اكتشاف جزيرة العرب) «لقد تأثرت أفريقيا بالدماء الآسيوية ـ القادمة من جزيرة العرب ـ وكان تأثيرها في دماء سكان الشرق الأدنى وجزيرة العرب قليلاً. ولهذا من الصعب تصور هجرة سامية عربية ضخمة من أفريقيا إلى جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق».

وقد أكدت الوقائع والشواهد صحة تلك الرؤية حيث من الملاحظ أن تأثر بلاد العرب بالدماء الأفريقية لم يتعد حدود المناطق المتاخمة للصحراء

والهضاب التي تفصل الشريط الساحلي عن أعماق بلاد العرب.

وبالطبع لا أحد يدري سبب تلك الهجرة المعاكسة، ولا كيف أنها لم تتغلغل إلى أعمق ممّا فعلت، وإن رجح أغلب علماء الأجناس سبب ذلك إلى الجفاف الذي كان قد ضرب جزيرة العرب وأحال مراعيها الواسعة وأرضها الخضراء إلى رمال متحركة ومحرقة.

ومن هنا.. أكدوا أنه ليس من المعقول تصور هجرة ضخمة معاكسة من أفريقيا إلى آسيا هكذا.. لمجرد حب الهجرة.. تاركين وراءهم أراضي خصبة وأمطاراً دائمة وأنهاراً هائلة، إلى أراضٍ صحراوية قاحلة مثل تلك التي أصبحت عليها أراضي شبه جزيرة العرب، والأصح أن نتوقع أو نستنتج استمرار كثافة الهجرات العربية إلى أفريقيا، ومن نتيجة نسلهم فيها، واختلاطهم بسكانها عاد المولَّدون من أصلابهم إلى سواحل شبه جزيرة العرب، وهم سبب تلون بشرة بعض سكان تلك المناطق.

امتزاج الدم العربي بالدم الأفريقي

من كل ما سبق الحديث عنه، نستنتج أن هجرات عربية مكثفة حدثت باتجاه السواحل الأفريقية الشرقية، وإلى الحبشة والصومال وجنوب مصر والسودان، قبل ظهور الإسلام بقرون عديدة، وهي هجرات كانت تنساب عبر باب المندب بشكل أساسي، حيث لم يكن هناك بحر يفصل قارتي أفريقيا وآسيا، وبتلك الهجرات امتزج الدم العربي بالدم الأفريقي وحدث نتيجة تزاوج الطرفين أخذاً وعطاءً وأنتج جيلاً جديداً من البشر حمل دم أجداد عرب أقحاح، ولون أبناء القارة السمراء. .

وهناك. . على السواحل الشرقية لقارة أفريقيا، وعلى الجزر القريبة منها عاش المهاجرون العرب كمجموعات كانت صغيرة العدد في بداياتها الأولى ثم أخذت تزداد وتتوسع باستمرار مع مرور الزمن، بينما تحولت المناطق الأفريقية المحاذية والمواجهة لشبه جزيرة العرب مثل الحبشة والصومال وأريتريا والتي تغلغلت فيها الهجرات العربية ووصلت إلى أعماقها، عربية بالكامل ولا زالت حتى الآن، باستثناء الحبشة التي انحصر فيها المد العربي لأسباب سنذكرها فيما بعد.

ولا غرابة. . فقد عرف حتى وقت قريب أن الشريط الساحلي الأفريقي،

وعلى طول البحر الأحمر حالياً وخليج عدن كان على ارتباط وثيق بالسواحل العربية المقابلة له لدرجة أن الساحل وعلى الجبهتين كان وفي عديد المرات تحكمه حكومة مركزية واحدة، والتي كانت على الغالب في الجانب العربي بعدن . .

وقد كشفت الدراسات الأثرية الحديثة أن العرب الذين هاجروا إلى الحبشة وفي وقت مبكر هم الذين يرجع إليهم الفضل الأكبر في إنشاء وتأسيس ـ مملكة أكسيوم ـ التي قامت بالحبشة، وبلغ من عمق التأثير العربي في ساحل أفريقيا أن أطلق الإغريق ثم الرومان من بعدهم على كامل الساحل الشرقي لأفريقيا وحتى موزمبيق اسم (ساحل أزانيا) نسبة إلى إحدى الممالك العربية القديمة التي كانت تسيطر على كافة الأراضي الواقعة على ساحل جنوب الجزيرة العربية وكانت عدن ميناءها الرئيسي، وهي قبيلة ولسبب ما غير معروف تماماً انتقلت بكاملها إلى سواحل شرق أفريقيا واستقرت هناك . .

ومن بين أهم المصادر التاريخية المدونة التي أخبرت عن علاقة العرب بسواحل شرق أفريقيا كتاب كان قد ألفه ملاح إغريقي زار المنطقة في بداية النصف الثاني من القرن الأول الميلادي وهو ملاح مجهول الاسم وحمل عنوان (الطواف حول البحر الأرتيري) . . وقد حفل الكتاب بوصف شيق ومعلومات كانت غاية في الأهمية عن تلك المنطقة على الرغم من قلتها، حيث تحدث عن العرب الذين يحكمون تلك المنطقة وتجارتهم وسفنهم التجارية التي كانت تنتقل بين السواحل الجنوبية لجزيرة العرب وسواحل شرق أفريقيا، كما وصف اختلاط العرب وتزاوجهم مع نساء ذلك الساحل وقال إن زعماء الساحل الأفريقي كانوا في تلك الفترة يدينون بالولاء لأمراء حِمْيَر في اليمن، وإن هذا الساحل بكامله يوم قام بزيارته كان إمارات صغيرة يحكمها العرب، وإن العرب المستوطنين في تلك المناطق كانوا يتكلمون لغة أهل البلاد بطلاقة . .

واستمرت العلاقة القوية المزدهرة مع تلك المنطقة وعرف أهلها الثراء الواسع بسبب تجارتهم النشطة والواسعة مع اليمن حيث كانوا يتبادلون العاج والذهب والعنبر والأخشاب والعسل الأفريقي بالسلع القادمة من اليمن، كالحلي المعدنية والبخور والملح والتمور وغيرها من توابل الشرق التي كان اليمنيون يستجلبونها من الهند وسواحل بلاد فارس. وكان لعرب تلك المناطق أيضاً أسطول تجاري ضخم كان يسيطر على تجارة القوارب على سواحل موزمبيق وحتى مدغشقر جنوباً.

وابن بطوطة الذي زار المنطقة بعد صاحب كتاب (الطواف حول البحر الأرتيري) في القرن الثالث عشر وصف نفس الإمارات العربية التي كانت موجودة في تلك المناطق والتي استمرت حتى وصول البرتغاليين كغزاة، حيث وجدوا على رأس كل مدينة وقرية على امتداد الساحل الشرقي لأفريقيا إما أميراً أو شيخاً مسلماً. . والأوروبيون يعترفون بأنه عندما وصلت أقدامهم القذرة إلى ذلك الساحل أثناء مرحلة الغزو الاستعماري لكل قارة أفريقيا بأن العرب كانوا عنصراً هاماً من العناصر التي حملت لواء الحضارة والتقدم إلى كامل الساحل الشرقي لأفريقيا وحتى أعماقها الداخلية، وقد عدد (ريتشارد بيرنون) وهو أحد الرحالة الأوروبيين في القرن التاسع عشر العديد من المراكز التجارية التي أوجدها العرب في تلك المنطقة. . كما أسهب في الحديث عن الجهود الزراعية التي قام بها العرب هناك، وكيف أن الدول التي أقامها العرب هناك كانت تتمتع بالأمن مما جعل الأفارقة يستوطنون فيها بأمان، وهو أمر أدى إلى تدعيم علاقتهم أكثر فأكثر بالعرب المقيمين فيها. . وقد أكد على هذه الحقائق ذاتها رحالة أوروبي آخر اسمه (ليفوجستون) في القرن التاسع عشر الميلادي حيث أكد أنه وأثناء زيارته لمنطقة البحيرات الإستوائية في قلب أفريقيا «وجد نفسه محاطاً بالعرب من كل جانب» أما الشريط الساحلي المواجه لبلاد شبه جزيرة العرب، ولعروبته الكامل فقد كان يعرف أيضاً حتى وقت قريب ببلاد

ـ عادل ـ أو ـ عدول ـ وهي المنطقة التي تتواجد فيها دولتا الصومال وأرتيريا. وليس هذا فحسب، بل إن آثاراً أكدت أن العرب قد وصلوا إلى جنوب أفريقيا ذاتها في زمن يعود إلى ما قبل قيام دولة سبأ بزمن طويل، وأنهم كانوا يسيطرون على كافة تلك المناطق التي كانت تزخر بمناجم الذهب، ويقول المؤرخ (بيترز) في كتابه (التاريخ العربي القديم) بعد أن قام بدراسة المنطقة الممتدة من زيمبابوي وحتى نهر سابي جنوباً (إن جالية من العرب الجنوبيين كانت تستوطن هذه المنطقة منذ الألف الثانية قبل الميلاد، وإنه كان لها السيادة على تلك الأراضي التي كان يستخرج منها الذهب بكميات كبيرة في تلك الفترة).

شعلة الإسلام.. يحملها العرب

الذي لا يختلف عليه اثنان من علماء التاريخ أو الأجناس، أو الآثار أن منطقة ساحل شرق أفريقيا وعلى امتداد ساحل البحر الأحمر الجنوبي المواجه لساحل شبه جزيرة العرب شهد بعداً جديداً غير مسبوق، ودفعاً لم يسبق له مثيل من قبل في العلاقة بين العرب والأفارقة وذلك على أثر بدء إشعاع الدين الإسلامي في شبه جزيرة العرب، وهو الإشعاع الذي عم جزيرة العرب بكاملها فيما بعد ثم امتد نوره ليشمل ويعم مناطق واسعة من شرق أفريقيا ووسطها وغربها.

فهذا البعد الذي بدأ منذ ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي، زاد في توطيد علاقة العرب بالأفارقة بشكل لم يحدث من قبل، وتمثل في أن العرب الذين واصلوا زحفهم على شكل هجرات متتالية، حملوا معهم هذه المرة إضافة إلى تجارتهم وقوافلهم ديناً وعقيدة أعطت لهذا التواصل معنى حضارياً إنسانياً أكثر شمولية وأوسع مدى، وهو أمر أدى بدوره إلى دعم العلاقة بين الطرفين وعمّق الصلات بينهما بشكل لم يسبق له مثيل..

وهكذا.. حمل المسلمون سواء منهم المهاجرون أو المتتبعون لقوافلهم التجارية شعلة الإسلام الخالدة، وبها واجهوا عبادات وثنية غاية في البدائية كانت تستوطن كل مناطق أفريقيا، وبشكل خاص غربها ووسطها. كما حمل

العرب معهم إلى تلك المناطق معارفهم وثقافتهم وتقدمهم الحضاري والمادي والمعنوي في كافة الميادين، وبالذات في مجال التجارة والزراعة، حيث تؤكد المصادر التاريخية الأفريقية أن العرب هم الذين يرجع إليهم الفضل في إدخال العديد من أنواع المزروعات التي تشتهر بها أفريقيا الآن مثل جوز الهند الذي جلبه العرب معهم من سواحل الهند، وقصب السكر وصناعته من مصر، والأرز والقطن من آسيا، إضافة إلى عديد الأنواع الأخرى والتي كانت جميعها مصدر خير لأفريقيا وأهلها ولا زالت حتى الآن.

وكما لم تقف الصحراء وركوب المجهول حائلاً دون الامتداد العربي في أفريقيا الشمالية وجنوب الصحراء الكبرى بعد زمن، فإنها لم تحل أيضاً دون تمكنهم وفي سنوات قليلة فقط من إدخال شعوب بكاملها في الإسلام بسبب روح التسامح والمحبة المشبعة بالروح الإنسانية التي جاء بها الدين الجديد وعمق العلاقة الأخوية التي نسجت خيوطها عبر آلاف السنين، وهي صفات مكنتهم من الاستيطان بأمان ثم التنقل والتأثير على أشقائهم الأفارقة.

وقد تحدثنا في الصفحات السابقة عن ـ أفريقش ـ أو ـ أفريقس ـ كما تذكره بعض المصادر التاريخية، وهو الملقب «بذي القرنين» أو «الصعب» وهو الفاتح العظيم المنتمي إلى الطبقة الثانية من ملوك دولة حِمْيَر في اليمن وحكم في الفترة من 300 إلى 320 قبل الميلاد وهو الذي يرجع إليه الفضل الأكبر في نقل العديد من القبائل العربية قبل الميلاد إلى منطقة شمال أفريقيا، وباسمه عرفت القارة كلها باسم أفريقيا، وهو الاسم الذي لا زالت تحمله حتى الآن.

وعندما شاءت إرادة الخالق عز وجل أن يبدأ إشعاع نور الإسلام من جزيرة العرب وأن يمتد نوره ليشمل كافة الأنحاء المجاورة ثم إلى الأبعد من ذلك، لم يجد من تولى الدعوة لدين الله في شمال أفريقيا أو جنوب صحرائها الكبرى حيث دول الساحل التي نعرفها الآن، والممتدة من السودان وأريتريا شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، لم يجدوا معارضة أو صداً يحد من

انطلاقتهم بدينهم وسط قبائل عربية سبقتهم بآلاف السنين إلى تلك المناطق، ووجدت في الدين الجديد الأمن والسلام والحقيقة التي كانت تبحث عنها. ومن هنا. . انطلق العرب السابقون واللاحقون معاً وفي جهد واحد لنشر الدين الإسلامي وسط قبائل كانت لا تدين بالولاء إلا للخرافات والأساطير والأوثان وسرعان ما تمكن أولئك الأجداد من إحتضان شعوب بكاملها واحتوائها ضمن أذرع الدين الإسلامي الحنيف، عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة. ويعلق «الدكتور يوسف فضل» عن السهولة التي تغلغل بها العربي والأفريقي المسلم إلى المناطق الأفريقية بقوله «إن العرب لم يظهروا بمظهر السادة فليس في روحهم التعالي ولا تحمل أيديهم أسلحة القتال».

وكما لم يحمل العرب المسلمون سلاحاً معهم أثناء توغلهم مع أشقائهم الأفارقة المسلمين في مجاهل القارة السمراء شرقاً وغرباً ووسطاً، فإنهم أيضاً لم يحاولوا فرض شيء على الشعوب التي دخلت سلماً في دين الله، بما في ذلك لغتهم العربية نفسها التي كتب بها القرآن الكريم.

ومن هنا. . دعت الضرورة إلى وجوب إيجاد لغة مشتركة للتفاهم بين الطرفين العربي والأفريقي، فكانت في البداية اللغة ـ السواحلية ـ التي سدت الفراغ وأوجدت لغة تخاطب مشتركة بين الطرفين، وبها انطلق الطرفان معاً لتعميق علاقتهما من جهة وللانطلاق نحو المزيد من الأشقاء الأفارقة في العديد والمزيد من المواقع من جهة أخرى. .

وكما أوجد الاختلاط العربي الأفريقي اللغة السواحلية كلغة تخاطب مشتركة، كان أساسها منذ البداية الحرف العربي قبل أن يقدم الاستعمار الذي نكبت به أفريقيا في القرن التاسع عشر الميلادي بتغيير حروفها إلى الحرف اللاتيني، فإن العرب أثّروا أيضاً في العديد من اللغات الأفريقية الأخرى مثل «البولارية» أو «الفولانية» ولغة «المندنكا» ولغة «الهوسا» والأخيرة كتبت هي الأخرى في بداياتها الأولى بالحرف العربي ثم تحولت إلى الحرف اللاتيني في

فترة الاستعمار، وهي كلها لغات يتحدث بها الملايين الآن في دول الساحل الأفريقي وحتى أعماق وسط أفريقيا، إضافة إلى تأثيرها في العديد من اللهجات المحلية الأفريقية الأخرى غير الواسعة الانتشار.

قارة تتكلم بـــ 800 لغة والعربية.. أولها

صنف علماء اللغة قارة أفريقيا على اعتبار أنها من أعقد قارات العالم في مجال تعدد اللغات المحلية فيها، لدرجة أننا نعرف الآن أن هذه القارة التي يسكنها حالياً أكثر من 500 مليون نسمة تتكلم 800 لغة ولهجة محلية وربما أكثر من ذلك، وعلى الرغم من كثرة هذه اللغات واللهجات الأفريقية المتنوعة وتعقدها، فإننا نجد إذا قارنا بين عدد سكان شمال أفريقيا من العرب، والذين يتكلمون أساساً باللغة العربية إلى نسبة سكان القارة الأفريقية ككل، وهي نسبة تصل إلى أكثر قليلاً من 25٪ فإننا سنجد ببساطة أن اللغة العربية تعتبر إجمالاً هي اللغة الأولى في قارة أفريقيا بكاملها..

ويؤكد الباحثون في هذا المجال أن التأثيرات العربية الإسلامية المتلاحقة والتي صاغت إلى درجة كبيرة نمط حياة الأفارقة في البلاد الواقعة حول ساحل الصحراء الأفريقية، وفي الكثير من بلدان شرق أفريقيا وحتى جنوبها..

هذه التأثيرات العربية الإسلامية أوجدت انعكاساً مباشراً لها في العديد من لغات ولهجات الدول الواقعة في هذه المنطقة، وهي اللهجات واللغات التي نعرف الآن تماماً أنها تعود في أصولها النهائية إلى اللغة العربية أساساً، وهو تأثير لم تستطع أن تفعله اللغات الأوروبية عندما وفدت مع المستعمرين

البيض لقارة أفريقيا في القرن التاسع عشر على الرغم من محاولاتهم المستميتة في هذا المجال. .

وقد لعب وصول الإسلام إلى هذه المناطق الأفريقية دوراً أساسياً وفاعلاً في نشر اللغة العربية في كل المناطق التي انتشر فيها، ذلك أن القرآن كان بلسان عربي، وكتب بالخط العربي، وشعائر الإسلام لم يكن ممكناً تأديتها بأية لغة أخرى غير اللغة العربية التي كانت هي الأساس قبل أن تتم ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى في أزمنة لاحقة على ذلك الزمن بوقت طويل. .

الغريب. . والذي أدهش حتى العلماء المختصين، سواء في اللغة أو التاريخ أو الحضارة أن التقدم العربي الإسلامي باتجاه أفريقيا بعد ظهور الإسلام وقيام دعاته الأجلاء في السنوات الأولى لبدء بزوغه على العالم، لم يجد صداً أو مقاومة تذكر في كافة المناطق التي دخل إليها، وحتى وهو يقتحم أهم معاقل تلك القبائل الوثنية البدائية في قلب مجاهل الصحراء والغابات وسط أفريقيا، بل إنه وعلى العكس من ذلك، كان الإسلام بعروبته التي يحملها بين دفتي كتاب الله عز وجل يقتحم كل يوم مجاهل جديدة استعصت على غيره من الأديان السابقة كالمسيحية مثلاً، التي كانت معروفة في الكثير من مناطق العالم قبل الإسلام، ولم يكتب لها تحقيق ما حققه الإسلام على الرغم من القرون العديدة التي مضت على بدئها، وفي أفريقيا مثلاً لم تستطع التغلغل والاستيطان إلا في الحبشة وحدها بينما استطاع الإسلام وفي زمن قياسي اقتحام نصف قارة أفريقيا بكاملها. .

وفرض وجوده فيها. . ولا زال حتى الآن.

وهكذا. . اعتنق الأفارقة دين الإسلام بمعطياته ومصطلحاته التي فسرتها اللغة العربية وبسّطتها أمام المتلقين له، وهي المعطيات التي لم يجد الأشقاء الأفارقة غضاضة في الاستعانة بها في لغاتهم ولهجاتهم المحلية. . ومن هنا بدأ الأفارقة في تدوين عدد من لغاتهم المحلية بالأبجدية العربية، وكان على رأس

تلك اللغات الأفريقية التي فعلت ذلك عن طيب خاطر لغات الهوسا ـ والفلاني ـ والتكرور ـ والولف ـ والسواحلية والتي دونت بها شعوب أفريقيا وخاصة في غربها تراثها الثقافي. .

وسرعان ما امتدت اللغة العربية بلهجتها الحسانية الفصحى لتحل تدريجياً محل لغات عربية قديمة كانت سائدة في شمال أفريقيا. .

ووسط الصحراء الكبرى، استقرت اللغة السواحلية التي تتكلم بها العديد من الشعوب الأفريقية في غرب أفريقيا بشكل خاص كلغة قائمة بذاتها، وهي مزيج من العربية واللهجات الأفريقية، وتصل نسبة الحرف العربي فيها إلى أكثر من النصف. .

ووصل التمازج الحضاري والعرقي العربي الأفريقي إلى حد أن الكثير من القبائل الأفريقية لا زالت حتى الآن تفاخر بعودة نسبها إلى العرب وتحتفظ في خزائنها بما يثبت هذه الأصول، وهي وثائق مكتوبة بالخط العربي الحساني وقد شاهدت عدداً منها لدي أسر مالية في تمبكتو في نهاية العام الماضي. .

وقد أكد على هذه الحقيقة رحالة ألماني اسمه ـ بارث ـ زار منطقة غرب أفريقيا في القرن التاسع عشر، وقال إن الكثير من قبائل غرب أفريقيا تحتفظ بمخطوطات عربية نادرة تنسب بها أصولها إلى الفاتح العربي عقبة بن نافع، بينما أورد مؤلف كتاب (الإسلام في السودان) أن بعض التواريخ المتعلقة بجزيرة مدغشقر والتي وصلها العرب قبل الإسلام، وكانوا يعرفون باسم ـ المدى الأبعد ـ وغيّر الأوروبيون اسمها فيما بعد إلى اسمها الحالي ـ مدغشقر ـ وجزر القمر، والتي تتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل تؤكد امتزاج العرب بالقبائل الأفريقية، ومن ذلك أن شعب ـ الاينمترون ـ في الجنوب الشرقي من جزيرة مدغشقر كان ثمرة اختلاط بين العرب المهاجرين إلى تلك المنطقة وقبائل الأنكارا القديمة.

ويذكر المستشرق ـ جبرابيل حيزان ـ من جهته «أن الكثير من سكان مدغشقر لا زالوا يحتفظون حتى الآن بكتب ومخطوطات بالخط العربي تؤكد أصولهم العربية» ثم يضيف «وهذه الأمور وغيرها تؤكد تأثير العرب القدماء في تكوين الشعب الملاغاشي» وكل هذا التمازج والتأثير الذي أوجدته اللغة العربية في لغات الأفارقة أكد وأضاف عليه تواصل اختلاط الطرفين والمعايشة بينهما إلى درجة التمازج البشري، الذي أدى فيما بعد ولا زال حتى الآن إلى تبادل التجارب والعادات والتقاليد ووسائل المعرفة، وكل هذه التفاعلات لا تقتصر على غرب أفريقيا فقط، وإنما نجده أيضاً في الحبشة وشرق أفريقيا حيث تأثرت اللغة الأمهرية والصومالية باللغة العربية . .

لغة العرب.. وسط مجاهل القارة

قلنا إن العرب الذين واصلوا تدفق هجراتهم على أفريقيا انطلاقاً من شبه جزيرة العرب بعد الإسلام، تماماً كما فعل أسلافهم قبل الإسلام بقرون عديدة، حملوا هذه المرة بين جوانحهم دينهم الإسلامي المكتوب بالحرف العربي، وهو دين لا يمكن فهم ما فيه أو معرفة ما حواه أو تطبيق ما جاء به، إلا لمن كان على علم باللغة العربية، خاصة في تلك الفترة التي لم يكن ممكناً ترجمته إلى اللغات الأخرى كما يتم الآن.

وكان لا بد أمام أولئك الأجداد الأبطال «جزاهم الله كل خير على كل ما فعلوه من أجل الإسلام» كان لا بد لهم من إيجاد لغة تخاطب مشتركة بين العرب والأفارقة، بها يمكن التخاطب والحديث، وبها يمكن إفهام الإسلام للأقوام التي كانت دون شك في غاية اللهفة والترقب لتقبله أو معرفته بدليل انتشاره بينها منذ ذلك الوقت بسرعة لم يعرفها أي دين آخر على مدى التاريخ كله.

وهكذا ظهرت عدة لغات أفريقية جديدة وحملت منذ بداياتها الأولى شهادة ميلادها العربية عن طريق الحرف العربي الذي كتبت به، ولغات أخرى طعِّمت وأدخلت عليها الحروف العربية وأصبحت تكتب بها، ومن بين عديد اللغات الأفريقية التي كتبت بالحرف العربي اللغة السواحلية ـ ولغة الهوسا ـ

ولغة سوننكي ـ ولغة الولف ـ ولغة تمني ـ واللغة الصومالية ـ ولغة الفولاني ـ إضافة إلى تسع لغات محلية في السودان هي الدينكا ـ الزائدي ـ الباري ـ المورو ـ اللاتوكا ـ الشلك ـ النوير ـ المورلي ـ الأنواك ـ إضافة إلى اللغات التي تتكلم بها قبائل العرب المعروفين باسم ـ البربر ـ في جبال أطلس.

ومن بين أشهر اللغات الأفريقية التي كتبت بالحرف العربي اللغة السواحلية التي ارتبطت ومنذ بداياتها الأولى ارتباطاً وثيقاً باللغة العربية، وهو ارتباط ظهر واضحاً في الطريقة التي نشأت بها هذه اللغة، وهو أمر انعكس بشكل واضح على مفرداتها وتراكيبها اللغوية، ومكن تلك اللغة التي حملها في مرحلة لاحقة العرب والأفارقة معاً إلى الانتشار في مجاهل جديدة وسط قارة أفريقيا، وأتاحوا أمامها فرصة الانتشار من غرب أفريقيا إلى ساحلها الشرقي.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور «حامد حريز» مدير معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية بجامعة الخرطوم في بحث مطول عن هذه اللغة «إن العرب الذين هاجروا من الجنوب العربي والخليج العربي إلى شرق أفريقيا، استعملوا لغة السكان المحليين وغذّوها بكلمات وعبارات عربية، ونتجت عن ذلك اللغة السواحلية» ويضيف: «إن هذا الرأي ينسجم مع ما وصل إلينا من معلومات أوردها الرحالة والجغرافيون والمؤرخون عن الهجرات العربية إلى شرق أفريقيا، وعن احتكاك العرب بالأفارقة، حيث إننا نجد أنه ومنذ اللحظات الأولى لذلك الاحتكاك في مطلع التاريخ الميلادي اختلط العرب بالأفارقة وتزاوجوا معهم وتحدثوا لغتهم» وهو أمر أورده وأكد عليه ذلك المؤلف المجهول لكتاب «الطواف حول البحر الأرتيري»، وليس هذا فحسب، بل إن أولئك المؤرخين وجدوا أيضاً أن اللغة العربية التي انتشرت في شرق أفريقيا، كانت هي لغة الإدارة والتجارة والحكم والقضاء والأدب بالنسبة للطبقات العليا في تلك المجتمعات، بينما اكتفى عامة الناس بالقليل منها الذي يمكنهم من ممارسة تعاليم الإسلام، وفيما عدا ذلك كان التعامل اليومي بين عامة الناس

وأعلاهم شأناً عرباً وأفارقة معاً يتم بواسطة اللغة السواحلية المطعمة بالكلمات العربية.

وكما لعبت اللغة العربية دوراً هاماً في نشأة اللغة السواحلية، فإنها أيضاً كانت سبباً في إسهام المتحدثين بها من العرب والأفارقة في نشرها بعد ذلك وعلى نطاق واسع داخل القارة الأفريقية، بحيث أن المتكلمين بها أصبح عددهم يتزايد يوماً بعد يوم إلى درجة أنها وصلت في امتدادها وانتشارها في نهاية القرن الثامن عشر إلى حدود أوغندا وزائير في وسط القارة الأفريقية وحتى موزمبيق على ساحلها الشرقي، وأصبحت لغة تخاطب رئيسية في كل تلك المناطق ولغة رسمية في التجارة والقضاء والأدب والتعليم والإدارة..

ويقول خبراء اللغة السواحلية أن نسبة تأثير الحرف العربي حالياً في تلك اللغة تتعدى نسبة 22% بعد أن تمكن الأوروبيون أثناء استعمارهم للقارة الأفريقية من فرض كتابتها بالحرف اللاتيني وإلغاء كتابتها بالحرف العربي. بينما لا يتعدى تأثير لغات بقية الأقوام الأخرى الذين عرفتهم القارة على امتداد تاريخها اللاحق من أوروبيين وفرس وهنود نسبة الـ 6% فقط.

ولأن هذه اللغة حملت منذ البداية شهادة ميلادها العربي وأصبحت فيما بعد هي لغة التخاطب ولغة نقل كتاب الله ـ القرآن ـ بين أبناء القارة الأفريقية بسبب سرعة انتشارها بين الأفارقة حتى في أعماق الصحراء وأعماق أدغالها، فإن المسيحيين الذين كانوا يجدون صعوبة بالغة في الوصول إلى المناطق التي وصل إليها الإسلام على الرغم من محاولاتهم المستميتة، فإنهم بسبب ذلك لم يتهاونوا عن محاربة هذه اللغة محاربة لا هوادة فيها.

فهذه اللغة السواحلية التي استقر تواجدها وتطورها دون انقطاع منذ دخول الإسلام إلى غرب أفريقيا في بداية السنوات الأولى لهجرة الرسول المصطفى ﷺ على أيدي الفاتحين والدعاة الأوائل، والذين حملوا إلى هناك خاتمة رسالات السماء للبشر أجمعين، استطاعت إضافة إلى انتشارها أن

تحافظ على مدى قرون عديدة على الحرف العربي الذي كتبت به أصلاً، ولم يجرؤ أحد على تغيير ذلك، على الرغم من محاولات المسيحيين الذين كانت الكنيسة تضاعف من أعداد إرسالياتهم إلى أفريقيا في كل مرة والذين انصبت محاولاتهم الأولى على محاولة وقف انتشار اللغة السواحلية بشكل خاص، وإنهاء استعمالها للحرف العربي، ومن جهة ثانية وقف انتشار الإسلام الذي حملته إلى أصقاع ومجاهل وسط أفريقيا، وهي المجاهل التي لم يستطع المسيحيون اختراقها على الرغم من قدم عهدهم بأفريقيا وضخامة الإمكانيات الهائلة التي كانت تحت حوزتهم من أجل ذلك.

ولذلك عندما نكبت القارة الأفريقية بالحملات الاستعمارية الأوروبية التي دشنها البرتغاليون أولاً، كان من بين أولى أهداف ذلك الغزو الهمجي هو وقف استعمال الحرف العربي في اللغة السواحلية بصفة خاصة وبقية اللغات الأفريقية الأخرى بصفة عامة واستبداله بالحرف اللاتيني، وهو أمر تمكنوا من تحقيقه فيما بعد ـ للأسف ـ.

حرب ضد اللغة

في عام 1896ف قام «مبشر» مسيحي ألماني الجنسية بزيارة شملت العديد من الدول الأفريقية أثناء فترة ما يسميه الغرب ـ مرحلة الاستكشاف الجغرافي ـ وهي التي كانت في حقيقتها مرحلة إعداد الخرائط والبيانات وجمع المعلومات عن قارة أفريقيا تمهيداً لمرحلة الغزو التي تبعت بعد ذلك، وبها أخضعت كل أفريقيا لهيمنة الاستعمار الغربي، وقام هذا المسيحي واسمه ـ كارت روها ـ بزيارة دولة ـ زنجبار ـ «تنزانيا الحالية» والتي كانت تحكمها في تلك الفترة دولة إسلامية عربية.

والمصادر الأوروبية تذكر بوضوح أن هذا المسيحي انزعج بشدة لدى اطلاعه على ـ كتاب الإنجيل ـ الخاص بالمسيحية والذي كان يتم تداوله في تلك المناطق، والذي كان مكتوباً بلغة أهل زنجبار التي تحوي من لغة العرب أكثر مما تحوي من اللغات الأفريقية الأخرى، إضافة إلى كتابته بالحرف العربي.

ومن هنا غادر هذا المسيحي أفريقيا، وعكف وهو في بلاده التي عاد إليها، على إعداد ـ إنجيل ـ جديد كتب كل كلماته بالحرف اللاتيني، وحذف منه كل الكلمات العربية التي حواها الإنجيل السابق، واستبدل معانيها بكلمات ومعاني استعارها من لغة أفريقية أخرى تعرف بلغة «البانتو» القديمة، وعاد مرة ثانية إلى أفريقيا ومعه إنجيله الجديد عام 1926ف.

ولكنه وعلى الرغم من كل الجهد الذي بذله هذا المسيحي والذي قيل أنه استغرق ربع قرن بكامله، فإن إنجيله لم يجد قبولاً من أهل زنجبار، وبدلاً من ذلك وجد صداً عنيفاً من الجميع لا زال متواصلاً حتى الآن، وحتى المستعمرون الإنكليز لمّا حاولوا فرض لغتهم في المدارس عندما استعمروا تنزانيا ووجهوا بصد عنيف من أهل المنطقة هم أيضاً لدرجة أن عشرات الآلاف من تلاميذ المدارس وفي كافة المراحل امتنعوا عن الذهاب إلى فصول الدراسة على مدى حقب طويلة استمرت حتى نهاية الستينات تقريباً ولا زال بدرجة أقل حتى الآن، وإن كان الأشقاء الأفارقة يحذرون منذ الآن بأن ذلك قد لا يستمر طويلاً، حيث تقف المؤسسة المسيحية الدولية بكاملها الآن وراء مخطط تنصيري يتستر تحت عناوين براقة تشمل مؤسسات أكاديمية، ولجاناً علمية، ومراكز بحوث وغيرها من الواجهات الأخرى والتي تعمل كلها تحت شعار تطوير اللغات الأفريقية، وخاصة منها تلك التي لا زالت تحمل في طياتها حروفاً أو معاني عربية من أجل تحويلها إلى لغة أخرى تخلو تماماً من الحرف العربي، بل وحتى المعنى العربي لبعض الكلمات التي تتعلق بالدين الإسلامي، وعلى رأس تلك اللغات الأفريقية المستهدفة اللغة السواحلية.

وفي إطار هذه الحرب التي يشنها المسيحيون ضد اللغة السواحلية القديمة، نجد مسيحياً آخر اسمه «يوليوس ريتشر» وعقب زيارة قام بها إلى أفريقيا في نهاية القرن الماضي، لاحظ هو أيضاً مدى تأثير اللغة العربية في العديد من اللغات التي تتواجد في أفريقيا وعلى رأسها اللغة السواحلية، ومن هنا وجه رسالة إلى ما كان يسمَّى بـ«مؤتمر المستعمرات الألمانية» الذي انعقد عام 1905ف قال فيه «إن الإسلام ينتشر حيثما انتشرت اللغات المرتبطة به وسط أفريقيا وغربها وشرقها وحتى في وسطها» ودعا هذا المسيحي في رسالته صراحة «إلى الحد من انتشار هذه اللغات الأفريقية المكتوبة بالحرف العربي، وبشكل خاص ـ تحريم ـ استعمال اللغة السواحلية، التي تستعمل أكثر من غيرها الحرف العربي في دواوين الحكومة».

ولم تتردد الحكومة الألمانية في توجيه رسالة رسمية إلى حكام مستعمراتها في أفريقيا بعد ذلك بعامين ـ عام 1907ف ـ تقول فيها «إن استعمال الكتابة العربية في الدوائر الرسمية والوثائق الحكومية أمر يحرمه القانون».

وللأسف. . ونتيجة لغياب ردة فعل إسلامية عربية أفريقية إسلامية موازية للحملات المجنونة التي شُنت ضد اللغة السواحلية على مدى القرن الحالي، فقد أصبح الحرف العربي في هذه اللغة «حبيساً للتراث الديني والتاريخي القديم»، ولم تعد تستعمل إلا نادراً بشكلها العربي القديم وبين كبار السن فقط، بينما خلت الساحة تماماً أمام اللغة السواحلية الحديثة المكتوبة بالخط اللاتيني الأوروبي.

وفي زنجبار أيضاً، والتي كانت مملكة إسلامية كاملة مترامية الأطراف على الساحل الشرقي لأفريقيا، كانت تستخدم اللغة السواحلية بحروفها ومعاني كلماتها العربية الكاملة حتى وقت قريب في كل مدارسها ودواوينها الحكومية، وحتى الإدارة الإنكليزية التي احتلت الدولة لم تستطع فرض اللغة السواحلية المكتوبة بالحرف اللاتيني عندما حاولت إدخالها في مناهج التعليم الابتدائي عام 1907ف وفشلت خطط الإدارة الإنكليزية تماماً في هذا المجال على مدى أكثر من ستة عقود متتالية، ولم يلتحق سوى عدد قليل من أبناء تلك الدولة بسلك التعليم على الرغم من كل الإرهاب الذي مارسه الإنكليز من أجل ذلك. . ونجح هذا المخطط تماماً عام 1964ف عندما صدر قرار حكومي رسمي يُحرِّم تدريس اللغة العربية أو القرآن الكريم أو علوم الدين الإسلامي في كامل أنحاء الدولة، كما قضى القرار أيضاً بمصادرة كافة كتب اللغة العربية وكتب القرآن الكريم، كما يقول «علي عمر مزي» في بحث له بعنوان «أوضاع اللغة العربية في زنجبار» قدمه لمعهد الخرطوم الدولي للغة العربية عام 1983ف.

وهكذا. . تكاثفت جهود كل من الإدارات الاستعمارية بمختلف أشكالها

وأنواعها والتي تكالبت على قارة أفريقيا منذ بدء فترة الحملة الاستعمارية لها، مع جهود ما يسمى «المبشرين» المسيحيين المدعومين من مؤسسات دولية هائلة الإمكانيات، بشراً ومالاً، والهدف الأول لكل أولئك هو محاربة الإسلام والمسلمين، ومحاربة كل ما ينتمي لذلك، وبصفة خاصة الحرف العربي الذي به كتب القرآن، وبه نشر الأجداد رسالة التوحيد في كافة أصقاع الأرض.

30 لغة أفريقية.. كتبت بالحرف العربي

في بحث نشره المعهد الأفريقي بالسنغال عن «الحرف العربي واللغات الأفريقية» كتبه الدكتور ـ يوسف الخليفة أبو بكر ـ رئيس المجلس الأعلى للشؤون الدينية والأوقاف بالسودان الشقيق قال فيه إن الإحصائيات التي قام بها أشارت إلى أن عدد اللغات التي تمت كتابتها بالحرف العربي في أفريقيا وآسيا منذ بداية ظهور الإسلام الذي حمل لغة العرب والحرف العربي الذي كتب به كتاب الله وآخر رسالة منه للبشر كافة أنزل على قلب محمد بن عبد اللّه عليه الصلاة والسلام، أكدت أنه «كان هناك أكثر من 60 لغة من لغات الأمم والمجموعات الإسلامية على مستوى العالم كانت تكتب بالحرف العربي من بينها حوالي 30 لغة في أفريقيا وحدها».

وقد قلنا من قبل إن جهداً مكثفاً يبذل حالياً من قبل المستعمرين الغربيين دولاً وحكومات ومؤسسات وهيئات مع دعم كامل ولا محدود من قبل الكنيسة المسيحية الأوروبية من أجل محاربة العقيدة الإسلامية، أو على الأقل محاولة محاصرتها في أضيق نطاق ممكن وبصفة خاصة داخل المناطق الأفريقية التي تتواجد فيها.

وقد تركزت جهود الطرفين ومنذ البداية وبناء على توصيات (المبشرين) المسيحيين كما رأينا من قبل على محاربة اللغة العربية ومواجهة المتلقّي

الأفريقي المتعطش للدين الإسلامي، وعندما فطن أولئك المسيحيين لمدى ارتباط الحرف العربي بالعديد من اللغات الأفريقية امتدت حربهم القذرة لتلك اللغات نفسها بسبب معرفة أولئك الحاقدين «بأن الحرف العربي الذي تكتب به لغة قوم من شأنه أن يكون حلقة الوصل بينهم وبين القرآن المكتوب بالحرف ذاته». فإذا تعلم الأفريقي أو غيره كيف يكتب لغته بالحرف العربي. بإمكانه فيما بعد قراءة القرآن بأقل جهد ممكن وإذا كتب لغته بحرف غيره انقطعت الصلة بينه وبين القرآن، وحتى وإن تواصلت فإنها ستكون بجهد مضاعف، إضافة إلى عامل آخر لا يقل أهمية عن الأول وهو الارتباط النفسي الذي يربط أصحاب اللغة المكتوبة بالحرف العربي وتراث هذا الحرف من حيث الماضي والحاضر والمستقبل.

وهكذا.. فالعرب الذين حملوا دينهم الإسلامي معهم إلى داخل أفريقيا منذ العهود الأولى لظهور هذا الدين وانتشاره في كافة الاتجاهات، حملوا معهم الحرف العربي إلى كل المناطق التي وصلوا إليها، وبه أثّروا في العديد من لغات الأقوام الذين اختلطوا بهم وقد رأينا فيما سبق كيف كتبت اللغة السواحلية بالحرف العربي منذ القرون الأولى للإسلام.

وإضافة إلى اللغة السواحلية، هناك ثلاثين لغة أفريقية كتبت بالحرف العربي وعلى رأسها كبريات اللغات التي يتكلم بها عشرات الملايين في أفريقيا، وقد عدد الباحث السابق الإشارة إلى أهم هذه اللغات كما يلي:

- لغة الهوسا ـ ويتم التحدث بها في نيجيريا والنيجر والكامرون والسودان وغانا.

- لغة الفلاني ـ وهي تنقسم إلى العديد من اللهجات منها «فلاني فلفدي باغرمي ـ بورورو ـ فونا جولان ـ يولار ـ ماتشينا ـ وهي لغات يتم التحدث بها في كامل المنطقة الممتدة من السودان شرقاً إلى السنغال غرباً.

ـ لغة السواحيلي ـ ويتم التحدث بها في تنزانيا ـ كينيا ـ أوغندا ـ الكونغو.

ـ لغة مانديكان ـ وهي رابع لغة من حيث الانتشار ويتم التحدث بها في سيراليون ـ غانا ـ ليبيريا ـ ڤولتا العليا ـ غينيا.

ـ لغة سوننكي ـ يتحدث بها في مالي ـ السنغال ـ موريتانيا ـ غامبيا.

ـ لغة ولوف ـ ويتم التحدث بها في السنغال ـ غامبيا.

ـ لغة تمني ـ ويتحدث بها في سيراليون.

ـ اللغة الصومالية ـ ويتم التحدث بها في الصومال وجزء من كينيا والحبشة.

وهناك تسع لغات يتم التكلم بها في أنحاء مختلفة من السودان وكلها كتبت بالحرف العربي في منتصف هذا القرن، وهي ـ الدينكا ـ الزائدي ـ الباري ـ المورو ـ اللاتوكا ـ الشلك ـ النوير ـ المورلي ـ الأنواك ـ لغة فياديشي ـ ويتم التحدث بها في بلاد النوبة.

إضافة إلى اللغة الشلحية التي يتم التحدث بها في جبال أطلس...

هذه هي أهم اللغات الأفريقية التي يتم التحدث بها في أفريقيا وهي لغات تنقسم في العديد منها إلى لهجات عديدة أخرى وكلها تكتب بالحرف العربي ولا زالت كذلك بالنسبة للعديد منها، غير أن بعضها ـ للأسف ـ تمكن الغربيون وكنيستهم من استبدال الحرف العربي الذي كانت كتبت به إلى الحرف اللاتيني ويبذلون حالياً جهوداً حثيثة وتحت مسميات مختلفة للإجهاز على ما تبقى منها.

وفي المقابل هناك بعض الأساتذة والعلماء في جامعات أفريقيا يبذلون جهوداً مضنية في الاتجاه المعاكس لذلك، ويدعون إلى تطوير الحرف العربي الذي تكتب به هذه اللغات الأفريقية من الناحيتين الجمالية والوظيفية، ومن بين أولئك الأستاذ السنغالي «كريم توري» الذي دعا إلى ضرورة تكثيف الأبحاث

لتقنين الكتابة بالحروف العربية التي تكتب بها لغات الهوسا والمانديكا والتمني، والاستفادة من المدارس القرآنية في أفريقيا كمراكز لمحو الأمية، حيث أثبتت التجربة نجاح الفكرة في بعض بلدان القارة.

وما يثلج الصدور في هذا المجال أن أشقاءنا الأفارقة الذين احتضنوا الحرف العربي مع احتضانهم لدين الله منذ أن عرفوه، قاموا وبإمكانياتهم المتواضعة بحماية الحرف الذي كتب به كتاب الله طوال القرون الماضية وحتى الآن، ولم تستطع كل الدعايات الغربية ولا جهود الاستعماريين الذين غزوا القارة واستعبدوا أهلها طوال قرون عديدة التأثير عليهم أو إقناعهم بالتحول إلى الحرف اللاتيني في كتابة لغاتهم لسبب بسيط، وهو أن الحرف العربي صار جزءاً من التكوين الحضاري للشخصية الأفريقية الأصيلة..

مقارنة.. بعد ألف و400 عام

عندما كانت الطائرة المغربية التي أقلتني مع زميلي المصور «الجليدي المهدي» من الدار البيضاء إلى باماكو عاصمة مالي في نهاية العام الماضي «1428م». . عندما كانت هذه الطائرة تخترق السحاب والأفق الأزرق الصافي فوقنا باتجاه تلك البلاد، كانت مساحة الأراضي المترامية الأطراف تحتنا والتي كانت تبدو بوضوح من خلال شباك الطائرة تزداد اصفراراً ووحشة كلما اتجهنا جهة الجنوب، فقد كانت الرمال الموحشة والهضاب والمرتفعات التي لا يحصى عددها تتراءى لنا على طول تلك المسافة الفاصلة بين الدار البيضاء وباماكو.

واستعدت وأنا أرقب كل تلك الرمال الصفراء والهضاب والجبال السوداء مدى المشقة والجهد الذي بذله آلاف الأجداد العرب الذين كانوا يخوضون تلك الفيافي والقفار المجدبة قبل حوالي ألف ونيف عام باتجاه أماكن سكن وإقامة أشقائهم في أفريقيا حاملين الإسلام في قلوبهم، وعلى ظهر إبلهم عشرات الأنواع من منتجات شعوب الشمال الأفريقي والبحر المتوسط، وعائدين ومعهم منتجات أشقائهم الأفارقة من تبر ذهب وعاج وريش نعام. . إلخ وعشرات الأنواع الأخرى من التجارة التي جمعت بينهم وبين أشقائهم في أفريقيا، في ترابط أخوي كان أساسه الاحترام المتبادل والذي امتد لقرون

عديدة ماضية على وصول الإسلام إلى منطقة شمال أفريقيا، ثم انتشاره فيما بعد على أيدي أولئك التجار في جهد مشترك مع أشقائهم الأفارقة إلى كافة مجاهل غرب أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، والتعمق به فيما بعد إلى وسط أفريقيا وإلى أبعد من ذلك.

واسترجع خيالي وأنا أجلس في تلك الطائرة على مقعد مريح وفوق رأسي مكيف هواء ينفث البرودة المنعشة في كافة الاتجاهات، وحولي مضيفات يقدمن كل ساعة نوعاً جديداً من الأكل والشرب، كيف كان أجدادنا «عليهم رحمة الله أجمعين» يسيرون خلف إبلهم المحملة بالمنتجات المختلفة وهم يخترقون تلك البراري القاحلة جيئة وذهاباً تلفح وجوههم وأجسادهم الشمس المحرقة طوال شهور متتالية، ويكتفون بشرب قطرات قليلة من المياه التي تحملها إبلهم، والتي كانت تكفي فقط للوصول إلى النقطة التالية التي يمكن الحصول منها على المزيد منه، حيث كان الحرص أن ينقل التاجر على ظهور إبله أكبر كمية من البضاعة بينما يكتفي بنقل القليل من الماء والطعام.

وتخيلت وأنا على ارتفاع ثلاثين ألف قدم من سطح تلك الرمال الهائلة الاتساع وبسرعة تقارب الألف كلم في الساعة، كيف كان أولئك الأجداد وعندما تنطلق قوافلهم باتجاه الجنوب إلى حيث مجاهل أفريقيا وما كان فيها من أخطار لا يعلم مداها إلا الله يضطرون لتوديع أهاليهم وأطفالهم وداع الذي يضع نصب عينيه وقبل كل شيء احتمال عدم العودة، حيث تستغرق الرحلة على ظهور الإبل الشهور الطويلة قبل أن تصل إلى مبتغاها وهدفها، وسط مجاهل تحمل أخطاراً لا يمكن التكهن بها، ولا يمكن تفاديها في بعض الأحيان، أولها قطاع الطرق، وآخرها الحيوانات المفترسة، وبين هذا وذلك الهوام والعقارب والأفاعي المتربصة بكل غافل على طول طرق القوافل.

وعندما وصلنا إلى باماكو عاصمة مالي، لم ألتفت إلى شيء من عمارتها الحديثة والتقدم فيها ولا إلى حركة السيارات الفارهة وغير الفارهة التي كانت

تخترق طرقاتها المتربة، ولم أعر اهتماماً لفنادقها أو مبانيها الحديثة، بل كان كل همي أن أرصد ما تبقى من حضارة الأجداد السابقين فيها، سواء منها تلك التي على شكل مبان صغيرة قديمة بالية لا زالت بعض آثارها باقية خلف شوارع وأزقة ضيقة لم تطلها يد التمدن بعد، أو تلك المخطوطات التي خلفها أولئك الأجداد، أو رصدت بعيون وأيدي أشقائهم الأفارقة وصولهم إلى تلك المجاهل أو سجلت ما كان. . وما حدث.

وطبعاً. . كنت كمن يبحث عن إبرة وسط بحر، خاصة في مسألة المباني والعمران الأفريقي القديم، حيث زحفت المدينة أو المدنيَّة على كل شيء، خاصة في باماكو وقضى الاستعمار الفرنسي البغيض الذي جثم بأنفاسه القذرة على تلك الديار على مدى عشرات السنين على أغلب تلك المظاهر المادية التي ربطت الأفارقة بأشقائهم العرب على مدى قرون عديدة.

و. . . وحدها مدينة ـ تمبكتو ـ بمساجدها العتيقة وبقية مبانيها التي لا زالت تحمل الطابع العربي الإسلامي في مجال العمارة صمدت ولا زالت صامدة أمام ما حدث حيث قاوم أهلها كل تطفل غربي مهما كان نوعه للمس بتلك المعالم.

فمسجدها الإسلامي العتيق الواسع الأرجاء لا زال كما هو، تماماً كما بناه المسلمون الأوائل و«الكتاتيب» القرآنية القديمة لا زال الكثير منها يحتفظ بنفس الهيئة التي كانت عليها عندما كان آلاف الأطفال الأفارقة يرددون فيها ولأول مرة سور القرآن الكريم.

وخيل إلي وأنا أزور واحداً من تلك الكتاتيب في تمبكتو، أن صدى كلمات أولئك الأطفال الذين أصبحوا رجالاً فيما بعد وحملوا راية الإسلام وتوسعوا به في مجاهل أفريقيا الأبعد، لا زالت تتردد بين جنبات ذلك المكان حتى الآن بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يرددها عشرات الأطفال الأفارقة الحفاة، وراء شيخ مسن عربي الملامح والصفات قد يكون تاجراً قدم مع قافلة،

فباع قافلته، مع إبلها وكل ما فيها وفضل التفرغ لنشر دين الله، أو عالماً إسلامياً متفرغاً قدم أصلاً لهذه الغاية فعلم أطفال تلك المنطقة دين الإسلام، وقضى نحبه هناك بعد أن أدى رسالته على أكمل وجه (عليهم رحمة الله جميعاً).

ووحدها أيضاً بقيت صامدة المخطوطات التاريخية المكتوبة بالخط العربي والتي توجد الآلاف منها في متحف المدينة وبيوت عشرات الماليين تنتظر من ينفض الغبار عنها لكشف أسرارها وما حوته من معلومات في التاريخ والأدب والدين، كتبها وخط يراعها علماء أجلاء وأدباء وكتاب سير وملاحم، وأرخت لتاريخ كامل عاشته المنطقة وعديد الممالیك والدول الإسلامية التي قامت فيها.

صور الأجداد .. في كل مكان

في تمبكتو، كانت معالم الحضارة الإسلامية لا زالت تبدو بوضوح على العديد من معالمها الأثرية التي احتفظت بكل صفاتها الإسلامية العربية القديمة، فأينما وليت وجهك، سترى بوضوح معالم تلك الحضارة التي سادت في تلك الديار على مدى قرون عديدة ولا زالت حتى الآن، يحمل نسائمها العطرة شيوخ وشباب مالي بين ضلوعهم يرتحلون بها أينما توجهوا وارتحلوا، بعد أن حافظوا عليها في ذلك الموقع على الرغم من كل البطش والإرهاب الذي مارسه ضدهم الاستعمار الغربي طوال الفترة التي تحكّم فيها بدولة مالي، كما تحكم في العديد من دول القارة السمراء.

وفي تمبكتو، كانت ملامح علمائها وفقهائها المسلمين لا زالت عالقة في الخيال، وهم يجوبون شوارعها وأزقتها ناشرين علوم الإسلام وفقه السنة الطاهرين بين أبناء تلك الديار، مقدمين كل جهدهم وعرقهم من أجل إعلاء كلمة التوحيد الخالدة بين أبناء شعب مالي المسلم.

ومع صور وملامح أولئك العلماء الماليِّين المسلمين الأجلاء، كانت صور سلاطين هذه الدولة المسلمين، والذين يعود لهم الفضل الأول في نشر كلمة التوحيد إلى أوسع مدى مكنهم منه الخالق تبارك وتعالى وعلى امتداد رقعة جغرافية مترامية الأطراف، امتدت في فترة من الفترات من بحيرة تشاد

شرقاً إلى السنغال غرباً، وعلى رأسهم جميعاً السلطان (منسي موسى) أشهر سلاطين هذه الدولة الإسلامية على الإطلاق، والذي حج إلى بيت الله الحرام على رأس قافلة ضخمة بهرت الشرق كله وعلى امتداد الطريق الذي سار عليها للحجاز وعاد منها إلى بلاده.

وعلى مخارج المدينة حيث الصحراء المترامية الأطراف، لا زالت طرق القوافل التجارية القديمة التي حملت التجار العرب إلى تلك المجاهل من شمال أفريقيا، باقية حتى الآن من حيث الاتجاهات، وإن كانت قد استبدلت الجمال بالسيارات الحديثة.

وعبر هذه الطرق التي كانت تعبرها القوافل باتجاه الشمال والتي كانت تعرف بطريق الذهب، لكثرة ما نقل عبرها من هذا المعدن باتجاه شمال أفريقيا، كانت عشرات القوافل التجارية العربية، والمكونة من آلاف الإبل في كل واحدة منها ينقل الحرير والأقمشة والملح وغيره إلى مالي ومنه إلى بقية مناطق أفريقيا ثم تعود ومعها الذهب النفيس والعاج ومنتجات أخرى تزخر بها تلك البلاد باتجاه الشمال.

وفي بقايا ديار علماء مالي المسلمين، سرح بي الخيال وأنا أتجول بين بعض بقايا تلك المعالم في موقع الدار التي سكن فيها ـ ابن بطوطة ـ الرحالة العربي الشهير يوم زارها في عام 1377ف، أو نهاية القرن السابع الهجري، حيث استقبله أحد علمائها وهو ـ محمد الفقيه ـ والذي قال إنه اكترى له داراً مواجهة لداره، وجاء صهره الفقيه المقرىء عبد الواحد بشمعة وطعام.. ثم قدم عليه في اليوم التالي بقية علماء المدينة للترحيب به، من بينهم ـ شمس الدين بن النقويش ـ وعلي الزودي المراكشي ـ والقاضي عبد الرحمن ـ وغيرهم.

وحتى القصور والمساجد الكثيرة التي وصفها ابن خلدون الذي زار تمبكتو بعد ابن بطوطة فلم يتبق منها سوى القليل بعد أن عملت عوامل الطبيعة

والتطور فعلها فيها، وحتى ذلك القليل المتبقي مهدد بزحف المدينة والتطور عليه. . إذا لم تتم حمايته منذ الآن. .

وتقول كتب التاريخ إن دولة مالي الإسلامية أنشأت على يد شعب «الماندنجو» المقاتل بين أعوام ـ 1238 ـ 1488ف، وكان أول ملوكها ـ سندياتا ـ الذي عاش بين سنوات 1230 ـ 1255ف وكان على ديانة الوثنيين، قبل أن يعلن إسلامه ويسمِّي نفسه ـ المسلماني، وسنتحدث بتفصيل أكثر عن هذه الدولة في الصفحات اللاحقة.

ولكن المصادر التاريخية التي أرَّخت لدولة مالي الإسلامية، تركز بشكل خاص على أعظم سلاطين هذه الدولة وهو السلطان ـ منسي موسى ـ الذي كان أعظم ملوك هذه الدولة وأشهرهم على الإطلاق بسبب عمله الناجح في بسط نفوذ دولته والتوسع في رقعتها الجغرافية والتي وصلت في عهده من بحيرة تشاد في الشرق إلى نهر السنغال في الغرب، وتصفه كتب التاريخ أيضاً بأنه (كان رجلاً صالحاً وملكاً عظيماً، تُؤثر عنه أخبار العدل) وسيطر هذا الملك في عهده على كافة مناجم النحاس والملح والذهب في كامل مملكته.

أما أعظم ما عرف به هذا الملك فقد كانت زيارته الشهيرة إلى بيت الله الحرام بالحجاز عام 1324ف بهدف توثيق علاقة مملكته بالممالك الإسلامية في الشرق العربي، وتذكر المصادر التاريخية أنه اصطحب معه في تلك الزيارة والتي ظل الشرق بكامله يتحدث عنها لسنين عديدة، عشرة آلاف مرافق ومائة جمل محملة بالذهب الخالص، وعلى كل جمل ثلاثة قناطير كاملة من الذهب، وكل تلك الكمية صرفها أثناء الرحلة على شكل هدايا وعطايا على من قابلهم والتقى بهم من سلاطين الشرق، وعلى مؤونة ومعاشة ذلك الجيش الجرار من مرافقيه في رحلة الحج. وتذكر المصادر التاريخية المصرية أن الكمية الضخمة من الذهب التي صرفها السلطان منسي موسى في مصر جعلت من أسعار الذهب تتدنى إلى أدنى مستوياتها لمدة 12 عاماً متواصلة.

وقد تركت هذه الرحلة بالذات أثراً هائلاً لدى أهل المشرق العربي، حيث تقاطر بعدها الآلاف من التجار والعلماء والأهالي على دولة مالي، مما أدى فيما بعد لازدهار النشاط التجاري والاقتصادي والثقافي في دولة مالي الإسلامية وبقية العالم الإسلامي شرقاً وشمالاً وغرباً.

طبعاً.. كان ذلك.. تاريخاً مضى، وإن كانت ذكراه لا زالت عالقة بأذهان من قرأ وعرف أصالة الرابطة العميقة التي كانت تجمع بين العرب في شمال أفريقيا وأشقائهم في جنوب الصحراء الكبرى.. وهي رابطة لا زالت وشائجها باقية حتى الآن رغم عوائد الزمن، ورغم مؤامرات الحاقدين الصليبيين.

«ينّي» انقرضت.. وبقيت «تمبكتو»

«يني» أو «يناني» بهذا الاسم عرفت عاصمة مالي الحالية ـ باماكو ـ في زمن انتشار الدعوة الإسلامية فيها وقد اكتسبت هذه العاصمة أهميتها بسبب قربها من مناجم الذهب الذي لعب دوراً أساسياً في تشجيع التجارة بين العرب والأفارقة في تلك الديار حتى قبل أن تعرف المنطقة الإسلام بقرون عديدة، وهو المعدن الغالي الذي كان يبادله التجار العرب ببضائعهم التي يستجلبونها معهم من شمال أفريقيا وشرقها.

وبمرور الزمن. . وعقب الأحداث الهائلة التي وقعت في هذه الدولة وتعاقب الممالك والسلاطين على ترابها عبر القرون، وهو التعاقب الذي نتج عنه انتقال العاصمة مرات عديدة إلى أماكن أخرى في كل فترة، أصبحت هذه العاصمة مجرد قرية صغيرة لا أهمية لها حيث نجد «الحسن الوازن» الذي يطلق عليه «ليو الأفريقي» بسبب كثرة تنقلاته وسفرياته داخل القارة السمراء، والذي قام بزيارة هذه المدينة في القرن الثالث عشر الإفرنجي يصفها بقوله: كانت هناك قرية كبيرة تحتوي على ستة آلاف عائلة أو أكثر وتسمى مالي، وكانت تسمى بها المملكة كلها وهي تنتج الكثير من القمح واللحم والقطن كما يوجد بها الكثير من الصنّاع، كما أن التجارة بها في جميع الأمكنة وسكانها أثرياء.

وعلى الرغم من أن باماكو كمدينة فقدت أهميتها التجارية بعد نضوب مناجم الذهب منها كما يبدو في القرن السادس الإفرنجي، إلا أن أهمية مدينة - تمبكتو - أو - تمبكت - كما وردت في بعض المصادر التاريخية، لم تفقد أهميتها العظيمة التي اكتسبتها على مر الزمن، حيث واصلت القيام بدورها المعتاد كمدينة تلتقي فيها طرق القوافل التجارية التي تمر عليها، إما وهي قادمة من شمال أفريقيا، حيث أسواق الجزائر وطرابلس وفزان وتلمسان ومراكش، أو وهي عائدة من النيجر ونيجيريا وغانا والسنغال وغيرها من المناطق الأفريقية التي كانت قوافل التجار العرب تصل إليها بانتظام في رحلات عمادها الإبل والصبر على تحمل المشاق والأخطار، وهدفها التبادل التجاري والسلام ثم في مراحل لاحقة نشر رسالة الإسلام السمحاء بين أبناء القارة..

ولكن ازدهار مدينة تمبكتو في الأساس، والذي اكتسبته على مر الزمان إضافة إلى موقعها الهام كمنطقة لالتقاء طرق القوافل التجارية، كونها كانت أحد أهم مراكز نشر العلم في مالي ذاتها وفي كامل أنحاء منطقة غرب أفريقيا حيث كانت مركز إشعاع فكري وثقافي وديني أثَّر بشكل هائل على نشر الدين الإسلامي في كل تلك المناطق.

وقد أشار العديد من الرحالة العرب الذين زاروا تمبكتو، وعلى رأسهم شيخ الرحالة العرب - ابن بطوطة - الذي قام بزيارتها في القرن الثالث عشر الإفرنجي إلى الأهمية العلمية والثقافية التي كانت تتمتع بها المدينة ودور علمائها في نشر دين الله بين خلقه بالحكمة والموعظة الحسنة، وقال أولئك الرحالة العرب إن الكتب بكافة أنواعها كانت تباع هناك بأسعار غالية الثمن، وتجد رواجاً هائلاً فيها.

وعلى رأس الشواهد الإسلامية التي لا زالت قائمة حتى الآن في هذه المدينة نجد المساجد الضخمة التي كنت منارات علم ومعرفة تخرَّج منها آلاف العلماء والطلاب الأفارقة في شتى علوم الدين والفقه، والذين واصلوا بدورهم

مسيرة نشر رسالة الإسلام فيما بعد داخل مناطقهم وأوطانهم، وعلى رأس تلك المساجد الشهيرة ـ مسجد جنفري بير ـ الذي شيده المهندس المعماري أبو إسحاق الساحلي ـ الذي استقدمه السلطان ـ أسكيا محمد ـ أحد أشهر سلاطين دولة «سنغاي» المالية الإسلامية خصيصاً من بلاد الأندلس لهذا الغرض، وهو السلطان الذي قام برحلة إلى الحج عام 1497ف أدهشت الشرق كله كما سنرى في الصفحات اللاحقة.

وهناك أيضاً مسجد ـ سنكري ـ الذي أنشأ عام 1450ف والذي كان يعتبر لوحده جامعة قائمة بذاتها في القرن السادس عشر إفرنجي، حيث كان العلماء والطلاب الأفارقة يفدون إليه من كل حدب وصوب، وكان يعتبر في فترة من الفترات منارة علم تضاهي مكانته مكانة الجامع الأزهر في مصر أو جامع الزيتونة في تونس. . وتخرج منه مئات العلماء الأفارقة في شتى علوم الدين والفقه الإسلامي، وبقية العلوم الأخرى المتعلقة بالدين الحنيف.

وكان على رأس القائمين بالتدريس في هذه الجامعة الإسلامية في بداياتها الأولى الشيخ العالم ـ القاضي العاقب ـ الذي يرجع إليه الفضل في كونه أول من قام بالتدريس في هذا المسجد الجامعة، وكان يقوم بالتدريس فيها أيضاً العديد من علماء تمبكتو من أمثال الأستاذ ـ محمد بغيغوب ـ والشيخ الفقيه ـ أحمد بابا التمبكتي ـ الذي ألف لوحده أكثر من ثلاثين كتاباً ومخطوطاً أشهرها «نيل الابتهاج بالذيل على الديباج» «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج» وهما كتابان يعتبران حالياً من أهم المصادر التي أرَّخت لدولة سنغاي الإسلامية في مالي، والشيخ العلامة ـ أحمد بابا الموداني ـ وعشرات العلماء الأفاضل الآخرين الذين برعوا في شتى العلوم والمعارف سواء كان منها المعارف الإسلامية أو بقية علوم الحياة الأخرى.

ويوجد بمدينة تمبكتو أيضاً في الوقت الحالي مركز وحيد للمخطوطات والوثائق التاريخية يحمل اسم العالم الجليل ـ أحمد بابا الموداني ـ اعترافاً

بفضله على العلم والعلماء، وهو مركز يحتوي على آلاف المخطوطات النادرة التي كتبها علماء وأساتذة من تمبكتو نفسها أو من غيرها من منطقة غرب أفريقيا، وهي مخطوطات تم جمعها بإمكانيات متواضعة وبجهود ذاتية في أغلب الأحيان، كما يقول القيِّمون على المركز، ويقال إن آلاف المخطوطات الأخرى لا زالت في بيوت ومساكن المواطنين الماليين يتوارثونها جيلاً بعد جيل، وفيها تاريخ كامل لدول وممالك وسلطنات وأقوام عاشوا في تلك المنطقة وتركوا أفعالهم وأحوالهم في وثائق ومخطوطات تحتاج إلى من ينفض الغبار عنها لترى النور ولتكشف حقيقة ما كان يدور في تلك البلاد وفي المنطقة ككل، على مدى آلاف السنين.. وفيها الرصيد الحقيقي لتراث الأسلاف والأجداد.

قوافل الإبل .. تنقل الإسلام

رأينا في الصفحات السابقة كيف انتقلت الهجرات العربية على مدى آلاف السنين انطلاقاً من شبه جزيرة العرب باتجاه سواحل أفريقيا الشرقية أولاً ثم إلى غربها وشمالها فيما بعد وهي الهجرات التي تمت قبل ظهور الإسلام والتي أوجدت أساساً للهجرات العربية اللاحقة بعد الإسلام، وكأن الله جلّت قدرته قد أراد بتلك الهجرات أن تكون نواة وأساساً وتهيئة لظهور دينه الختامي للبشرية كافة، والذي جاء بعد ذلك على يد آخر أنبيائه محمد بن عبد اللّه عليه الصلاة والسلام، وهو الدين الذي شاءت إرادة الخالق عز وجل أن تكون انطلاقته هو أيضاً من شبه جزيرة العرب. وبعد ظهور الإسلام وتثبيت دعائمه وأركانه في شبه جزيرة العرب امتد المسلمون العرب مرة أخرى منطلقين من نفس المكان الذي انطلق منه أجدادهم السابقون حاملين معهم هذه المرة دينهم الجديد للناس كافة، معلنين من خلاله انتهاء عهد الوثنية وعبادة الأصنام والأسلاف ومظاهر الطبيعة، وبدء رسوخ عبادة الله الواحد الأحد خالق كل شيء وإليه مصير كل شيء متخذين الحكمة والموعظة الحسنة أساساً للتخاطب والإقناع، وهو الدين الذي دخلت فيه قبائل العرب أفواجاً وافتتحت أمام نوره وإشعاعه أبواب القلاع والحصون والثغور في كل منطقة وصل إليها، وبسرعة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً منذ بدء الخليقة وحتى الآن.

وهكذا وصلت قوافل المسلمين الفاتحين ـ جزاهم الله كل خير ـ إلى ثغور المغرب على المحيط الأطلسي غرباً ثم امتدت إلى الأندلس وجنوب فرنسا وصقلية وأغلب جزر البحر المتوسط ناشرين دين الله معلنين أن عصراً جديداً بدأ نوره يعم العالم.

وما يعنينا في هذه الصفحات هو كيف انتشر الدين الإسلامي في منطقة جنوب الصحراء، أو منطقة غرب أفريقيا، أو منطقة السودان، كما كانت تسمى في السابق أيام الاستعمار الأوروبي الذي جثم بأنفاسه الكريهة على صدر شعوبها في القرن التاسع عشر، وأطلق عليها هذه التسمية وقسمها إلى ـ سودان غربي ـ وشرقي ـ ووسط ثم زاد التمزيق والتفتيت فوضع حدوداً وفواصل بين الأخ وأخيه والأب وابنه، تماماً كما فعل عندما احتل وطننا العربي الكبير وفي نفس الفترة تقريباً، حيث قسَّمنا إلى دول وصل عددها الآن إلى أكثر من العشرين، والرقم مرشح للزيادة، فبعد أن استتب الأمر للمسلمين في المناطق الجديدة التي وصل إليها الإسلام في شمال أفريقيا وعلى طول الامتداد الجغرافي من الإسكندرية شرقاً وحتى سواحل المغرب على المحيط الأطلسي غرباً ودخول كافة قبائل العرب التي كانت تعيش على طول هذا الامتداد في دين الله، بدأت رحلة التوغل العربي الإسلامي في الجنوب إلى ما بعد الصحراء الكبرى. . .

وهكذا تولت قوافل التجار العرب التي كانت تجوب الصحراء الكبرى إضافة إلى نقل بضائعها المعتادة، تولت نقل الدين الإسلامي بين ثنايا ضلوعها إلى تلك المجاهل البعيدة ناشرة إياه بالحسنى والموعظة الحسنة بين القبائل الأفريقية التي كانت تتعامل معها في غرب القارة ووسطها.

كان مسلمو شمال أفريقيا من تجار القوافل هم أول من حمل رسالة التوحيد إلى جنوب الصحراء، حيث أدت تلك المرحلة الأولى إلى مخالطة بين العرب المسلمين وأشقائهم الأفارقة أدت بدورها إلى تدعيم الصلة بين

الطرفين، والتي وصلت إلى درجة المصاهرة أخذاً وعطاء، وكان لأوائل القائمين بالدعوة الإسلامية والذين صاحبوا تلك القوافل التجارية في رحلاتها إلى غرب أفريقيا الفضل الأكبر في نشر عقيدة الإسلام بين أهالي تلك المناطق، وتذكر المصادر التاريخية أن بعض أولئك المسلمين ونتيجة لحسن أخلاقهم وتمسكهم بدينهم استطاعوا في فترة قصيرة التغلغل في مراكز الدول والممالك الأفريقية التي اتصلوا بها، وكان منهم الوزراء والمستشارون وكبار الكتاب في تلك الممالك، مما كان له أبلغ الأثر فيما بعد في اعتناق العديد من أفراد الأسر الحاكمة الأفريقية الإسلام عن قناعة.

ويقول «أرنولد» في كتابه / الدعوة إلى الإسلام/ إن أولئك الدعاة المسلمين كان لهم الفضل الأكبر في نشر العقيدة الإسلامية بين الوطنيين الأفارقة لما كانوا يتحلون به من حسن ومكارم الأخلاق ونظافة البدن وانتظامهم في أداء صلواتهم في مواقيتها «غير أن الخطوة الحقيقية الأولى والجادة لنشر عقيدة الإسلام في غرب أفريقيا قد جاءت على أيدي المرابطين في المغرب عندما توجهت قوافلهم مخترقة كثبان الرمال الهائلة باتجاه الجنوب والوسط، مستهدفة ما كان يعرف وقتها بالسودان الغربي، ومن هنا دخلت القبائل الأفريقية الوثنية من السنغال وحوض نهر النيجر في الإسلام منذ بداية القرن الحادي عشر الإفرنجي ولم تمضِ سوى بضع عقود حتى كان الإسلام قد عم وانتشر، وكانت على رأس القبائل الأفريقية التي اعتنقت الإسلام في تلك المرحلة ـ قبيلة الهوسا ـ التي ينتشر أبناؤها في كل تلك المنطقة والذين بدورهم وبواسطتهم انتقل الإسلام إلى بقية المنطقة بكاملها تقريباً، وأسس المسلمون في هذه الفترة ممالك إسلامية كان لها أبلغ الأثر في نشر رسالة الإسلام وتعميمها إلى كافة مناطق أفريقيا الغربية مثل ممالك غانا ـ و ـ مالي ـ و ـ سنغاي ـ وفي الفترة التي وصل فيها كبار علماء الفقه الإسلامي إلى مناطق غرب أفريقيا مخترقين الصحراء الكبرى في بداية انتشار الدعوة الإسلامية،

حملوا معهم دينهم الإسلامي وسعوا إلى نشره بالحكمة والموعظة الحسنة بين أهالي تلك المناطق، وأوصلتهم علومهم ودماثة خلقهم وطهارة أجسادهم ومحافظتهم على أداء صلاتهم في مواعيدها إلى أعلى المراتب سواء بين أهالي تلك المناطق، أو بين حكامها، حيث تبوأ العديد منهم مراكز عالية، وقرّبهم الحكام والسلاطين الأفارقة من مجالسهم استنارة بمعارفهم وعلمهم. وهو أمر أدى إلى هداية العديد من أولئك الحكام والسلاطين إلى دين الله ثم تعميمه فيما بعد على باقي الرعية.

في هذه الفترة ظهرت في الشمال الأفريقي ومن المغرب تحديداً قبائل عربية الأصل كانت قد هاجرت إلى تلك المناطق قبل الإسلام ضمن الهجرات العربية القديمة من شبه جزيرة العرب كما رأينا من قبل.. هذه القبائل عرفت تاريخياً اسم ـ قبائل صنهاجة الثلاث وهي ـ جدالة، ومسوفة، ولمتونه ـ والتي تبنت أفكار مجاهد إسلامي اسمه (عبد اللّه بن ياسين الجزولي) والذي كان قد أقام رباطاً على مقربة من مصب نهر السنغال على الحدود مع موريتانيا أو «بلاد شنقيط» كما كانت تعرف في السابق واتخذ من ذلك المكان موقعاً للتعبد والزهد حتى انتشر صيته وعمت شهرته المنطقة فالتحق به العديد من الأتباع ورابطوا معه في ذلك المكان وتسمّى الجميع منذ يومها بـ ـ المرابطين ـ وقد توفي هذا المجاهد عام 1059ف. وسنأتي على ذكر ذلك الرباط في الصفحات التالية..

في هذه الفترة حدث أن تولى زعامة قبائل صنهاجة الأمير اللمتوني (أبو بكر بن عمر) بعد وفاة شقيقه (يحيى) عام 1056ف.

وهكذا تولى أبو بكر المسؤولية السياسية والدينية على رأس قبيلته (لمتونة) وبفضل قوة قبيلته المتحالفة مع بقية قبائل صنهاجة الأخرى جدالة ومسوفة، توجه هذا المجاهد المقاتل إلى الجنوب على رأس قوة كبرى من تلك القبائل التي عرفت باسم المرابطين داعياً أهالي القبائل الوثنية الأفريقية

المجاورة لدين الإسلام. وعلى الرغم من المصاعب العديدة التي واجهها بسبب بعد المسافات وأخطار الطريق الطويلة. فقد استطاع أن يتوغل إلى حيث أكبر مملكة أفريقية كانت تتواجد في تلك الفترة. وهي مملكة (غانا) فأسقطها عام 1067ف وتوسع على أثر ذلك في كافة الاتجاهات ناشراً دين الله بين عشرات القبائل الأفريقية التي كانت تخضع وتدين بالولاء لمملكة غانا المطاح بها، ولم تمض سوى سنوات قليلة حتى كانت كافة القبائل الأفريقية المعروفة باسم (السوننكي) القاطنة في تلك المناطق قد اعتنقت الإسلام بكاملها، وهي بدورها تكفلت بنقله إلى منطقة السودان الغربي بكامله في فترات لاحقة.

مملكة غانا.. أول العنقود

كانت مملكة غانا القديمة تشمل جزءاً من جنوب موريتانيا الحالية وشرق السنغال وجزءاً من مالي وغينيا. وهي حدود بلغتها أثناء أوج ازدهارها. ويقال إن حدودها كانت لا تتعدى قبل امتدادها هذا حدود منحنى نهر النيجر ومنابع نهر السنغال.

ويرجح علماء التاريخ أن هذه المملكة قامت خلال فترة ما من القرن الأول الإفرنجي. وتواصل وجودها المعروف حتى القرن الثالث عشر منه، وقد اكتسبت هذه المملكة قوتها وسلطانها بعد أن تمكن شعبها من تطويع الحديد واستعماله كسلاح في وقت كانت فيه بقية القبائل الأفريقية المجاورة له لا تعرف من أدوات الحرب سوى أسلحة بدائية لا يدخل الحديد في صناعتها، وحققت ازدهارها التجاري من خلال موقعها الاستراتيجي الهام الواقع بين مناجم الذهب في الجنوب منها في ـ بامبوك ـ و ـ يوري ـ ومناجم الملح في شمالها، وكلاهما كان ذهباً في تلك الفترة..

وعرف سلاطين هذه المملكة ومنذ بدء ازدهار دولتهم نظام الضرائب التي كنت تجبى من تجارة الذهب العابر عبر مملكتهم باتجاه الشمال. وعلى الملح الوارد عبرها باتجاه الجنوب. لصالح خزينة المملكة وبسبب ضخامة القوافل التي كانت تمر في الاتجاهين والتي كانت تنقل إضافة إلى ما سبق

أنواعاً عديدة أخرى من التجارة، وفّرت للدولة أموالاً طائلة مكنتها من بسط نفوذها والتوسع في كافة الاتجاهات. .

كما عرفت هذه الدولة أيضاً أساليب الجيش النظامي المدرب والمجهز بأحدث ما كانت تعرفه شعوب تلك الفترة من أسلحة، بحيث يكون جاهزاً للتحرك لمواجهة كافة الاحتمالات، وقيل أنه كان لها أربعة آلاف مقاتل تحت السلاح بصفة مستمرة. كما كان سلطانها يستطيع أثناء حالات الطوارىء وفي وقت وجيز جمع 200 ألف مقاتل من أبناء دولته. واتخذت هذه الدولة ومنذ بدايتها الأولى عاصمة لها ـ كمبي صالح ـ وكلمة ـ كومبي ـ بلغة شعوب تلك الدولة تعني ـ مدينة ـ وصالح اسم عربي، وهذا ما يؤكد وصول التأثيرات العربية والإسلامية لتلك المنطقة منذ زمن بعيد، وحتى قبل أن يدخل شعبها في الإسلام. على الرغم من أن ـ القلقشندي ـ يقول «وكان أهلها قد أسلموا أول الفتح».

وهذه المدينة عثر علماء الآثار في عام 1949ف على بقية من آثارها على بعد 250 كلم إلى الشمال من العاصمة المالية الحالية ـ باماكو ـ وعرَّفها ـ البكري ـ «بأنها مدينة واسعة الأرجاء وذات أسواق عديدة، تزينها أشجار النخيل الغزيرة وأشجار الحناء تكاد تبلغ الزيتون في طولها، ومليئة بالمنازل الجميلة والأبنية القوية الراسخة. .».

ويقول عنها في موضع آخر «مدينة غانا مدينتان سهليتان إحداهما التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً. . وفيها فقهاء وحملة علم. . ومدينة الملك على بعد ستة أميال من هذه وتسمى «الغابة» والملك يقيم في قصر خارج المدينة وسط قلعة تحيط بها الأشجار الكثيفة ومعه يعيش كبار قادته ووزرائه، ويلتحق بها في الصباح الموظفون والفنيون الذين أغلبهم من المسلمين، حيث لهم مسجد خاص بهم قرب القصر الملكي».

وعلى الرغم من أن المؤرخين لم يتوصلوا بعد إلى معرفة الأسباب الحقيقية لسقوط مملكة غانا على أيدي المرابطين بمثل تلك السهولة التي تمت بها. أو معرفة العوامل التي أدت إلى ضعفها بعد كل ذلك المجد الذي كانت عليه والذي دام قروناً عديدة، إلا أن المؤكد أن المرابطين الذين قدموا من المغرب وهاجموا مناطق نفوذها منذ العام 1054ف واستولوا على عاصمتها الثابتة ـ أودغست ـ في العام التالي ثم على عاصمتها الرئيسية ـ كومبي صالح ـ عام 1067ف كان هو العامل الحاسم الذي أدى إلى انحلالها وتفكك أقاليمها التي استغلت تلك الفرصة فأخذت تستقل عنها واحدة تلو الأخرى.

وقبل أن تضمحل هذه الدولة نهائياً لتفسح المجال أمام دولة أخرى في المنطقة، هاجمت عاصمتها قبائل ـ السوشو ـ الوثنية التابعة لمملكة مالي المجاورة عام 1240ف وهي المملكة التي أناط بها القدر أن تتولى كتابة جزءٍ آخر من تاريخ المنطقة، وتاريخ الإسلام فيها. كما سنرى ذلك فيما بعد..

وأثناء فترة تمركز المرابطين في غانا.. أصبحت مدينة ـ كومبي صالح ـ عاصمة المملكة في هذه الفترة مركز إشعاع حضاري وثقافي وديني في كل تلك المنطقة، إضافة إلى كونها أكبر سوق في السودان الغربي، كما كانت تسمى المنطقة، حيث كان التجار العرب القادمون من شمال أفريقيا يتبادلون فيها بضائعهم بالمنتوجات الأفريقية.

وامتدت هذه الفترة بضعة عقود من الزمن كانت كافية لإقامة العديد من المدن الإسلامية التي لعبت دوراً هاماً فيما بعد في نشر رسالة التوحيد. كما أنها كانت كافية لتداخل العنصرين العربي الأفريقي في بعضهما البعض من خلال التصاهر والتزاوج الذي تم بين الطرفين، وهو اختلاط نتج عنه فيما بعد انتقال الزعامة الدينية والثقافية والسياسية إلى الأفارقة أنفسهم سواء من أهل البلاد نفسها أو من أبناء وأحفاد الناتجين عن اختلاط الدماء العربية بالدماء الأفريقية.

وكان من الطبيعي وبسبب هذه العلاقة التي امتزج فيها الدم العربي بالدم الأفريقي في مملكة غانا المترامية الأطراف أن واصل الإسلام انتشاره بقوة وثبات، وأن يتم تدعيم مراكزه في كل المواقع التي وصل إليها، خاصة وأن أهل غانا اشتهروا وبعد أن هداهم الله لدين التوحيد بالحماس الشديد في نشر الدعوة الخالدة.

مملكة مالي .. الثانية

وكان سقوط عاصمة مملكة غانا ـ كومبي صالح ـ على أيدي قبائل ـ السوشو ـ المالية الوثنية إيذاناً بميلاد امبراطورية أخرى شكلها شعب ـ الماندينغو ـ المالي الذي تصدى لتلك القبائل وانتصر عليها بقيادة زعيمهم ـ سونديا تاكيتا ـ عقب معركة شرسة وقعت بين الطرفين عرفت باسم معركة ـ كيريتا ـ حوالي العام 1235ف.

وامتدت حدود مملكة مالي الإسلامية وخاصة في عهد أشهر سلاطينها على الإطلاق وهو الحاج ـ منسي موسى ـ حتى شملت السنغال الشرقي وشمال غانا وشمال ڤولتا العليا والداهومي سابقاً «بنين» وهي مناطق كانت تعرف في تلك الفترة كما ذكرتها المصادر التاريخية ـ كوكو ـ و ـ صوصو ـ وتكرور، وسنغاي، قبل أن تتحول هذه الأخيرة فيما بعد لتصبح مملكة قائمة بذاتها، كما سنرى في الصفحات التالية.. كما ضمت الدولة المالية الجنوب الأقصى من موريتانيا الحالية ـ بلاد شنقيط ـ في الغرب، وحتى بحيرة تشاد في الشرق، وقد قدر المؤرخون العرب سعة هذه المملكة بمسيرة أربعة أشهر طولاً من الشرق إلى الغرب وثلاثة أشهر عرضاً من الشمال إلى الجنوب بمسيرة الإبل وقام أحد سلاطين هذه الدولة وهو الحاج ـ منسي موسى ـ بزيارة لبيت الله الحرام كانت حديث الشرق كله لعدة عقود من الزمن.

وفي العام 1240ف ألحقت مملكة غانا القديمة نهائياً بمملكة مالي الناشئة وكان ذلك على يد أول ملوكها المعروف باسم «سندياتا» ـ الذي أعلن إسلامه قبل وفاته عام 1255ف وسمّى نفسه باسم ـ المسلماني ـ واتخذ ملوك هذه الدولة لقب «منسا» أي ـ السلطان ـ لقباً لهم منذ ذلك الوقت وبدؤوا في تنظيم دولتهم بعد أن قاموا ببناء عاصمتها ـ قارة ـ على شاطىء نهر ـ السالكاراني ـ شمال شرق غينيا الحالية، وهو أحد روافد نهر النيجر، ثم قاموا بتقسيم دولتهم إلى عدة مقاطعات تولى إدارتها والإشراف على شؤون سكانها أفراد من العائلة المالكة، تم جعل الحكم فيها وراثياً فيما بينهم، كما اتبع ملوك هذه الدولة سياسة الصداقة والمصاهرة مع زعماء القبائل الأخرى وهو أمر مكنهم من بسط نفوذهم على كافة المناطق المستهدفة بالتوسع بين تلك القبائل. بعد أن توسعت الرقعة الجغرافية لمملكة مالي الإسلامية وامتدت حدودها من نهر السنغال على ضفاف المحيط الأطلسي غرباً إلى بحيرة تشاد شرقاً.

في هذه الفترة توطدت العلاقة العربية الأفريقية بشكل لم يسبق له مثيل واعتمدت بشكل أساسي على تجارة القوافل التي كان يصحبها التجار العرب من شمال القارة وربطوا بها العلاقة بين غرب أفريقيا ووسطها، وكان قوام تلك التجارة وعمادها الأساسي هو مبادلة أو مقايضة الملح الذي كانوا يأتون به من شمال أفريقيا بالذهب الذي كان متوفراً بكثرة في تلك المناطق وبخاصة في غانا ومالي وغيرها من مناطق غرب أفريقيا. .

فقد كان معروفاً أن الذهب يتوفر بكثرة في مناطق أعالي نهر السنغال والنيجر وفولتا العليا ومالي وعدة مواقع أفريقية أخرى وكان أهل تلك المناطق في حاجة ماسة إلى الملح الذي لا يتوفر في بلدانهم وكان نادراً، وهو الذي يستجلبه التجار العرب معهم بالقوافل لدرجة أن قوافل بكاملها كانت لا تتاجر إلا به، وتذكر المصادر التاريخية أن الملح كان في فترة من الفترات في تلك المنطقة ـ عملة شرائية ـ بذاته وكان يتم تبادله وزناً بوزن بالذهب الخالص. .

ومن هنا وبسبب حاجة الأشقاء الأفارقة للملح القادم من الشمال وحاجة العرب لتبر الذهب وخاصة منهم تجار المغرب، الذين كانوا يقومون بدور الوسيط في تجارة الذهب الدولية مع أوروبا، نشأت علاقة وطيدة وحميمة بين الطرفين أدت في مراحل لاحقة إلى إنشاء مراكز تجارية خاصة وسط أفريقيا تستقبل قوافلهم القادمة من الشمال بالملح والأنواع الأخرى من البضائع، وتودع تلك العائدة من الجنوب ومعها الذهب وبقية المنتوجات الأفريقية الأخرى. .

ولنعرف مدى حجم هذه التجارة التي كانت بين الطرفين والأهمية التي كانت تحظى بها، فإن عالم الآثار الفرنسي «موني» قدّر وزن الذهب الذي كان يصدّر من مناطق السودان الغربي باتجاه الشمال في تلك الفترة بحوالي (تسعة أطنان سنوياً). .

وهكذا. . وبسبب تضاعف المبادلات التجارية بين الشمال والجنوب وازدياد عدد القائمين بهذا النوع من التجارة من العرب مع أشقائهم الأفارقة في غرب ووسط أفريقيا واضطرار أعداد كبيرة من التجار العرب وبحكم هذا النوع من التجارة التي تتطلب السفر الطويل على مدى شهور عديدة في بعض الأحيان، اضطروا إلى تكوين أسر جديدة مع نساء أفريقيات في مناطق ومحطات وصول قوافلهم التجارية، وهو أمر أدى بدوره إلى دعم وتدعيم العلاقة بين العربي والأفريقي، ومهد لخروج جيل جديد من البشر، هو خليط بين هذا وذاك، خاصة بعد أن انطلقت قبائل حسان وزناته العربية المغربية واتجهت بكاملها نحو جنوب المغرب حيث موريتانيا حالياً وحتى نهر السنغال. . وعندما استقرت هذه القبائل في المناطق الجديدة تولت بدورها نشر الدين الإسلامي في كافة الاتجاهات المجاورة، بل إن علماء هذه القبائل الإسلامية أوصلوا دين الله إلى مناطق تعدت خط الاستواء، ووصل دين الخالق عز وجل على أيديهم إلى حيث ڤولتا العليا، وليبيريا، وسيراليون، وساحل

العاج، وبوركينا فاسو، ولا زال أحفاد أولئك العلماء الأجلاء يقومون بنفس الدور حتى الآن «جزاهم الله كل خير». .

وفي هذه الفترة التي كانت فيها مملكة مالي تنمو وتتوسع باستمرار. . كان الإسلام يسجل كل يوم نصراً جديداً في تلك المجاهل، على أيدي التجار العرب الذين أتاحت لهم فتوحات ملوك مالي المزيد من الأرض للتوغل فيها، وعلى أيدي أبناء الدولة نفسها ممن هداهم الله إلى دينه الختامي.

وعلى نفس المنوال الذي كان يتولاه علماء وفقهاء المغرب، بعد فتوحات المرابطين ثم الموحدين فيما بعد، في تلك المناطق من نشر لدين الله بين القبائل الأفريقية الوثنية، كان علماء أجلاء وتجار جنّدهم الخالق عز وجل ليستمر دينه بين خلقه، ينطلقون من ليبيا وتونس باتجاه وسط أفريقيا وغربها عبر طرق القوافل التي كانت تشق الصحراء الكبرى في كافة الاتجاهات، ناشرين مع تجارتهم دينهم بين الأقوام التي يلتقون بها في تلك المناطق، وهو أمر مكنهم من توصيل نور الإسلام إلى مناطق السودان الأوسط حيث شمال مالي والنيجر، وشمال نيجيريا، وتشاد وغرب السودان، حيث أسلم كل سكان تلك المناطق ولا زالوا على إسلامهم حتى الآن. .

وفي عهد السلطان ـ الحاج منسي سليمان ـ أشهر سلاطين مملكة مالي الإسلامية والذي توسعت الدولة في عهده من السنغال غرباً إلى بحيرة تشاد شرقاً، تمكن وبحكم هذا التوسع من السيطرة على كل مناجم الذهب والنحاس في السودان الغربي، كما انتزعت جيوشه مناجم الملح من سيطرة المرابطين في المغرب.

وهكذا. . عم الأمن كل أجزاء الدولة المالية المترامية الأطراف وانصرف سكانها إلى الزراعة والاستقرار، ونظمت الدولة جباية الضرائب على الواردات والصادرات مما وفر لها ثروات ضخمة ملأت خزائنها ذهباً، وهو أمر مكنها من الصرف بسخاء على تكوين جيش قوي يقال إنه كان أقوى جيش في منطقة

غرب أفريقيا كلها، وبه توسَّعت حدود الدولة وتضاعفت مناطق العمران فيها، كما استتب الأمن على كافة طرقها التجارية.

ولم تقتصر فتوحات هذه الدولة في عهد ملوكها العظام على الفتوحات البرية فقط، بل امتد اهتمامهم أيضاً إلى ولوج المحيط الأطلسي، وكان ذلك في عهد سلطانها ـ بكاري الثاني ـ حيث يقول ـ العمري ـ أنه أمر مرتين ببناء السفن التي وصل عددها إلى 300 سفينة بهدف اختراق المحيط الأطلسي للبحث عن أراض جديدة يوصل الإسلام إليها، وهو أمر كلف خزينة الدولة أموالاً طائلة. ولم تنجح المحاولتان بالطبع..

ولأن القاعدة تقول أنه لا بد من أفول بعد ازدهار.. ولا بد من انحدار بعد صعود، فإن هذه الدولة، وبدءاً من القرن الخامس عشر اعتراها الوهن، فاندلعت فيها الاضطرابات لأسباب عديدة نسبها ـ ابن بطوطة ـ إلى تفشي سوء الأخلاق بين موظفيها الكبار وخاصة القضاة فيها، بينما نسبه المؤرخ ـ شارل مونتيل ـ في كتابه ـ امبراطورية مالي ـ إلى «خروج مناجم النحاس في تكده من سيطرتها واستيلاء الطوارق على ـ تمبكتو ـ و ـ جيني ـ وهما من أهم مراكزها التجارية، وتنازع حكامها على السلطة وطمع القبائل المجاورة فيها»، كل تلك العوامل مجتمعة أدت إلى ضعف الدولة وسقوطها في نهاية المطاف، بعد أن تفككت الأقاليم المكونة لها واحدة تلو الأخرى..

وبالإضافة إلى العوامل الرئيسية السابقة التي أدت إلى انحلال وسقوط دولة مالي الإسلامية تذكر المصادر التاريخية، وعلى رأسها مذكرات ابن بطوطة أن أحد العوامل الرئيسية التي أدت إلى انحلال الدولة، انغماس حكامها في أواخر عهدهم في الملذات والشهوات بعد أن توفرت الأموال في أيديهم لدرجة التخمة..

وهكذا.. ومع بداية القرن الثالث عشر لم تعد دولة مالي الإسلامية تمثل شيئاً يذكر وهي التي كانت رقعتها الجغرافية في فترة ازدهارها وقوتها تمتد لأربعة

أشهر طولاً، وثلاثة أشهر عرضاً، وكانت تملك من الأموال والذهب ما لا يحصى ولا يعد، وبعد أن وهنت وشاخت اقتطعت منها القبائل الأخرى المجاروة لها مساحات شاسعة من أملاكها. لتقيم عليها ممالك جديدة.. فتية..

كان آخر ملوك هذه الدولة هو السلطان ـ منسي سليمان ـ الذي انتقل إلى رحمة الله تعالى عام 1360ف، وبوفاته تهيأ المسرح لظهور دولة إسلامية أخرى كان لها شأن ـ وأي شأن ـ في نشر رسالة الإسلام في منطقة غرب أفريقيا ومواصلة نشر دين الله بين خلقه في المزيد من المناطق التي لم يدخلها من قبل.

ولم ينته ذلك القرن.. حتى كانت ـ مملكة سنغاي ـ الإسلامية التي تأسست في القرن السابع الإفرنجي، وكانت خاضعة مثلها مثل غيرها من الممالك الصغيرة لنفوذ دولة مالي القوية، لم ينته ذلك القرن حتى كانت الدولة الوليدة تفرض وجودها شيئاً فشيئاً على بقايا أراضي دولة مالي المتفككة، إلى أن تمكنت في نهاية المطاف من بسط نفوذها على كامل الولايات التي تتكون منها، وأقامت على أنقاضها دولة أخرى عرفت في التاريخ باسم ـ مملكة سنغاي ـ.

حج إلى بيت الله .. أصبح تاريخياً

كنت قد أشرت في صفحة سابقة بإيجاز إلى رحلة أشهر سلاطين مملكة مالي الإسلامية إلى الحج وهنا سنتحدث عن تفاصيل تلك الرحلة.

ففي عام 1324ف قرر سلطان دولة مالي الإسلامية وأشهر من تولى الحكم فيها على الإطلاق وهو السلطان ـ منسي موسى ـ قرر التوجه إلى البقاع المقدسة لتأدية فريضة الحج، ويقال إنه أول سلطان أفريقي يؤدي مناسك الحج في تلك الفترة، وكان هدفه كما تذكر المصادر التاريخية توثيق علاقات سلطنته بالممالك الإسلامية المعاصرة لها في الشرق العربي.

وهكذا.. توجه السلطان منسي موسى إلى مكة المكرمة بصحبة عشرة آلاف مرافق من أفراد سلطنته وحاشية حكمه كلها، إضافة إلى أفراد أسرته، وحمل معه في تلك الرحلة الطويلة التي اخترقت الصحراء باتجاه جنوب مصر ثم أراضي الحجاز حمولة مائة جمل من الذهب الخالص ـ قدِّرت بحوالي 300 قنطاراً من الذهب ـ وقالت المصادر التاريخية التي أرَّخت لتلك الرحلة الفائقة الأبهة أن السلطان منسي موسى صرف كل تلك الحمولة من الذهب أثناء رحلته إلى مكة.. تلك..

ويقال إن كمية الذهب الهائلة التي صرفها في مصر، أدت إلى انخفاض أسعاره لمدة 12 عاماً متواصلة..

ولدى عودته إلى بلاده اصطحب هذا السلطان معه كمية كبيرة من الكتب الإسلامية المختلفة، إضافة إلى اصطحابه معه عالماً عربياً هو الأندلسي «أبو إسحاق الساحلي الغرناطي» الذي عاش بعد انتهاء وتفكك دولة مالي إلى أن توفي بها عام 1346ف بعد أن قام بجهد رائع مع من وجده من علماء مالي المسلمين لنشر دين الله بين قبائل تلك الدولة إلى أن تحولت إلى الإسلام بكاملها في نهاية المطاف كما كان لهذا العالم بالذات جهد مشكور في ازدهار الحركة العمرانية في مالي بصفة عامة، ومدينة تمبكتو بصفة خاصة على النمط المغربي الأندلسي، على اعتبار أنه كان بارعاً في الهندسة المعمارية الإسلامية في هذا النوع بالذات من العمارة، وقد تقاطر على دولة مالي الإسلامية بعد رحلة حج السلطان منسي موسى وإظهاره لثراء بلاده الواسع النطاق من خلال كمية الذهب الهائلة التي اصطحبها معه وصرفها بالكامل أثناء الرحلة، تقاطر المئات من علماء الدين الإسلامي على تلك الدولة مستكملين مهمة أسلافهم في نشر دين الله بين سكانها، كما تقاطر على مالي آلاف العرب الساعين لمضاعفة حجم التبادل التجاري بين وطنهم الكبير وتلك الدولة الإسلامية، ومن هنا ازدهرت البلاد في عهد هذا السلطان، كما انتعشت الحركة الثقافية فيها بشكل لم يسبق له مثيل.

وتواصلت في هذه الفترة حركة نشر الدين الإسلامي على أيدي عشرات العلماء العرب الذين تقاطروا على مالي بالتعاون الكامل مع أشقائهم من علماء مالي، كما تم إنشاء عشرات المدارس القرآنية ومئات الكتاتيب القرآنية في كامل أنحاء مالي. والتي كانت تقوم بتدريس علوم القرآن وتعاليم الإسلام للآلاف من الطلبة الأفارقة الذين كانوا في تلك الفترة يتقاطرون على مالي وعلى عاصمتها الثقافية «تمبكتو» بشكل خاص، وعلى أيدي أولئك الطلبة الذين أصبحوا علماء وأساتذة شعّ نور الإسلام وواصل إمتداده إلى بقية أنحاء غرب وسط أفريقيا.

مملكة سنغاي .. الثالثة:

كانت مملكة ـ سنغاي ـ في بدايتها الأولى مجرد إمارة تابعة لدولة مالي الإسلامية وكان أهلها وسلاطينها وثنيون يعبدون أرواح الأسلاف ومظاهر الطبيعة المختلفة، وقد اتخذت هذه الدولة اسمها من اسم قبيلة كانت تعرف باسم سنغاي ـ وكانت تستوطن النيجر حول مناطق الغابات الإستوائية منذ البدايات الأولى للقرن الأول الميلادي، ثم انتقلت شمالاً.

وتقول المصادر التاريخية التي أرّخت لقيام هذه الدولة، أن ملوكها الأوائل كانوا من سلالة العرب «القادمين من ليبيا» والذين كانوا قد استوطنوا تلك المناطق قبل ظهور الإسلام في شمال أفريقيا، وكانوا في الأصل تجاراً شاءت إرادة الخالق عز وجل أن يطيب لهم العيش في تلك الديار، وأن يتزاوجوا مع نسائها فأنجبوا أبناءً اختلطت دماؤهم العربية بالدماء الأفريقية. .

وتذكر كتب التاريخ أن أول عائلة حكمت قبيلة سنغاي قبل انتقالها من مناطق الغابات الإستوائية كانت عائلة ليبية من طرابلس عرفت باسم ـ عائلة ضياء ـ وهي عائلة كانت تتزعم قبائل ـ لمتة ـ و ـ هواره ـ في شمال ليبيا قبل أن تنتقل لأسباب غير معروفة للتوغل جنوباً إلى أن وصلت إلى النيجر.

ويروي المؤرخ العربي عبد الرحمن السعدي في كتابه «تاريخ السودان» (أن أربعة عشر ملكاً وثنياً اعتلوا عرش سنغاي قبل أن يهدي الله واحداً منهم

وهو الملك ـ كوساي ـ عام 1010ف للإسلام، فأسلم وتسمّى منذ ذلك التاريخ باسم «مسلم دام». . . ومعناها ـ المسلم بإرادته ـ.

وفي عام 1464ف. . وفي أواخر زمن دولة مالي الإسلامية قبل تفككها، تولى حكم إمارة سنغاي الملك ـ سني علي ـ الذي انتزع استقلال تلك الإمارة من دولة مالي بعد أن كان رهينة لدى ملوكها قبل أن يتمكن من الفرار، وزحف على مدينة تمبكتو فانتزعها هي الأخرى عام 1468ف، ثم زحف بجنوده فاحتل كل مناطق النفوذ السابقة لدولة مالي الإسلامية وأدخل مدينة ـ جني ـ العاصمة السابقة لمملكة غانا الإسلامية في منطقة نفوذ دولته. . وعلى الرغم من الفتوحات الهائلة التي قام بها هذا الملك لتوسيع الرقعة الجغرافية لمملكته ـ سنغاي ـ إلا أن المصادر التاريخية تصفه بأنه قام بعمله هذا مستخدماً حدَّ السيف بطريقة لم يسبقه أحدٌ إليها، ووصف بأنه «ظالم فاسق متسلط. . وسفك من دماء الخلق ما لا يحصيه إلا الله»، كما تسلط على العلماء بالقتل والإذلال. .

ويقال إنّه نكّل بعلماء تمبكتو بعد أن توهّم «أنهم يتصرفون كدولة داخل الدولة» كما أجبر سكان مدينة ـ جني ـ من العرب الطوارق على تركها «فغادروها في قافلة ضخمة تكونت من ألف جمل». .

وفي عام 1492ف تولى حكم هذه الدولة ملك آخر هو ـ أبو بكر داعو ـ أحد أبناء ـ سني علي ـ غير أنه كان ضعيف الشخصية لم يستطع أن يحافظ على إنجازات والده من بعده، وكان دائم الخلاف مع أحد قواد والده وهو ـ محمد توري ـ والذي انتزع منه الحكم عام 1493ف وسمّى نفسه ـ أسيكا محمد ـ وبه دخلت الدولة في عهد آخر منذ ذلك الوقت عرف باسم ـ عهد الأسكيين ـ وفي عهد الأسرة الأسكية والتي توالت على حكم مملكة ـ سنغاي ـ لمدة قرن كامل من سنة 1492ف إلى سنة 1591ف أصبح لهذه المملكة شأن عظيم في كامل المنطقة.

وكان «السلطان أسيكا محمد» وكما تقول عنه كتب التاريخ عسكرياً ممتازاً وإدارياً مقتدراً تمكن من استقطاب القضاة والفقهاء في دولته فقرّبهم من مجالسه، وكان يغدق عليهم العطاء والهدايا ومكّنهم من التوسع في نشر دين الله من خلال إقامة مدارس تعليم القرآن الكريم في كل مكان، كما قام بإصلاحات إدارية نظمت شؤون دولته بشكل لم يتم في أي وقت مضى، بعد أن قام بأداء فريضة الحج عام 1497ف، وأثناء قيامه بأداء تلك الفريضة التي صحبه فيها قرابة 1500 مرافق من أتباعه تصدق خلالها وعلى طول الطريق التي سلكها باتجاه مكة المكرمة بمائة ألف دينار من الذهب الخالص واشترى بمثلها نزلاً لمرافقيه، كما قال الشيخ محمود كعت التنبكتي في كتابه «تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس».

وأثناء هذه الرحلة التقى السلطان ـ أسيكا محمد ـ بسلطان مصر وسلطان الحجاز، والأخير يقال أنه أعطاه سيفاً وخلع عليه لقب «خليفة بلاد التكرور» وأصبح ذلك السيف فيما بعد كما يقول المصدر السابق نفسه «يستخدم لدى تنصيب ملوك سنغاي».

وعقب عودته إلى بلاده، قام بإدخال المزيد من التنظيمات الإدارية على دولته «كما قام بتقسيم دولته المترامية الأطراف إلى ست ولايات رئيسية هي: تورما ـ بالاما ـ دندي ـ بانجو ـ هاريباندا ـ نهر النيجر».

وقام بتعين ولاة على رأس كل ولاية من الولايات السابقة ممن يثق في ولائهم ومقدرتهم على إدارة شؤون الدولة. . كما نظم خزينة دولته، ودعم الجيش بكل الإمكانيات التي كانت متوفرة في ذلك الزمن كما أغدق الأموال على أفراد ذلك الجيش.

أما أعظم إنجازات هذا السلطات المسلم، فقد كانت إعلانه رسمياً أن الدين الإسلامي هو الدين الرسمي للدولة، وبسبب الإصلاحات التي أدخلها على جيشه تمكن ـ أسكيا محمد ـ من القيام بالعديد من الفتوحات وأدخل

عشرات القبائل الأفريقية الوثنية في دين الله، وامتدت دولته بفضل ذلك حتى حدود المغرب شمالاً، وحدود دولة بورنو في تشاد شرقاً.

ويقول شيخ الرحّالة العرب - ابن بطوطة - الذي زار مالي في القرن الثالث عشر الإفرنجي في كتابه «تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» (وخطت الثقافة العربية الإسلامية خطوات واسعة في مملكة سنغاي، فقضت على معظم العادات الاجتماعية الوثنية من سحر وشعوذة وعبادة الأسلاف والانتساب إلى الأمهات دون الآباء، كما غرست فيهم الأمانة والمواظبة على الصلوات الخمس والالتزام بها والاهتمام بتحفيظ أبنائهم القرآن الكريم).

وفتح السلطان أسكيا محمد بلاده بالكامل أمام الفقهاء والعلماء الذين توافدوا عليها من كافة أنحاء الوطن العربي، كما قام بتوفير الكتب النادرة في مكتباتها كما تم التوسع في إقامتها في كل مكان، وفي عهده أيضاً توسع دعاة الدعوة الإسلامية وعلمائها في إقامة عشرات المدارس القرآنية والكتاتيب التي كان أبناء المسلمين يتلقون فيها دراستهم، وقام هذا السلطان - جزاه الله كل خير - بتأسيس بيوت خاصة لإقامة الطلاب القادمين من الأماكن البعيدة، كما قام بصرف مكافآت مجزية لهم تشجيعاً لهم على مواصلة دراستهم.

وفي عهده أيضاً، ثم في عهد أسلافه من الأسكيين أصبحت مدينة تمبكتو عاصمة ثقافية تشع بنورها في كافة الأرجاء، كما قدم إليها عشرات الدعاة والأساتذة من طرابلس والقيروان ومصر وفاس ومراكش للتدريس في مدارسها القرآنية التي بلغ عددها في تلك الفترة أكثر من 150 مدرسة، إضافة إلى جامعها الشهير «جامع سنكري» الذي تحدثنا عنه في صفحة سابقة، وفي عهد هذه الدولة الإسلامية أيضاً نبغ عشرات العلماء الأفارقة الأجلاء في شتى علوم الدين والفقه وبقية العلوم الأخرى.

وسطع في هذه الفترة أيضاً نجم مدينة - جني - العاصمة السابقة لمملكة

غانا الإسلامية والتي أدخلها الملك ـ سني علي ـ في حظيرة دولته منذ السنوات الأولى لقيام مملكة سنغاي، وشهدت هي أيضاً في عهد الأسرة الأسكية توسعاً ثقافياً هائلاً امتد إشعاعه إلى كافة المناطق المجاورة لها.

وأرخ علماء مملكة سنغاي الإسلامية لأسرة الأسكيين فقالوا أنها حكمت في الفترة من عام 1464ف إلى عام 1591ف، تولى فيها الحكم بعد «أسكيا محمد» سبعة ملوك هم: أسكيا موسى ـ أسكيا محمد الثاني ـ أسكيا إسماعيل ـ أسكيا إسحاق الأول ـ أسكيا داود ـ أسكيا محمد بان ـ أسكيا إسحاق الثاني.. كما شجع سلاطين هذه الدولة الطلاب الأفارقة على تحصيل علوم الإسلام وقربوا إليهم العلماء والفقهاء وعلماء الدين، وتوسعوا في إنشاء المكتبات العامة وخاصة في مدينة ـ تمبكتو ـ التي كانت في تلك الفترة من أهم المراكز الثقافية العربية الإسلامية في غرب أفريقيا، حيث التقى في ربوعها علماء من المغرب والأندلس، ومصر والحجاز وتونس، وتلمسان، وكانوا يتناوبون في تدريس علوم الدين في جامعها «جامع سنكري» الذي سبق الحديث عنه، والذي لا زال مقاماً حتى الآن والذي كان منارة علمية تضاهي جامع الأزهر في مصر وجامع الزيتونة في تونس، وتوطدت العلاقات الثقافية والدينية بين هذه المنارة العلمية ومنارات مصر وتونس والقيروان وفاس في هذه الفترة، مما مكن من نقل الموثرات الثقافية العربية إلى منطقة السودان الغربي بكامله..

وفي هذه الفترة تواصلت عملية تدوين الأشقاء الأفارقة للغاتهم المحلية بالأبجدية العربية بمساعدة عدد من علماء الأزهر والقيروان، وبصفة خاصة علماء فاس ومراكش، حيث كتبت لغات/ الفلاني/ و/ الهوسا/ بالخط العربي المغربي، ودونت بهما آلاف المخطوطات التي ألفها عشرات العلماء في منطقة غرب أفريقيا في الأدب، والتاريخ، والدين، واللغة، والنحو... إلخ، من بينها مؤلفات ـ أحمد بابا التمبكتي ـ وعبد الرحمن السعدي ـ والكعتي ـ

وعائلة أقيت ـ وغيرهم، وهي مخطوطات لا زالت حت الآن من أهم مصادر تاريخ المنطقة. .

وفي هذه الفترة وصف عبد الرحمن السعدي مدينة تمبكتو في عهد الأسرة الأسكية بأنها «ما دنستها عبادة الأوثان، ولا سُجد على أديمها لغير الرحمن، مأوى العلماء العابدين، ومألف الأولياء الصالحين». . ومن بين السلاطين السبعة الذين توالوا على حكم مملكة سنغاي الإسلامية من عام 1464ف إلى عام 1591ف، وبعد تولي أشهر سلاطينها وهو الذي سمى نفسه باسم «أسكيا محمد» ـ الحكم والذي دام حكمه لوحده من الفترة 1492ف، إلى 1528ف وعرفت الدولة في عهده رقياً وازدهاراً لم تشهد له المنطقة مثيلاً من قبل كما رأينا سابقاً، تولى أمور الدولة من بعده عدد من الملوك الضعفاء استبدوا بالسلطة وسيطرت عليهم نزعة الاستبداد وحياكة وحبك المؤامرات والدسائس ضد بعضهم البعض، لدرجة أن الأمن والأمان الذي كان يتمتع به مواطنوا تلك الدولة في السابق تبدد وتلاشى، كما تلاشى معه ذلك الثراء العظيم الذي عرفت به في السابق.

وكان أول من تعرض لتلك الفتن والمؤامرات من أجل السلطة أسكيا محمد نفسه بعد أن امتدت إليه يد الشيخوخة، حيث تذكر المصادر التاريخية أن أحد أبنائه وهو ـ أسكيا موسى ـ تآمر عليه وعزله عن الحكم عام 1528ف، ولم يكتف بذلك بل إنه فرض عليه الإقامة الجبرية في منزله حتى وافته المنية في نفس العام حسرة وكمداً على ما حل به بعد كل ذلك الجاه والسلطان.

ولأن عقد الدولة قد بدأ بالانفراط بسبب التآمر والدسائس، ولأن الله جلت قدرته لا يؤخر عقاب الأبناء العاقين. فإن هذا الابن العاق تعرض هو نفسه للعديد من المؤامرات ضده على أيدي أسرته نفسها الذين نازعوه الحكم. الأمر الذي حدا به للإفراط في استخدام القوة ضدهم، وضد كل من يعارضه، فكثر سفك الدماء بينهم وانتهى به الأمر في نهاية المطاف لأن يموت هو نفسه

مقتولاً بيد أحد أفراد الأسرة بعد ثلاثة سنوات من توليه الحكم.

وتعرض للمصير نفسه، مصير المؤامرات والدسائس والفتن، كل الذين توالوا على حكم دولة سنغاي من أسرة الأسكيين، فأسكيا محمد الثاني الذي تولى الحكم بعد أسكيا موسى لم يدم حكمه سوى خمس سنوات من عام 1531ف إلى عام 1537ف، وأسكيا إسماعيل حكم سنتين فقط من عام 1537ف إلى عام 1539ف وأسكيا إسحاق الأول حكم عشر سنوات من عام 1539ف إلى عام 1549ف، وأسكيا محمد بان حكم سنتين من عام 1586ف إلى عام 1588ف، ثم أسكيا إسحاق الثاني ثلاث سنوات من عام 1588ف إلى عام 1591ف.

وحده كان الملك ـ أسكيا داود ـ الذي حكم طيلة 32 عاماً متواصلة من عام 1549ف إلى 1582ف اشتهر من بين أولئك الحكام بحسن الإدارة وبعد النظر، وكان شأنه شأن ـ أسكيا محمد ـ مؤسس الدولة في قيامه بالعمل على تنظيم إدارته الداخلية وإعادة الأمن للدولة وللمواطنين المقيمين فيها، وإعادة العمل بأسلوب استمرار الفتوحات الإسلامية من جديد، والاستمرار في نشر دين الله بين الناس، كما قام بتوطيد علاقته الخارجية مع الممالك الإسلامية المجاورة وخاصة في شمال أفريقيا، وبالأخص مع المغرب.

وفي عهد آخر سلاطين هذه الدولة وهو السلطان ـ أسكيا إسحاق الثاني ـ وصلت أمور الدولة إلى أدنى مراتب الضعف والهوان، كما انتشر فيها الفساد في كل مكان، واستفحل أمر الوثنيين ودعاتهم الذين نشطت أعمالهم في البلاد والذين أفسدوا أخلاق الناس وعمموا الرذيلة بينهم لدرجة أن أحد مؤرخي تلك الفترة وهو ـ عبد الرحمن السعدي ـ في كتابه «تاريخ السودان» يصف لنا مدى استفحال الفساد في نهاية هذه الدولة بقوله «واستبدل أهل سنغاي نعمة الله عليهم كفراً، حيث لم يتركوا شيئاً من معاصي الله تعالى إلا وارتكبوها جهراً».

ومن هنا كان لا بد من الوصول إلى النهاية المحتومة، وهي السقوط في

أيدي الآخرين، ولأن الآخرين كان من ضمن دوافعهم الإستيلاء على ما تبقى من دولة سنغاي، والسيطرة على ما كان فيها من ذهب، أو بالأصح ما تبقى من ذهب تلك المنطقة، فإن النهاية كانت على أيدي عرب المغرب الذين زحفوا بقوتهم باتجاه الجنوب في عهد السلطان ـ أحمد المنصور السعدي ـ الذي تولى حكم المغرب عام 1578ف، وهكذا. . زحف نحو أربعة آلاف مقاتل للجنوب مخترقين الصحراء الكبرى باتجاه مالي، وهو الجيش الذي توفي نصف أفراده في الطريق جوعاً وعطشاً، غير أن من تبقى من ذلك الجيش فاجأ من تبقى من جيش دولة سنغاي في عقر دارهم، وحقق هدفه فأسقطها وفرض السيادة عليها.

الملح .. والذهب

وعندما ضعفت سلطنة سنغاي الإسلامية بسبب صراع ملوكها وأمرائها على السلطة، وتفشي الفساد وسوء الأخلاق فيها، كان لا بد أن يحيق بهم ما حاق بالدول التي حادت عن الطريق السوي، وانساقت وراء أهواء ملوكها وحكامها، وهكذا، «شتت الله شملهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون بتضييع حقوق الله وظلم العباد» كما قال عبد الرحمن السعدي أحد مؤرخي تلك الفترة في كتابه «تاريخ السودان».

وفي هذه الفترة تولى حكم المغرب سلطان طموح، أراد أن يعيد للإسلام وجهه الصحيح في ممالك الصحراء الأفريقية، وأن يحقق حلم السيطرة على ذهب تلك المناطق ومناجم استخراجه.. لأهمية تجارة الذهب بالنسبة للمغرب الذي كان سوقاً رئيسياً سواء لتصريفه أو إعادة تصديره للخارج وخاصة إلى أوروبا في تلك الفترة، وهو الذهب الذي كان يتم تبادله بشكل أساسي بعدة أنواع من المنتجات القادمة من الشمال الأفريقي، وخاصة منها ـ الملح ـ الذي كان يتم تبادله في أحيان كثيرة مكيالا بمكيال من الذهب.

لأهمية هذا النوع من التجارة، وقبل أن ندخل فيما فعله سلطان المغرب في تلك الفترة «أحمد المنصور» لابأس من أن نسرد هنا بعجالة أهمية الملح بالنسبة لسكان جنوب الصحراء والذي كان يتم تبادله مقابل الذهب، فهذا

المعدن كانت مناجمه الضخمة متوفرة بكثرة في تلك المنطقة من غرب أفريقيا وخاصة في موريتانيا حيث لا زالت تتواجد هناك حتى الآن بعض بقايا من مناجمه، وقد شاهدت أثناء فترة إقامتي في ذلك القطر العربي في بداية الثمانينيات العديد من التجار وهم يبيعون قوالبه الخام في متاجرهم بعد استجلابه من بقايا تلك المناجم. .

وقد وصف المؤرخ العربي الشهير ـ البكري ـ «أبو عبد اللّه بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب البكري» مناجم الملح بقوله «ومن غرائب الصحراء معدن الملح الذي تحفر عنه الأرض كما يحفر عن سائر المعادن والجواهر، وهو يوجد تحت قامتين أو دونهما من وجه الأرض، ويقطع كالحجارة، ويتم الاتّجار به في غانا وسائر السودان».

أما ـ ابن حوقل ـ «أبو القاسم محمد النسيي ابن حوقل» فإنه أورد إشارة موجزة عن الثمن الذي كان يباع به الملح في السودان الغربي «غرب أفريقيا» حيث ذكر أن ـ حمل الملح ـ أي ما يحمله الجمل الواحد منه ـ، كان ثمنه في مملكة غانا ما بين 200 إلى 300 دينار ذهب، وإذا عرفنا أن الجمل الواحد يستطيع أن يحمل ما بين 150 إلى 200 كلغ من قوالب الملح التي تربط على ظهر الجمل من الجانبين وأضفنا إلى ذلك أن أقل قافلة كانت تتكون من 70 جملاً فما فوق ـ كما يذكر الإدريسي ـ و12 ألف جمل كما يذكر ابن خلدون ـ فإننا نستطيع أن نقدر كمية الملح الذي كان يتم التعامل به في كل قافلة.

وعن ثمن هذا الملح، فقد قدر المتخصصون «أنه إذا قدرنا أن دينار الذهب كان يزن في قيمته المتوسطة حوالي ثلاثة غرامات، فإننا سنجد أن حمل الجمل من الملح يساوي ما بين أكثر من 50 غراماً إلى حوالي 155 غراماً من الذهب». وذكرت بعض المصادر الأخرى كما أشرت إلى ذلك من قبل أنه كان يتم في فترة من الفترات مبادلة الملح وزنا بوزن بالذهب.

ولأهمية هذه التجارة بالنسبة للمغرب خاصة في تلك الفترة، فقد قرر السلطان المغربي ـ أحمد المنصور السعدي ـ الذي تولى الحكم عام 1578ف، الزحف بقواته باتجاه الجنوب خاصة بعد أن حقق نصره المؤزر على جيوش البرتغاليين في المعركة المعروفة باسم ـ معركة القصر الكبير ـ التي وقعت في نفس العام الذي تولى فيه الحكم.

ولأن هذا السلطان كانت تنقصه المعلومات الحقيقية عما يحدث في مملكة سنغاي، فقد قرر أولاً وقبل الزحف بقواته أن يرسل أحد أخلص معاونيه إلى تلك الدولة، وكلفه بأن يأتيه بأخبارها صغيرها وكبيرها وأن يرصد كل شيء عنها. . وهكذا. . توجه هذا المبعوث الخاص إلى هدفه محملاً بالهدايا إلى سلطانها يومها ـ أسكيا محمد الثالث ـ عام 1585ف، وعاد من مهمته مؤكداً لمن أرسله أن صراع حكام مملكة سنغاي على السلطة قد وصل مداه إضافة إلى استشراء الفساد بين أهلها.

وكان لا بد للسلطان أحمد المنصور أن يجد سبباً مقنعاً للزحف على سنغاي، فأرسل إلى آخر سلاطينها وهو ـ أسكيا إسحاق الثاني ـ رسالة طلب منه فيها أن يقوم بتسليم مناجم الملح في ـ تغازة ـ للمغرب، وهي المناجم التي كان قد استولى عليها الملك ـ أسكيا محمد ـ مؤسس الدولة، وأثار هذا الطلب حفيظة السلطان أسكيا إسحاق فرد برسالة أكد فيها أن مناجم الملح هي من أساسيات السيادة لبلاده، ولا يمكنه التفريط فيها بأي ثمن. . وهكذا. . وجد سلطان المغرب السبب الذي كان يبحث عنه. . فأعلن الزحف باتجاه الجنوب.

جيش المغرب يتجه جنوباً

في شهر التمور ـ اكتوبر ـ عام 1590ف، انطلق من مدينة مراكش عاصمة المغرب الأقصى في تلك الفترة جيش السلطان المغربي ـ أحمد المنصور السعدي ـ المكون من أربعة آلاف مقاتل باتجاه الجنوب تحت إمرة قائد أندلسي الأصل اسمه ـ جودو ـ وكان ذلك الجيش يحمل معه الأسلحة النارية، والذخيرة التي يبدو أنها لم تكن قد وصلت بعد إلى وسط أفريقيا، ولم يعلم سكانها عنها شيئاً. .

ولم يلتفت السلطان المذكور أعلاه لنصائح مستشاريه عن خطورة التوغل بالجيش وبكل تلك الأعداد في مجاهل الصحراء الجنوبية للمغرب، حيث حرارة الشمس اللاهبة، وقلة مصادر المياه المعروفة وبالكمية المناسبة، باستثناء بضعة آبار قليلة على طرق القوافل باتجاه الجنوب، كما لم يلتفت إلى نصائح قواده الحربيين عن إمكانية معاودة البرتغاليين بعد هزيمتهم الكبرى في معركة ـ القصر الكبير ـ عام 1578ف. . هجماتهم على الجزر المغربية في شمال البلاد. . .

وهكذا. . تقرر الزحف على الجنوب إلى حيث مواطن الأفارقة بعد أن توفرت أنباء عن عودة تفشي الوثنية بينهم من جديد، وسيطرة زعماء القبائل عليهم الذين يمارسون الشعوذة وغيرها من الأمور الوثنية الأخرى. . إضافة إلى

إمكانية تحقيق حلم السيطرة على مناجم الذهب والملح.

وبعد أربعة أشهر، أي في شهر النوار ـ فبراير ـ عام 1591ف وصل ما تبقى من ذلك الجيش إلى منطقة ـ كيرا ـ الواقعة على منحنى نهر النيجر، بعد أن هلك نصف تعداد القوات التي غادرت مراكش في الصحراء بسبب الجوع والعطش، على الرغم من أن السلطان أحمد المنصور اختار تلك الفترة بالذات من السنة حيث تعتدل الحرارة وسط الصحراء، ويقل تعرضها للهيب الشمس المحرقة، مثلما يحدث في الصيف عادة.

وكان جيش دولة سنغاي التي غزاها قبل ذلك سوس تطاحن حكامها على السلطة وتفشي الفساد فيها، كما رأينا من قبل مهيأ بفعل كل ذلك للسقوط في أيدي تلك الحملة المغربية، كما أن جيش تلك الدولة فوجىء بإقدام الجيش المغربي على اختراق الصحراء حيث لم يكن أحد يتوقع أن يقدم على ذلك، وتذكر المصادر التاريخية أنه ولهول هذه المفاجأة غير المتوقعة، تساقطت قلاع دولة سنغاي تباعاً الواحدة تلو الأخرى، على الرغم من قيام السلطان ـ أسكيا إسحاق الثاني ـ في اللحظات الأخيرة كما يقول القاضي ـ محمد كعت التمبكتي ـ في كتابه ـ تاريخ الفتاش ـ. . من أن «يدفع بثمانية آلاف فارس مقاتل، وتسعة آلاف و700 راجل إلى أرض المعركة» لملاقاة الجيش المغربي، غير أن كل ذلك العدد من الفرسان والمقاتلين الراجلين لم يستطيعوا الصمود أمام القوات المغربية على الرغم من قلة عددها، مقارنة بما تم الزج به من قبل قادة سنغاي، لسبب بسيط، وهو أن الجيش المغربي كانت بحوزته أسلحة وذخيرة تفتك عن بعد، بينما كان مقاتلو تلك الدولة لا يتوفرون إلا على السيوف والحراب، والنبال. . وهي كل أنواع الأسلحة التي يعرفونها.

وهكذا ـ واصلت القوات المغربية الزاحفة تقدمها؛ كما واصلت القلاع والحصون السقوط في أيديها تباعاً، وكانت آخر المعاقل التي سقطت وأعلنت

استسلامها، مدينة ـ تمبكتو ـ بعد أشهر قليلة من نفس العام، وبسقوطها، سقطت دولة سنغاي الإسلامية في أيدي المغاربة، واستمرت وهي تحت نفوذها وسيطرتها، مظاهر التطور والحضارة العربية والإسلامية التي كانت عليها في السابق، واستعاد المسلمون في تلك المناطق إسلامهم الصحيح، وإن تدهورت بعد ذلك ببضع سنوات التجارة بسبب كساد طرق تجارة القوافل التي كانت تمد كامل المنطقة بالحياة.

وهكذا.. وعلى الرغم من الكساد الذي ضرب هذه المنطقة منذ تلك الفترة، إلا أن التطور الثقافي قد شهد على العكس من ذلك، ازدهاراً وتطوراً تمثل في اعتكاف العديد من المفكرين والمثقفين وبالذات في تمبكتو وبلاد الهوسا، على تأليف عشرات الكتب والمخطوطات الدينية والأدبية والشعرية، إضافة إلى كتابات السير والمعارف والتأملات، وهي مؤلفات وكتب لا زال أغلبها حبيس المكتبات المحلية في مالي، أو لدى مكتبات الأسر المالية حتى الآن، كما أن الاستعمار الفرنسي الذي جثم بأنفاسه على تلك المنطقة سرق الآلاف منها ونقلها إلى فرنسا، في محاولة منه لقطع أية صلة للإسلام والعرب بتلك المنطقة.

أما كساد تجارة القوافل البرية التي كانت تمد المنطقة بالحياة، فله إضافة إلى الحملة المغربية تلك أسباب أخرى أهمها تبدل وجهة المنتوجات والمعاملات التجارية المتعلقة بها نحو السواحل البحرية في غرب أفريقيا لفائدة التجار الأوروبيين، حيث كان لنمو الخطوط التجارية الأوروبية عبر السواحل البحرية المحاذية للمغرب ثم على طول الامتداد الجنوبي له عبر المحيط الأطلسي إلى غرب أفريقيا، تأثير مهلك على تجارة القوافل البرية في المنطقة والتي كان العرب سادتها دون منازع على مدى كل القرون التي سبقت ذلك.

وهكذا.. اندمجت الدول الأفريقية الواقعة على ذلك الساحل بسرعة مع تجارة البواخر والتجار البرتغاليين والأسبان، والذين اندمجوا هم أيضاً بسرعة

في شبكة المبادلات التجارية السابقة وسيطروا عليها لصالحهم، خاصة بعدما أقام الأوروبيون مصارفهم ووكالاتهم التجارية على سواحل المحيط الأطلسي، وتوسعوا في إقامة الموانىء التجارية على الساحل، حيث تحولت أهم المنتوجات الأفريقية إلى تلك المرافىء، وعلى رأسها الذهب الأفريقي الذي سيطر الأوروبيون على تجارته تماماً لفائدتهم وفائدة احتكاراتهم. وفي هذه الفترة. . . اكتشفت الأراضي الجديدة فيما وراء المحيط المعروفة الآن باسم الأمريكتين، وبسبب حرب الإبادة والواسعة النطاق التي شنها الرجل الأبيض في تلك المناطق ضد السكان الأصليين لتلك الأراضي، حيث تمت إبادة عشرات الملايين منهم في سنوات قليلة، فقد احتاج أولئك المستعمرون إلى من يخدم تلك الأراضي ويقوم بزراعتها لفائدتهم وفائدة احتكاراتهم الجشعة، ومن هنا تحولت تجارة أولئك الغزاة من التجارة في المنتجات والبضائع، إلى التجارة في الإنسان نفسه، حيث تحولت تلك المرافىء والمراكز التجارية التي أقامها الأوروبيون على سواحل أفريقيا الغربية إلى مراكز لاستجلاب الرقيق من وسط أفريقيا وغربها وشحنهم في مراكب إلى أمريكا، وهي عملية أدت إلى موت الملايين من الأفارقة بسبب التعذيب والشحن غير الإنساني على ظهور المراكب، وتحت سياط وكلاب المستعمرين الأوروبيين في الأمريكتين. .

وبعد سقوط دولة سنغاي ـ الإسلامية في مالي على أيدي جيش السلطان المغربي «أحمد المنصور السعدي» كما رأينا، واصل نور الإسلام إشعاعه في تلك المناطق وتكفلت بنقله الأجيال الجديدة من أبناء المنطقة أنفسهم، ممن تلمذوا وتعلموا على أيدي علماء عرب وأفارقة، فانتشر الإسلام وعم أغلب مناطق مالي وما جاورها من بلدان كانت فيما سبق وحدة جغرافية واحدة قبل أن يقوم الاستعمار بتقسيمها إلى دول متعددة في القرن التاسع عشر، ولم يكن سقوط مملكة سنغاي بالحادث الأول في التاريخ، فقبلها سقطت مملكة مالي، وقبلها سقطت مملكة غانا، كما رأينا من قبل وهي ممالك أدت دوراً بارزاً قبل

سقوطها، في نشر لواء الإسلام في تلك المنطقة الجغرافية المترامية الأطراف، وكان لها فضل عظيم في توطيد لواء الإسلام بين عشرات القبائل والأمم والتي لا زالت حتى الآن على دينها رغم كل المحن والمصاعب التي مرت بها منذ ذلك الوقت، والتاريخ علّمنا أن كل الدول لا بد لها من بداية، ثم صعود وتألق، وأخيراً عودة إلى الضعف والاندثار. . كما علّمنا أن ما يتبقى هو أعمال تلك الدول حيث يحفظ التاريخ ذلك بين سجلاته للأجيال اللاحقة. . والشيء العظيم الذي تميز به الإسلام دون غيره من سائر الديانات الأخرى أثناء انتشاره، هو محافظته على الشخصية الخاصة بالأقوام التي انتشر بينها، حيث شهد الجميع سواء من أبناء القارة نفسها أو من الغربيين الذين ابتلت بهم أفريقيا فيما بعد بأن أعظم ميزة ميّزت انتشار الإسلام، هي أنه لم يحطم النظم القبلية للقبائل الأفريقية التي انتشر فيها، بل هو على العكس من ذلك حافظ على تلك الشخصية المميزة بعد أن وضعها في إطار إسلام، وهذه ميزة أعطت وأضافت للإسلام بعداً حضارياً مكّنه فيما بعد من مواصلة انتشاره بقوة، حتى في أحلك الفترات التي مرت بها الشعوب والقبائل الأفريقية التي نكبت بالاستعمار الغربي في القرن التاسع عشر، وهو الاستعمار الذي قام إضافة إلى نهبه لما في أيدي وأرض الأفارقة من خيرات، بنهب الإنسان الأفريقي نفسه من خلال تلك العملية القذرة التي تواصلت على مدى أكثر من قرن كامل وتم فيها نقل الملايين من أبناء أفريقيا «كعبيد» وغصبا عن إرادتهم في أبشع عملية استرقاق يسجلها التاريخ على امتداده كله باتّجاه الأرض الجديدة في أمريكا، ثم من خلال محاولة أولئك المستعمرين نشر ديانتهم «المسيحية» بقوة الحديد والنار بين السكان الأفارقة، ومحاولتهم القذرة إيهام الأفارقة بأنهم خلقوا أصلاً ليكونوا «عبيداً» للإنسان الأبيض من خلال تزويرهم لما يقولون أنه كتابهم المقدس، وهي العملية التي لازالت متواصلة حتى الآن وإن تغيرت الأساليب والوسائل الموصلة إليها. أيضاً لاحظ المعنيون من أبناء أفريقيا أثناء تقييمهم للفترات التي كان فيها العرب يقومون بنشر رسالة التوحيد السماوية بين

أشقائهم الأفارقة بالحسنى والموعظة. أنّ أولئك الأجداد «جزاهم الله كل خير» قد خاطبوا أشقائهم الأفارقة بدافع الاشتراك الإنساني في حب الله جلّت قدرته، والامتثال لأوامره ونواهيه والالتزام بتوحيده وحده في كل هذا الكون المصنوع بإرادته، ومشيئته حتى يصل من يهتدي بعد ذلك إلى الصراط المستقيم الذي وعد الله جلّت قدرته بأن من يهدي إليه ينال الخلد في جنة النعيم، وكان كل ذلك يتم وفقاً للاحترام والتقدير للشعوب الأفريقية، مع الحرص على المحافظة على خاصيتهم وذاتيتهم سواء في أحوالهم المعيشية الخاصة، أو في ثقافاتهم، أو في كيفية إدارتهم لشؤونهم في الممالك والسلطنات والإمارات التي أقيمت. .

وقد اعترف الأشقاء الأفارقة أيضاً بالدور الذي قام به الرحالة العرب الذين سجلوا تاريخ المنطقة من أمثال ـ وهب بن منبه اليمني، وابن قتيبة، والمسعودي، وابن خرد ذبة، واليعقوبي، والشريف الإدريسي، وابن جبير، وابن خلدون، والقلقشندي، وابن بطوطة. . وعشرات غيرهم ممن كتبوا عن أفريقيا وعن شعوبها وعاداتها وتقاليدها وحكامها.

فهم من سجل تاريخ هذه المنطقة، وهم وحدهم من دوّن كتابات عنها قبل أن تعرف أوروبا وجغرافيّوها أي شيء عن هذه القارة بقرون عديدة، وهم فعلوا ذلك بكل أمانة وتجرد الكاتب في نقل ما يراه وما يسمع عنه. . لدرجة أن الرئيس الغاني ـ كوامي نكروما ـ وصف فضل العلماء والرحالة العرب على أفريقيا في محاضرة له بجامعة ـ اكرا ـ عام 1962ف بقوله «إن الرحالة العرب كانوا غير متحيزين فيما دونوه عن أفريقيا ونحن مدينون لهم فيما كتبوه عن ماضينا».

وهكذا. . كان العرب الذين جابوا مجاهل القارة الأفريقية بعد الإسلام حاملين معهم دينهم بين ثنايا قلوبهم، كانوا ينطلقون في فعل ذلك بهدف جليل وهو نشر العقيدة الإسلامية بين الناس، وهي العقيدة التي تكفلت بدورها بنقل

الحضارة واللغة العربية إلى كل موضع وصل إليه نور الإسلام، مما أدى إلى دعم الرابطة الدينية والحضارية والثقافية والعرقية مع الأشقاء الأفارقة في كل مكان وصل إليه الإسلام. .

لقد انطلقت من شمال أفريقيا قوافل التجار العرب باتجاه الجنوب قبل الإسلام حاملة معها إضافة إلى التجارة العلم والمعرفة، وعندما وصل الإسلام إلى هذه المنطقة وهدى الله الشعوب التي كانت فيها إلى نور الإسلام والتي دخلت فيه أفواجاً، انطلقت من نفس المكان المؤثرات العربية الإسلامية مخترقة كثبان الرمال الهائلة إلى حيث أماكن الأشقاء الأفارقة في غرب ووسط القارة السمراء، وهنا حدث التفاعل بين الدين الجديد والثقافة العربية الإسلامية من جهة، مع الثقافات والأعراف المحلية الأفريقية من جهة أخرى.

حتى أصبح الدخول في الإسلام والانضواء تحت لوائه لا يعني الدخول في تبعية دولة غريبة، بل أصبح يشكل انضواءً ذاتياً تحت رايات يحملها زعماء من الداخل الأفريقي نفسه. . كما أصبح الدخول في الإسلام يعني الإسهام في تكوين مجتمع أفريقي خاص وذاتي وسليم. .

بـلاد التكـرور

في أقصى المنطقة المطلة على المحيط الأطلسي حيث موريتانيا والسنغال حالياً، أطلق الجغرافيون العرب على سكان تلك المنطقة اسم بلاد ـ التكرور ـ نسبة إلى مملكة قديمة يقال أنها كانت مقامة على حوض نهر السنغال، وهي أول مملكة اعتنقت الإسلام عقب انتشاره على أيدي التجار المغاربة، مباشرة في السنين الأولى لإشعاع نور الإسلام في شمال أفريقيا.

وعندما قام بعض حكام تلك المملكة بأداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام في ذلك الزمن الموغل في القدم، ومرُّوا على بلاد مصر في طريقهم إلى الحجاز، كانوا يقولون لمن يسألهم عن موطنهم «أنهم من بلاد التكرور»، فشاع الاسم في الشرق كله وأصبح يطلق على كل من يأتي من منطقة غرب أفريقيا. ويقول الأستاذ ـ أبو بكر خالد با ـ الباحث بمعهد اللغات الوطنية في «نواكشوط بموريتانيا» أن التكرور اسم لمملكة تعتبر من أقدم ممالك السود المعروفة في أفريقيا الغربية وشملت حدودها أجزاء واسعة من أفريقيا، ولم يعرف بالتحديد امتدادها الجغرافي، غير أن المؤكد أنها المملكة التي قامت على جزء منها مملكة غانا القديمة».

ويقول ـ أبو المعالي الطالب محمد بن أبي بكر ـ الشهير «بالولأتي» في مخطوطة له بالدار القومية في «نواقشوط» التكرور إقليم واسع ممتد شرقاً إلى

ـ آدم غانج ـ أعالي نهر النيجر، ومغرباً إلى بحر الزناة وجنوباً إلى بلاد بيض وشمالاً إلى أدرار «في موريتانيا».

ويفهم من كلام الولاتي كما يقول المؤرخون الموريتانيون أن مفهوم ـ بلاد التكرور ـ تشمل بلاداً يسكنها العديد من الأجناس والشعوب المختلفة ففيها ـ البولاريون ـ والولف ـ وسرير ـ وشعوب ماندن ـ وشعوب البربر ـ الذين كانوا أسياد أغلب مناطق الصحراء يومها.

وبعد الدراسات الحديثة والحفريات التي أجريت على موقع هذه المملكة اتضح أن مملكة تكرور القديمة كانت قائمة منذ تاريخ ما قبل الميلاد، وكانت تتاجر في الذهب مع شعوب شمال أفريقيا على البحر المتوسط، حيث كان ذلك المعدن النفيس عماد تلك التجارة، بينما كانت تستورد من المغرب الصوف والنحاس والأحجار الكريمة، ويذكر المؤرخ الإدريسي أنها «كانت دولة مستقلة وتمتلك الثروة الحيوانية ومشهورة بالعدالة ويسودها الأمن».

وكان السكان فيها «يعتمدون في حياتهم على الصيد البري والنهري واللحوم، والألبان، وكان لباس الأمراء فيها من الصوف والقطن هو أيضاً لبس عامة الشعب»، وفي الجهة المواجهة لمدينة ـ بومبا ـ بالسنغال مكان يعرف حتى الآن باسم ـ تكرور ـ وفيها مقبرة رفاة أول من قام بالدعوة فيها إلى الإسلام وهو ـ أبو الدرداء ـ.

ويطلق اسم ـ أمة ولوف ـ الآن على التكروريين القدماء، وإن كان المؤرخ السنغالي ـ أنت جوب ـ يقول «إن التكرور هم من اختلاط ـ فولب وسرير وولوف ـ وهو يعني هنا أولئك الذين يعيشون حالياً على ضفتي نهر السنغال ويتكلمون باللغة البولارية ـ أو الفولانية ـ كما يقال لها أيضاً.

أما عن معنى كلمة ـ تكرور ـ فقد اختلف فيها العلماء والمؤرخون بالمنطقة، فنجد أن ـ البكري ـ يحرِّفها إلى كلمة «دكرور» ويجمعها على

«دكاكير» ويقول إنها كانت «اسماً لصنم عظيم كان يعبده هذا الشعب قبل وصول الإسلام».

بينما نجد مؤرخاً عربياً آخر هو ـ محمد كعت التمبكتي ـ يقول إن الكلمة مركبة من كلمتين هما «تك» بمعنى اسم جن من الجان و«رور» بمعنى أرض فتكون التسمية ككل تعني ـ أرض الجان ـ.

وبالنسبة لأصل اسم لغة هؤلاء القوم ـ الفولانية ـ فقد أرجعها المؤرخ السنغالي ـ أنت جوب ـ إلى الأسماء النيلية في مصر والسودان وبلاد الحبشة، ويؤكد مؤرخو المنطقة أن متكلمي الفولانية قد يكونون قدموا أصلاً وفي زمن غابر من التاريخ من البلاد الواقعة بين نهري دجلة والفرات، وقد نقلوا اسمهم معهم من تلك المناطق العربية حتى استقر بهم المقام في أفريقيا الغربية وهم ينتشرون الآن في النيجر، ومالي، وفولتا العليا، ونيجيريا، والكاميرون، وتشاد، وأفريقيا الوسطى، والكنغو، والسودان.

وحدث أن انسابت موجات أخرى من الفولانيين قدمت هذه المرة من ـ أوكار ـ بأراضي غانا القديمة وانتهى بها المطاف في الأرض المعروفة تاريخياً باسم ـ فوتا جالو ـ في غينيا الآن. كما انسابت بطون أخرى منهم باتجاه غامبيا وجنوب السنغال وتكونت ـ فوتا جالو ـ كإمارة إسلامية مستقلة، واشتهر أهلها بتحمسهم لنشر الإسلام خاصة في عهد سلطانها ـ المامي سري ـ ثم على يدي ابنه ـ المامي إبراهيم ـ الذي اشتهر عهده بقيادته لحملة ضد الوثنيين في القرن السابع عشر الميلادي.

وعلى امتداد ثلاثة قرون من السادس عشر إلى التاسع عشر «الأفرنجي» انسابت موجات أخرى من الفولانيين من أراضي غانا إلى كافة مجاري الأنهار في أفريقيا الغربية على شكل موجات بشرية متباعدة ومسالمة.

ونعود إلى مملكة التكرور القديمة، حيث تذكر المصادر التاريخية

المحلية أنه وبعد انهيار تلك الدولة لأسباب غير مفهومة، قامت في المنطقة وعلى انقاضها ـ مملكة جارا ـ وكان أمراؤُها من ـ السوننكي ـ الذين سبقت الإشارة إليهم في صفحات سابقة، وقد أغار عليها أحد سلاطين «مملكة سنغاي الإسلامية» في نهاية القرن الرابع عشر الإفرنجي وأخضعها لحكمه، ثم قامت في المنطقة إمارة أخرى هي إمارة ـ فوت ماسينا ـ بمنطقة أعالي نهر النيجر وحتى تمبكتو شمالاً، حيث قام ـ أحمد لبو الأول ـ بتحديد ـ فوت ماسينا ـ كدولة وقام بتوحيد المانسنيين الذين كانوا قبل ذلك بدواً رُحَّلاً لا يستقر بهم مقام بحكم تتبعهم للكلأ والمرعى، في دولة واحدة جمعت شملهم..

من أين قدم ـ الفولانيون ـ؟

عرَّف بعض المؤرخين قبائل الفولانيين «بأنهم شعب كان ينتقل بغزارة وكثافة بين تخوم الصحراء الكبرى وحزام السافانا، وحافة الغابات الأفريقية في الوسط، وشواطىء المحيط الأطلسي في الغرب، وتجدهم هناك على شكل جماعات مختلفة ما بين قبيلة، وبطون متقاربة، رعاة، وبدو تارة، ومزارعين يستقرون قرب مزارعهم تارة أخرى»، وقد خرج من بينهم علماء وحكّام احتفظ لهم التاريخ بمنطقة أفريقية الغربية بصفحات مشرفة في سجلاته. .

ولا يوجد مصدر مكتوب عن أنسابهم البعيدة سوى ما تتناقله الروايات المحلية نقلاً عن الأجيال السابقة، حيث يقولون أن الجد الأعلى الذي ينتمي إليه الفولانيون هو ـ ما كاما ـ الذي خلَّف ثلاثة أبناء ذكور هم:

الأول: بطيل بن ماكاما ـ وقد استوطنت سلالته في منطقة ـ فوتاتور ـ على ضفتي نهر السنغال، وفي فوتا جالو ـ بغينيا. .

الثاني: ـ جالقا ماكاما ـ وقد انقسمت سلالته إلى ثلاثة أقسام، منها من اتجه شرقاً حيث استقروا على نهر النيجر، ولذلك سمي النهر في فترة من الفترات باسم «نهر جالق» نسبة لهذا الجد، بينما أطلق على الأرض التي أقام عليها هؤلاء اسم «ماسينا».

أما القسم الثاني من هذه السلالة فقد استقر في «الصحراء» وأصبحوا من

(البيضان) أي الخليط العرقي المكون من الأبيض والأسود. .

الثالث: ـ مبولو ماكابا ـ وقد استقرت سلالته على جزء آخر من نهر النيجر، وإليه تنسب البطون الأولى التي تستوطن حالياً في منطقة الحدود بين فولتا ومالي. . وكذلك في النيجر ونيجيريا والكاميرون وتشاد وأفريقيا الوسطى. .

ويرى بعض المؤرخين الأفارقة، ويؤيد رأيهم بعض المؤرخين الأجانب «أن الفولانيين هم جنس ـ حامي ـ سامي ـ بينما يقول آخرون أنهم خليط من عدة أجناس تزاوجوا وامتزجوا مع آخرين»، ويقول رأي آخر «أنهم من أصل مصري حيث أنهم يشبهون صور المصريين القدماء المنقوشة رسومهم على جدار القبور الفرعونية في عهد الهكسوس، ويؤكدون أنهم ربما عادوا في أصولهم القديمة إلى عهد الهكسوس الرعاة «الذين اضطروا للخروج من مصر نحو الشمس الغاربة». . أي نحو الغرب من مصر. .

ويقول «المسعودي» الذي سجل ملاحظاته في القرن الثامن الإفرنجي (أن حضارة ـ كوش ـ لما انهارت في القرن الثامن قبل الميلاد اتجه العديد منهم نحو الشمس الغاربة). .

وتقول آخر الآراء «أنهم من بلاد ما بين النهرين في العراق، وهم من بين الهجرات البشرية الهائلة التي قدمت من الشرق باتجاه الغرب حيث قطعت قناة السويس وباب المندب واتجهت إلى أفريقيا، ومن هنا تفرعت إلى جهة الشرق والغرب». .

وأنا هنا حرصت على سرد كل الآراء المتعلقة بأصل الفولانيين، ذلك لأن هناك رأياً آخر يقول أن هجراتهم تمت عبر ليبيا وأنهم ربما يكونون أصلاً قد قدموا من هناك بعد أن استقروا فيها لفترة ما قادمين من الشرق. . أثناء الهجرات العربية الأولى (وهذا أمر سنعود إليه في وقت لاحق). .

أما لغة الفولانيين المعروفة باسم ـ البولارية ـ فينسبها بعض المؤرخين إلى لغة زنجية قديمة من السود المزارعين القدماء الذين كانوا يعيشون في الواحات الصحراوية، وأن الفولانيين اكتسبوها منهم أثناء إقامتهم الطويلة معهم، وهو أمر أدى إلى أنهم أضاعوا لغتهم الأصلية التي كانوا يتكلمون بها قبل مجيئهم إلى المنطقة..

ويرى المؤرخ ـ س، ج سليجمان ـ في كتابه (السلالات البشرية في أفريقيا) (إن اللغة البولارية إنما تمثل نمطاً قديماً من الكلام انبثقت منه سائر اللغات الحامية، فهي ليست من جيل لغات البربر أو الصومال، وإنما الأوفق اعتبارها منتمية إلى جيل أقدم من ذلك فهي «عمَّة» كبرى للغات البربر المعاصرة)..

من جهته يؤكد المؤرخ (باسيل داردسون) في كتابه (أفريقيا القديمة تكتشف من جديد) «إن من اللغات الأفريقية ذات الأثر الحامي لغة البولار ولغة الهوسا»..

وعلى المنحنى الشرقي لنهر النيجر استوطن العديد من الفولانيين القادمين من وادي السنغال بعد انتشار الإسلام في المنطقة، طلباً لتلقي العلوم الإسلامية، فأطلق عليهم اسم (تُوردب) بمعنى المنتمين والملازمين لمكان معين، ولهدف معين، ويقال أن الكلمة مشتقة من الكلمة البولارية (توردي) التي تدل على معنى طلب العون المادي من أجل التفرغ لدراسة العلوم الإسلامية، وقد توسع استعمال الكلمة في عهد لاحق فأصبحت تدل وتطلق على أهل الزوايا والتعليم.

ويقول الشيخ (موسى أحمد كمرا) في مخطوط له يوجد حالياً بجامعة دكار بالسنغال تحت عنوان (زهور البساتين في تاريخ بلاد السودانيين) «اعلم أن كل من لازم حرفة التعليم والمحافظة على الأداب الإسلامية وكانت اللغة الفولانية لغته، فهو من عداد توردب».

وتذكر المصادر التاريخية الخاصة بالفولانيين، أن الفاتح العربي عقبة بن نافع الذي افتتح أغلب منطقة شمال أفريقيا ووصل بجيوشه الفاتحة حتى المحيط الأطلسي، وتعمق بها إلى وسط الصحراء، وأخضع كل القبائل والأقوام التي كانت على امتداد كامل المنطقة للإسلام، وكان من بين الذين دخلوا إلى الدين الجديد على يديه كل قبائل الفولانيين.

ويذكرون أن عقبة بن نافع تزوج بابنة واحدة من ملوك الفولانيين وهو ـ روم بن عيص ـ ومن سلالة عقبة وابنة ملك الفولانيين، خرجت سلالة جديدة من الفولانيين ـ البيضان ـ وقد قال بهذا العديد من مؤرخي الفولانيين من بينهم ـ الشيخ عبد اللّه فودي ـ والأمير محمد بلو بن عثمان ـ و ـ الفاهاشمي بن أحمد تال ـ.

وكل الفولانيين الآن وعلى رأسهم «التوردب» الذين تحدثنا عنهم قبل قليل يفتخرون أيما افتخار بانتسابهم إلى عقبة بن نافع الفهري من ابنة ـ روم بن عيص ـ ويلاحظ علماء التاريخ في المنطقة أن ظاهرة الانتساب إلى الأشجار العربية هي ظاهرة حلت في كل بقعة حل بها الإسلام في أفريقيا بشكل خاص، وفي بقية دول العالم بشكل عام، وقد مرّ بنا من قبل القول بأن القبائل الأفريقية في جزر «المدى الأبعد» أو مدغشقر وجزر القمر، والساحل الشرقي لأفريقيا لا زالوا حتى الآن يفتخرون بأنسابهم العربية الأصلية، وهم يتوارثون ما يؤكد ذلك من وثائق ومخطوطات جيلاً بعد جيل حتى الآن.

وفي منطقة غرب أفريقيا بكاملها يكفي أن تقول ـ عقبة ـ الذي يكنُّ له الأشقاء الأفارقة كل احترام وتقديس، ليفهم الجميع أن المعني بذلك هو عقبة بن نافع الفهري، فهو عندهم المثل الأعلى للإيمان العظيم، ورمز للبطولة الفاتحة، ويكفي أن نكرر هنا أن أغلب الفولانيين يعلنون بفخر واعتزاز انتسابهم إلى هذا الفاتح العظيم. وكيف لا..؟ وهو الذي وقف بجواده على شاطىء الأطلسي سنة 682 إفرنجي وقال كلمته المشهورة:

«يا رب.. لولا هذا البحر المحيط لمضيت في البلاد مدافعاً عن دينك، ومقاتلاً من كفر بك» ـ جزاه الله خيراً.. وأكرم مثواه ـ.

وعن الأصول التاريخية للفولانين التي أوردناها من قبل، فقد وجدت أن المؤرخ الفرنسي «فيري ديبوري» ينسبهم بقوله «إنهم من البربر وإنهم ينحدرون من منطقة أدرار ـ شمال موريتانيا حالياً ـ واندفعوا إلى السودان الغربي بعد خروج المسلمين من الأندلس واشتغلوا بالزراعة والرعي».

بينما يرى «تشارلز سلجمان» «أن الفولانيين انتشروا بالتدريج في السودان الغربي وأعالي السنغال خلال ازدهار امبراطورية غانا، وأنهم شقوا طريقهم إلى بلاد الهوسا في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، وصاروا قوة مسيطرة بعد نجاح حركة الجهاد الفولاني بزعامة الشيخ «عثمان بن فودي» عام 1804ف والذي قاد ثورة كبرى عقب قرنين من الفوضى والتفكك التي سادت المنطقة بكاملها عقب سقوط سلطنة ـ سنغاي ـ على أيدي السلطان المغربي أحمد المنصور كما رأينا في الصفحات السابقة.

وقد كان لهذا المجاهد الأفريقي «عثمان بن فودي» فضل كبير في نشر الدين الإسلامي على نطاق واسع في كامل منطقة غرب أفريقيا، وتحديداً في نيجيريا حيث لا زال الملايين في هذه الدولة يدينون حتى اليوم لحركة هذا المجاهد الفولاني في نشر دعوة الإسلام بينهم، ودفاعه عنها بالسيف، حتى توطَّدت أركانها وتدعَّمت، ولم يكن جهاد هذا الشيخ الجليل ضد الوثنيين فقط، بل تعداه إلى إقامة دولة إسلامية حملت لقب الخلافة في ـ سوكوتو ـ والتي استمرت على مدى قرن بكامله قام خلاله أبناؤه بالتصدي للأوروبيين الغزاة، وكانت لهم ملاحم وبطولات لا زالت معلماً للملايين من أبناء المسلمين في المنطقة حتى الآن، «وهذا حديث آخر قد تسمح الظروف في المستقبل بتناوله بالتفصيل».

ولأن أخبار المجاهد عثمان بن فودي قد عمَّت الآفاق، ووصلت أنباء

فتوحاته إلى سلطان المغرب، فقد بعث إليه هذا السلطان برسالة هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم. . صلوات الله على سيدنا محمد المصطفى وآله وأصحابه الذين اتبعوا نهجه القويم.

إلى السيد الذي نشأ في أقطار السودان عدله، واشتهر في الآفاق المغربية نهجه وفضله العلامة النبيه العليم في زمانه عثمان بن محمد بن صالح الفلاني نفع الله بعلومه القاصي والداني.

سلام منا عليه ما اشتد شوقنا إليه، وبعد، بلغنا من الثناء عليك والتعريف بأفعالك وأحوالك ذلك ما وجب محبتنا وتسليمنا إليك، وذلك من سلطان ناحيتك وأمير الطوائف الإسلامية بساحتكم المقر في كتاب إلينا بفضله، وأنك ناصح لله، ذلك السلطان هو محمد الباقر بن محمد العدل، سلطان ـ أهير ـ فإنه أخبرنا بما قمت به من الواجب من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً، وترادفت عليك وفود الإسلام أعدادا بلطف شمائلك.

الناس أكيس من أن يمدحوا رجلاً ما لم يروا عنده آثار إحسان

ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم، فالله تعالى يجازيك عن الأمم خيراً ويقيهم شراً، ويديم دولتكم المحفوظة، وفي حصن الله الحريز تاليه: قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج: 40 و41].

والسلام منا على جنابكم الذي صار للإسلام بخصوص نصيحتكم كالبيت المعمور والسلام عليكم ورحمة الله.

وقد توفي الشيخ عثمان عام 1817ف وتركت حركته أثراً عظيماً في أحوال المسلمين في نيجيريا وغرب أفريقيا كلها، وتقول المصادر التاريخية أن

الفولانيين لم يعتمدوا في نشر الإسلام على حركة الجهاد وحدها، بل كانت جهودهم أساساً في الدعوة إليه بالطرق السلمية بالحكمة والموعظة الحسنة، وكان علماء الفولانيين ينتشرون في كامل المنطقة لتعليم الناس أصول الدين الإسلامي.. ومبادئه السمحاء، وقد اشتهر بهذا كافة السلاطين الذين توارثوا هذه الدولة، فكان جهدهم إعلاء لدعوة دين الله في كامل السودان الغربي.

وتقول مصادر الفولانين أن الشيخ عثمان وحده ألّف أكثر من عشرين كتاباً في فقه السنة وشرح مبادىء الإسلام، وألّف شقيقه ـ عبد اللّه فودي ـ نحو ثمانية عشر كتاباً. وألّف ابن الشيخ عثمان ـ محمد بلو بن عثمان ـ العديد من الكتب المماثلة.

البربر.. عرب أقحاح

كانت منطقة المغرب الأقصى حيث موريتانيا حالياً خاضعة لسيطرة القبائل العربية القوية التي أُطلق عليها اسم ـ البربر ـ والتي كانت قد هاجرت إلى تلك المواقع في أزمنة سحيقة من تاريخ ما قبل الميلاد، واحتفظت في مواقعها الجديدة بسماتها ومميزاتها العربية الأصيلة، وقد انتشر تواجد تلك القبائل العربية على طول المنطقة الممتدة من سواحل المغرب الشمالية، وحتى أقصى حدود نهر السنغال ونهر النيجر جنوباً منذ ما قبل الإسلام، بسبب اشتغال العديد من أفرادها في التجارة مع تلك المناطق، فنشأت على تلك الرقعة الجغرافية قبائل وبطون كان لا يحدد إقامتها حيِّز معيَّن من الأرض، ولا تدين بولاء إلا لقبيلتها، فكانت تنتقل من جهة لأخرى طلباً للكلأ والمرعى، باستثناء أشقاء وفروع منها استقروا في الشمال حيث المغرب حالياً، فأقاموا الممالك والدول التي أثّرت وتأثّرت بالمحيط المجاور لها.

وكما قلت من قبل، فإن الله جلّت قدرته أراد لتلك القبائل العربية الأصل أن يحركها من مواقعها في شبه جزيرة العرب، لتنطلق إلى كل الاتجاهات ولتكون في استقبال آخر الديانات المرسلة إلى الإنسان على يدي محمد بن عبد اللّه عليه الصلاة والسلام بعد ذلك بآلاف السنين، وأن تقوم هذه القبائل العربية باحتضان الدين الجديد والتكفل بنشره بين بقية خلق الله.

وقد تدعَّمت هجرة القبائل العربية القديمة بهجرات عربية أخرى لاحقة لها كانت تفد إلى المنطقة بين الحين والآخر قبل الإسلام وبعده دعما لما سبق من أشقائها، ولتغطي بدورها رقعة أخرى جديدة من أراضي هذه المنطقة حتى غطَّت شمال أفريقيا وغربها.

وعندما شعَّ الإسلام بنوره الخالد من شبه جزيرة العرب، كان لا بد أن يمتد ذلك النور ليصل إلى العرب الذين سبقوه في مناطق استقرارهم في شمال أفريقيا وغربها وبهذا النور الإسلامي الخالد دخلت القبائل العربية التي أطلق عليها اسم «البربر» كلها في دين الله على أيدي جيوش الإسلام التي قادها عقبة بن نافع الفهري وثُبّت إسلامهم بشكل نهائي في زمن موسى بن نصير، فأصبحوا بعد زمن من غلاة دعاة الإسلام والعاملين على نشره بين الوثنيين المجاورين لهم. وعن أصل البربر يقول «أحمد بك النائب الأنصاري الطرابلسي» في كتابه التاريخي القيم «المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب».

«البربر جيل وشعوب وقبائل أكثر من أن تحصى وكان سبب مسيرهم إليها ـ يقصد ليبيا ـ وإلى غيرها من المغرب ـ شمال أفريقيا ـ أنهم كانوا بنواحي فلسطين من الشام وكان ملكهم ـ جالوت ـ فلما قُتل سارت البرابرة وطلبوا المغرب» ثم يقول «أما نسابة البرابرة فيزعمون أنهم من العرب مثل «لواته» يزعمون أنهم من حِمْيَرْ ومثل «هواره» يزعمون أنهم من «كِنْدَهْ» ومثل «زناته» يزعم نسابتهم أنّهم من «العمالقة» ومنهم من يزعم أنهم من بقايا «التبابعة» وكان منهم قبل الإسلام وبعده رؤساء وفضلاء وحكماء وأولياء وأفاضل»، ويضيف «ويقال أن أفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة والذي ينتمي إلى قحطان بن حمير بن سبأ «في اليمن» ـ وقد سبق الحديث عنه وعن الهجرة العربية التي قادها باتجاه شمال أفريقيا في الصفحات السابقة ـ لما غزا المغرب وأفريقية وقتل الملك «جرجيس» وبنى المدن والأمصار زعموا سميت أفريقية.. ولما رأى سكانها وسمع رطانتهم ووعى اختلاطها وتنوعها

تعجب من ذلك وقال «ما أكثر بَرْبَرَتَهُمْ» فسمُّوا «بالبربر» والبَرْبَرَة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة ومنه يقال «بربر الأسد». .

واشتهر من كبار قادة البربر بعد الإسلام ـ بلقين بن زيري الصنهاجي ـ ومحمد بن خزر ـ وعروبة بن يوسف الكتامي ـ ويوسف بن تاشفين ملك قبائل لمتونة بالمغرب ـ وشيخ الموحدين عبد المؤمن بن علي ـ ويحيى بن إبراهيم ـ وعشرات الأفذاذ غيرهم ممن كان لهم فضل عظيم في الدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيل الله والاهتمام بالعلم والعلماء وتشييد المدارس القرآنية والمساجد والزوايا في جنوب بلاد المغرب الأوسط والأقصى، وأوصلوا إشعاعه ونوره حتى تخوم أراضي الغابات الأفريقية فيما وراء السنغال، وعلى أيديهم ـ جزاهم الله كل خير ـ توطدت أركان الدعوة الإسلامية في تلك المجاهل البعيدة بعد أن هدى الله أشقاءهم من الأفارقة لدين التوحيد، فأقيمت الممالك والسلطنات الإسلامية القوية التي واصلت على أيدي الأفارقة أنفسهم نشر دين الله في كافة المواقع.

وفي بداية القرن العاشر الميلادي كانت قبائل صنهاجة ـ جدالة ـ مسوفة ـ العربية قد أكملت استيطانها في أراضي المغرب الأوسط والأقصى، بينما انفصلت عنها قبيلة ـ لمتونة ـ وتوجهت جنوباً إلى حيث موريتانيا الحالية، وهناك استقرت.

وهناك. . . تواصل الامتزاج العربي الأفريقي مع من سبق من العناصر العربية القديمة، وجرت في عروق الطرفين الدماء الناتجة عن النسب والمصاهرة، وتواصل مع هذا التمازج العرقي تمازج التراث والحضارة، فطبعت البلاد المنطقة كلها باللغة والثقافة العربية الإسلامية، وتوج هذا التطبع دين الله الواحد الأحد بسماحته وبساطة تعاليمه وسهولة انتقاله بين خلق الله.

وهكذا. . اندمج العرب بقبائلهم مع أشقائهم المجاورين، وبدا وكأنهم نبتوا هناك منذ آلاف السنين. وكان من نتائج ذلك الامتزاج خروج تلك

السلالات الهجينة التي تعيش في المنطقة الآن.. والتي بدورها تواصل التمازج مع غيرها في عملية متواصلة لا تتوقف ولن تتوقف.. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وفي منتصف القرن الحادي عشر خرج الأمير اللمتوني - يحيى بن إبراهيم - أمير قبيلة لمتونة - أو «الملثمين» كما يطلق عليهم من قرية «تاغنت» بموريتانيا في طواف شمل بلاد المغرب، ثم توجه شرقاً حتى وصل أراضي الحجاز فأدى فريضة الحج، وكان هدفه هو تحصيل العلم وفهم الإسلام على حقيقته، وهاله ما شاهده من تقدم أشقائه في الشرق وتأخر بني قومه الذين قدم منهم، فعزم على العودة إلى حيث قومه والبدء في حركة إصلاحهم وإصلاح عقيدتهم.

غلبهم الحياء... فتلثموا

كان يحيى بن إبراهيم أمير قبائل الملثمين من لمتونة العربية الأصل شديد الورع والتمسك بالدين، وفي رحلته إلى الشرق ثم إلى مكة المكرمة لاحظ مدى انحراف بني قومه عن التعاليم الصحيحة للإسلام، خاصة وأن الزمن قد أدخل فيها العديد من الاختلاطات والانحرافات التي كان لا بد من تصحيحها.

وهكذا.. عزم هذا الأمير المجاهد على العودة إلى قومه للعمل على بث روح جديدة بينهم تصلح ما فسد من عقيدتهم وتنير للأجيال اللاحقة دينهم الحقيقي.. وحدث أن التقى الأمير يحيى وهو في القيروان أثناء عودته بالعالم البربري الشيخ عبد اللّه بن ياسين الجزولي فاصطحبه معه بعد أن عرض عليه الفكرة والتي يقال أن الشيخ عبد اللّه تحمس لها بشدة..

وهكذا.. عاد الرجلان إلى حيث قبائل لمتونة وبدأا فوراً في اعطاء الدروس الإسلامية الصحيحة بينهم.. غير أنهما وجدا مقاومة وصداً عنيفاً من أبناء تلك القبيلة وبطونها، ولم تفلح كل محاولتهما للإصلاح، فدبَّ اليأس إليهما، وقررا هجر البلاد ومن فيها إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.. فسافرا باتجاه الجنوب إلى أن وصلا إلى جزيرة صغيرة قرب السنغال الحالية، فقررا الإقامة والاعتكاف فيها إلى أن يأتي أجلهما.

ولكن الذي حدث.. على العكس من ذلك تماماً.. فقد شاع أمر اعتكافهما واعتزالهما للناس، وبدلاً من أن ينساهما الجميع، بدأت قوافل أبناء قبيلة لمتونة تتوافد على مقرهما الجديد أو بالأصح مقر اعتكافهما في تلك الجزيرة الصغيرة، التي سرعان ما أصبحت ـ رباطا ـ للشيخين ومن تبعهم من الأتباع، وأصبح رباطهما قبلة لمئات المريدين الراغبين في تلقي علوم الإسلام الصحيحة. ولم تمضِ سوى سنوات قليلة حتى التف حول الأمير يحيى والشيخ عبد الله كتلة قوية من المؤمنين الراغبين في نشر دين الله.

ومن هنا قرر اللمتيّون أو «الملثمون» الإنطلاق والإندفاع في تلك المناطق من غرب أفريقيا ناشرين الدعوة إلى دين الله، وأصبح اسمهم الرسمي منذ ذلك الوقت «المرابطون» نسبة إلى الرباط الذي جمعهم في تلك الجزيرة الصغيرة..

وانقسم المرابطون إلى قسمين.. اتجه الأول شمالاً باتجاه المغرب حيث أسسوا مملكة المرابطين الشهيرة التي وصلت حدودها في القرن الثاني عشر الإفرنجي إلى الجزائر شرقاً وشمالاً حتى نهر «الأيبر» في أسبانيا، بينما اتجه الثاني إلى نشر الإسلام في المحيط الذي نشأ فيه باتجاه المناطق الأفريقية الوثنية التي لم يصلها الإسلام، وخاصة في الجنوب.

وتقول المصادر التاريخية إن عهد المرابطين في الصحراء لم يدم طويلاً بسبب اهتمام المرابطين بتدعيم حكمهم في شمال أفريقيا والأندلس، ولذلك زال حكمهم من الصحراء بسرعة، غير أن الشجرة التي غرسوها في نفوس الآلاف من الأفارقة واصلت نموها، فقام الأشقاء الأفارقة ممن هداهم الله للإسلام بمواصلة نشر دين الله بعدهم..

ولم ينته القرن الحادي عشر الإفرنجي وفي خلال خمسين عاماً فقط، حتى كان الإسلام قد عمَّ منطقة غرب أفريقيا بكاملها، فدك مملكة غانا الوثنية

وسادها وساد كافة المناطق التي كانت تابعة لها، ودخل فيها ملوك ـ الماندنغا ـ سادة المناطق الواقعة بين السنغال الأعلى والنيجر الأعلى، ثم شعوب وادي السنغال وأمراء الولايات الواقعة في أواسط النيجر، ومملكة ماسينا والساحل، وامبراطورية ـ غوا ـ وبلغ بحيرة تشاد وانتشر في مملكة بورنوا والهوسا، وحملته قبائل ـ الديولا ـ إلى غابات غينيا وسيراليون وليبيريا وشمال شاطىء العاج وشاطىء الذهب. .

وقد شاءت إرادة الخالق عز وجل أن يخرج المسلمون في هذه الفترة من أسبانيا في العام 1085ف بعد سقوط طليطلة في 25 الماء «مايو» من نفس العام، فانتقل المسلمون الذين كانوا يعيشون هناك بعد أن اشتد الضغط الصليبي ضدهم في أسبانيا إلى سواحل المغرب، ثم انتشرت هجرتهم فيما بعد باتجاه الجنوب. وعلى طول ساحل الأطلسي وحتى نهر السنغال ونهر النيجر، فكان لوصولهم وفيهم العلماء والشيوخ دعم لنشر الإسلام وتوطيد له في كل المواقع التي وصلوا إليها. .

واشتهر من أبناء قبيلة لمتونة ـ أيضاً ملكهم يوسف بن تاشفين الذي أسس مدينة مراكش وأقام دولة عمَّرت عشرات السنين، وكان لها دور بارز في نشر لواء الإسلام في كل الأماكن التي فرضت سيطرتها عليها.

كما اشتهر من ملوكهم ـ تينزاوا بن وانشيق بن يزار ـ و«يقولوتان» وكان الأول يعرف (بملك الصحراء بأسرها على عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم، وكان يركب في مائة ألف، ودَانَ له عشرون ملكاً من ملوك السودان يعطونه الخراج). . ورأينا فيما سبق اندفاع هذه القبيلة إلى ما وراء الرمال الصحراوية الهائلة الفاصلة بين المغرب وبلاد (شنقيط) كما كانت تعرف سابقاً، وهو اندفاع كان دعماً لاندفاعات وهجرات سابقة لهذه القبيلة العربية باتجاه نفس المكان، يقال إنّه تم قبل الفتح الإسلامي بعدة قرون، كان أفراد هذه القبيلة شأنهم شأن أسلافهم العرب الأولين لا يألفون العيش إلا في الأرياف

والبوادي، ولا يقتاتون إلا بألبان الأنعام ولحومها، يرضون بعيشة التوحش والقفار بين هوام الطبيعة، ولا يرضون بالعيش تحت الغلبة والقهر أو إمرة الغرباء..

وفي تلك الفيافي اتخذوا (اللثام) شعاراً تميّزوا به بين الأمم فسمُّوا «الملثمين» وهناك بين كثبان الرمال والواحات التي امتدت (ما بين البحر المحيط ـ الأطلسي ـ بالمغرب، إلى غدامس من قبلة إطرابلس وبرقة، تكاثرت أعدادهم وتعددت قبائلهم (من ـ كذالة ـ فلمتونة ـ فمسوفة، فوتريكة ـ فناوكا ـ فزغاوة).

ويفخر اللمتونيون بنسبهم العربي الأصيل فيقول أحد شعرائهم:

قوم لهم شرف العلى من حِميَرٍ   وإذا دعوا (لمتونة) فهمو.. همو..

لما حووا علياء كل فضيلة   غلب الحياء عليهمو.. فتلثموا.

قلاع لنشر الإسلام

بعد نجاح حركة ـ المرابطين ـ واستتباب الأمور لهم في المنطقة الممتدة على طول شاطىء المحيط الأطلسي من نهر السنغال جنوباً وحتى سواحل المغرب الشمالية، وتحول العديد من الأماكن والقرى والأمصار على طول هذا الامتداد إلى قلاع لنشر العلوم الإسلامية والفقه الإسلامي فيها وفيما حولها.. كان لا بد أن تكون بلاد شنقيط ـ موريتانيا الحالية ـ أول معقل من تلك المعاقل المتقدمة، والتي كان لعلمائها وفقهائها ـ جزاهم الله كل خير ـ دور بارز ورئيسي في نشر الإسلام في كل المناطق المجاورة لهم، وحتى تلك البعيدة عنهم.

وكان المتعلمون القاطنون في وادي السنغال من الولف، والبولاريين، والسوننكي، دائمو التنقل إلى الزوايا الإسلامية المقامة بكثرة في الواحات الموريتانية، حيث هناك يتزودون بالعلوم الإسلامية ويحسنون ألسنتهم في فن القراءات القرآنية.

وبسبب اندلاع أحداث تتعلق بالأمن من جهة، وبعد المسافة من جهة أخرى، انقطع الطلاب الأفارقة عن الذهاب إلى بلاد شنقيط واختاروا بدلاً منها مكاناً نائياً في السهل السنغالي يعرف باسم «بري» بقيادة عالم فقيه متبحر في العلوم الشرعية واللغوية يدعى ـ الشيخ عمر فال ـ.

وسرعان ما تحول المكان الجديد إلى شبه جامعة علمية إسلامية بكل معنى الكلمة، حيث بدأت وفود الطلاب الباحثين والساعين لمعرفة علوم الإسلام على حقيقتها تفد إليه من كل حدب وصوب، فكان الطلاب يتعلمون حتى الحصول على الإجازات العلمية التي كان يقدمها أساتذة هذه الجامعة الإسلامية المصغّرة، والتي كانت تشبه جامعات الأزهر والقيروان وغيرها.

كان الطلاب البولاريون ـ أو ـ الفوتيون ـ قد ازدادت أعدادهم وازداد تأثرهم بأفكار الشيخ عمر فال، وهم الذين تلقوا علومهم الإسلامية على يديه في ـ بري ـ فكانوا يعودون إلى قراهم ومدنهم حاملين في عقولهم، إضافة إلى العلوم الإسلامية، حلم القيام بتغيير واقع بلادهم التي كان يهيمن عليها الملوك الفاسدون الذين لم يكونوا يراعون آداب وتعاليم الإسلام.

ومن بين الحالمين بإحداث التغيير وأكثر زملائه جرأة وشجاعة للقيام بالعمل، كان الشيخ ـ سليمان بال ـ الذي جمع العديد من المناصرين والمؤيدين له وقام بحركة التغيير والتي كانت من نتيجتها «إسقاط أعتق مملكة فولانية في فوتا وادي السنغال» وهي المملكة التي دام حكمها من عام 1513ف إلى عام 1769ف.

ولحقت المنية بالشيخ سليمان بعد نجاح حركته بعدة سنوات، فاجتمع زملاؤه ممن قاموا معه بتلك الحركة، واختاروا الشيخ (عبد القادر بن حمدي كن) إماماً شرعياً على بلاد فوتا، ومنذ ذلك الوقت بدأ في تلك المنطقة أول نظام إسلامي حقيقي اعتمد تشجيع التعليم والتمسك بآداب الدين.

وقام الشيخ عبد القادر كن، بالتوسع في إنشاء المساجد الجامعة في كل مكان وأنشأ بجانب كل مسجد مدرستين إحداهما للقرآن والأخرى للعلوم الشرعية واللغوية، ولم ينته عهد هذا الشيخ المبارك، إلا وكان قد أقام 35 مسجداً وضعف هذا العدد من المدارس القرآنية.

وعندما توفي الشيخ عبد القادر في عام 1803ف خلفه في الدولة التي أقامها أكثر من 50 إماماً، ابتليت البلاد في عهدهم بالاستعمار الفرنسي الذي جثم بأنفاسه الكريهة على منطقة السنغال فحد من حركتهم وأخضع العديد منهم لسلطة قهره وبطشه.

أيضاً.. وفي هذه الفترة ظهر الحاج «عمر بن سعيد الفوتي التكروري» المولود في ـ بودور ـ على الحدود بين السنغال وموريتانيا عام 1795ف وهو الابن الرابع للشيخ سعيد الذي ينتمي لفرق «التوردب» الذين قاوموا الوثنية في تلك المنطقة، وسبق الحديث عنهم.

درس الحاج عمر اللغة العربية وعلوم الدين الإسلامي تحت إشراف والده، وحفظ القرآن الكريم، ودرس صحيح مسلم والبخاري وعمره لم يتجاوز الخامسة عشر، وفي عام 1826ف قام الحاج عمر مع أخيه علي برحلة ثقافية ودينية بدأها بزيارة بيت الله في مكة المكرمة، بعدها زار فزان بليبيا وأقام فيها فترة ثم زار السودان ومصر، وعاد إلى مكة المكرمة مرة أخرى عام 1828ف، وأثناء عودته زار القاهرة حيث أكمل تفسير القرآن الكريم في الجامع الأزهر، وفي عام 1852ف أعلن الحاج عمر الجهاد ضد الوثنيين في السودان الغربي بعد أن جمع أثناء تنقلاته الكثيرة آلاف المؤيدين والمناصرين له ولدعوته، واستطاع خلال عشر سنوات أن يسيطر على كل السودان الغربي، من حدود مدينة تمبكتو في مالي إلى حدود السنغال، وكان هدفه تنقية الإسلام في السودان الغربي من كل ما علق به من شوائب، ووضع حداً للوثنية التي بدأت تنتشر من جديد، وقام ببناء عشرات المساجد والمدارس القرآنية في كل أرجاء المنطقة التي امتدت إليها حركته الإصلاحية.

وفي عام 1854ف سيطر الحاج عمر على معظم أعالي نهر السنغال، وخاض هذا المجاهد كفاحاً مريراً على جبهتين، الأولى ضد الوثنيين، والثانية

ضد الفرنسيين الذين فرضوا استعمارهم على السنغال، وأرادوا التوسع باتجاه عمق السودان الغربي إلى حيث مالي والنيجر، وكان جهاده «رحمه الله» معلماً لا زالت الأجيال في تلك المناطق تتوارثه جيلاً بعد جيل حتى الآن، وتوفي الحاج عمر في ساحة المعركة مقاوماً للفرنسيين الغزاة عن عمر يناهز السبعين عاماً في شهر رمضان عام 1864ف.

وعقب وفاة الحاج عمر بن سعيد الفوتي واصل أبناؤه الجهاد من بعده ضد الفرنسيين الغزاة والوثنيين، الذي استغلوا الفرصة للعودة إلى وثنيتهم السابقة، وحدثت معارك وملاحم يطول ذكرها هنا..

وما يهمنا هو البحث عما تركته حركة الحاج عمر من آثار على ساحة العلم ونشر رسالة الإسلام في منطقة غرب أفريقيا.. فنجد أنه وفي السنة التي توفي فيها هذا المجاهد، تذكر المصادر التاريخية أن المنطقة كادت أن تكون قفراً من العلماء وحفظة القرآن، بسبب اشتراكهم في المعارك التي خاضها الحاج عمر على ضفاف نهر النيجر..

مدرسة واحدة تبقَّت ولم يخرج علماؤها للجهاد معه بأمر من الحاج عمر نفسه، تلك هي مدرسة «بكيجوي» التي أسسها ـ الشيخ مودي محمد العالم ـ أحد تلاميذ الحاج عمر في فوتا وادي السنغال، وعندما توفي الشيخ محمد العالم خلفه في إدارة المدرسة ورفع رسالة التعليم بها الشيخ (مودي بوكر) وعلى يديه تخرج أكثر من 25 عالماً إسلامياً في العلوم الشرعية من السنغال وموريتانيا، تولى كل واحد منهم القيام بدور عظيم في نشر الثقافة الإسلامية في منطقة نهر السنغال، كان من بينهم (الشيخ أحمد مختار آن) المشهور باسم (سيرنو يورباك) والذي تلقى علومه الأولية في المدرسة المذكورة سابقاً، ثم التحق بمدرسة العالم الشنقيطي (الحارس ولد محنض سالك) ومكث الشيخ أحمد ستة عشر عاماً متواصلة في هذه المدرسة، في منخفضات ولاية ترارزة الموريتانية.

كان الشيخ أحمد وأثناء هذه الفترة التي قضاها في التعليم قد اكتسب إلى جانب مقدرته في استيعاب العلوم الإسلامية، مقدرة خارقة في تبسيط علوم اللغة العربية لأبناء المنطقة الذين كانوا يتوافدون للتعلم على يديه، وعلى الرغم من قصر المدة التي جلس فيها الشيخ أحمد للتدريس فإن الذين تلقوا علومهم على يديه أصبحوا فيما بعد قادة ومصابيح بددت ظلام الجهل وأنارت العقول على طول نهر السنغال والسهول المجاورة له. .

وفي هذه الفترة أيضاً، عرفت المنطقة ظهور مدرسة إسلامية أخرى كان لها إشعاع فكري وثقافي وديني في كامل المنطقة، وتخرج منها العديد من العلماء وحفظة القرآن الكريم، ممن ساهموا بدورهم فيما بعد في توطيد أركان الدعوة الإسلامية في مناطقهم وقراهم. . تلك هي مدرسة ـ أحمد مختار صاغو ـ في مدينة ـ سيلن ـ وهي مدرسة نشأت بعد استشهاد الحاج أحمد الفوتي. .

كان والد أحمد مختار صاغو من المجاهدين الفوتيين المهاجرين مع الحاج عمر للجهاد، واختاره ابن الحاج عمر الذي تولى قيادة المسلمين بعد وفاة والده ليكون عالماً في علوم القرآن واللغة العربية، وفي عام 1893ف وبعد عدة سنوات من التنقل من مدرسة إلى أخرى من مدارس الإسلام في السنغال، استقر به المقام في مدرسة «الحارس ولد محنض» في ولاية ترارزة بموريتانيا التي سبق ذكرها، وهناك عاش أحمد عشرين عاماً اتقن خلالها كل العلوم العربية بلا استثناء، وفي عام 1901ف عاد إلى وطنه في فوتا وادي السنغال، وفي عام 1908ف عيّن قاضياً شرعياً في مدينة ـ بوقا ـ بموريتانيا، وهناك افتتح مدرسة قاد منها الحركة الثقافية في موريتانيا والسنغال معاً. . وتخرج منها عشرات العلماء في شتى العلوم الإسلامية. . وأثّرت تلك المدرسة تأثيراً عظيماً في كامل أنحاء المنطقة. .

ونعود مرة أخرى إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر لنتابع حركة

جهادية فولانية أخرى قادها ـ أحمد لبُّو ـ الذي تخرج من مدينة تمبكتو بمالي، بعد أن تلقى العلوم الإسلامية فيها على يدي أحد علمائها وشارك في حركة الجهاد بنيجيريا كواحد من أتباع الشيخ عثمان فودي، وعاد إلى تمبكتو بعد القضاء على أوكار الوثنية هناك على رأس جيش قوي سيطر به على تمبكتو وقضى به على إمارتين وثنيتين استغلتا ضعف المسلمين وخروج قادتهم للجهاد في مناطق بعيدة، فحاولتا العودة بالمنطقة إلى عهود الوثنية الأولى. .

«وهكذا. . أنشأ أحمد لبُّو إمارة إسلامية قوية لعبت دوراً خطيراً في تاريخ الإسلام والثقافة الإسلامية في مالي «وأقام عاصمة لدولته الجديدة على مقربة من نهر النيجر أطلق عليها اسم «حمد لله». . وصفها الأستاذ «يرو دورو» في مقالة له بمجلة «بولار» الثقافية بقوله: إن ـ حمد لله ـ ضمّت عشرة آلاف جواد من الجياد القوية المستعدة للمشاركة في الحرب، وكانت تحيط بها أسوار ضخمة على ارتفاع عدة أمتار بنيت لحماية العاصمة من غارات الأعداء، وكانت فيها 600 حلقة من محاضر العلم تدرس فيها علوم الشريعة وفن القراءات القرآنية موزعة على 18 حيّاً من أحياء المدينة، وكان مجلس الحاكم يضم 40 عالماً هم بمثابة المستشارين له في الأمور الدينية و60 آخرين مستشارون في أمور الأمن العام. .

وفي نهاية القرن الثامن عشر. . كان الأوروبيون قد بدأوا في الاستيطان على نقاط محدّدة على الساحل الغربي لأفريقيا، وخاصة في السنغال، حيث تمكن الفرنسيون من إقامة رأس حربة لاستعمارهم الذي تم رسمياً فيما بعد في مدينة ـ سان لويس ـ على نهر السنغال قرب الحدود مع موريتانيا. .

وبمقدم أولئك المستعمرين الغزاة بدأوا في إشعال الفتن بين المسلمين في تلك المناطق، كما قاموا ببث الفتن والمؤامرات بين المناطق الإسلامية، لمعرفتهم الأكيدة بمدى خطورة تواجدها على الساحة، ومدى خطورتها بشكل خاص على مستقبل مخططاتهم الإجرامية في أفريقيا، حيث كان لعاب أولئك

الغزاة يسيل علنا للاستحواذ على خيرات القارة البكر وتسخيرها من أجل شراذمهم في أوروبا، إضافة إلى قيامهم بتلك الفعلة الشنيعة التي تمثلت في أبشع عملية عنصرية في التاريخ كله ضد الأفارقة الذين تم أسرهم وشحنهم غصباً عن إرادتهم باتجاه الأراضي الجديدة في أمريكا، ونجحوا فعلاً في مقصدهم في نهاية المطاف. . وجثموا بأنفاسهم الكريهة على صدر القارة حتى بداية الستينات من هذا القرن. .

الفولانيون.. هل قدموا من ليبيا؟

قلنا في الصفحات السابقة أن علماء التاريخ وعلماء الأجناس اختلفوا ولم يتوصلوا إلى رأي موحد عن المكان أو المنطقة التي قدمت منها قبائل الفولانيين المنتشرة في منطقة غرب أفريقيا ووسطها، ورأينا كيف من قال أنهم قدموا من بلاد الرافدين، ومنهم من ذكر أنهم من بلاد مصر في عهد الفراعنة بعد خروج الهكسوس منها، ومنهم من ذكر غير ذلك.

وبداية من هذه الصفحة سنتابع قصة قبيلة ليبية كانت تستوطن الجنوب الليبي، وأقامت دولة ومدنا عظيمة الشأن وبسطت سلطانها على كامل أنحاء الصحراء الكبرى وطرق القوافل التجارية فيها على مدى حقب طويلة من الزمن، وعرفوا باسم «الجرامنتيين» والذين لا زالت آثار وبقايا دولتهم قائمة حتى الآن في مدينة ـ جرمة ـ تشهد على عظمة المجد الذي وصلوا إليه، والتقدم الذي مكنهم من مقارعة الرومان وبقية المستعمرين السابقين لهم على طول الساحل الليبي فترة طويلة من الزمن، حتى انصاع الرومان في نهاية المطاف وهادنوهم وعقدوا الأحلاف معهم، بعد أن اعترفوا بسيادتهم على الصحراء كلها. . حيث كانت تجارتهم وقوافلهم التجارية وعرباتهم التي تجرها الجياد تجوب غاباتها وسهولها ووديانها، قبل أن تتحول إلى رمال وصحارى قاحلة. .

كان أول من تحدث عن أولئك القوم، وعن ليبيا ككل وبشكل واضح أبو التاريخ - هيريدوت - في القرن الخامس قبل الميلاد عندما قال «إن اسم ليبيا يطلق على كل الأراضي الواقعة من مصر وشمالها حتى بحر الغرب - الأطلسي - ويسكنها الليبيون، وكثير من الشعوب الليبية».

ويذكر هيرودوت أيضاً الطرق التجارية الصحراوية التي ربطت في فترة ما قبل التاريخ وادي النيل في مصر بسواحل المحيط الأطلسي في غرب أفريقيا مروراً بالصحراء الكبرى، حيث يعيش الليبيون، وذكر أيضاً أن الليبيين قاموا باكتشافات جغرافية عديدة من بينها واحدة باتجاه تشاد الحالية حيث قام خمسة من الشبان الليبيين من قبيلة الناساميون - والتي كانت تستوطن منطقة سرت حالياً - برحلة استغرقت خمسة أشهر جنوباً.

وعن الجرامنت تحديداً يقول هيريدوت «وأما في الداخل - يقصد ليبيا - فيعيش الجرامنت في المنطقة المعروفة بمنطقة الحيوانات البرية».

ثم يقول في فقرة أخرى «وعلى مسيرة عشرة أيام أخرى من أوجلة يوجد تل آخر من الملح تتوسطه عين ماء وحولها الكثير من النخيل المثمر ويسمى الأهالي الذين يسكنون هذه الجهات بالجرامنت وهم أمة كبيرة من الناس، هم يمارسون العادة التالية في الزراعة، حيث يغطون الأرض المكسوة بالأملاح بطبقة من التربة ثم يبذرون عليها البذور. . وتلك هي وسيلتهم في الزراعة.

وهم يقتنون نوعان من الثيران وهي تسير إلى الخلف وذلك لأن قرونها الطويلة الممتدة تمنعها من السير للإمام عند الرعي وهي تمتاز - الثيران - بكثافة وخشونة جلودها «ويقول» ويخرج هؤلاء الجرامنت في عربات تجرها أربعة من الخيول لاصطياد الأقوام المسمُّون بـ - الأثيبو تروجلودي - من سكان الكهوف ويعتبر الآخرين من أسرع من نعرفهم في العَدْو، وهم يعيشون على أكل الثعابين والزواحف وليست لهم لغة بل إنهم يتحدثون بأصوات تشبه حفيف الخفافيش».

وقبل هيريدوت، سجل الفراعنة المصريون الكثير من الإشارات على جدران معابدهم تحدثت عن معارك مع قبائل ليبية عديدة، أو عن هدايا ونفائس قدمت منها لملوك مصر على رأسها ـ الفيروز ـ.

وهناك رأيان حتى الآن في أصل الجرامنتيين، يقول أولهما «إنّهم قدموا من جزر كريت وصقلية وسردينيا في شمال البحر المتوسط» في أعقاب الزلازل الهائلة التي دمرت في القرن الحادي عشر قبل الميلاد مدنهم وأغرقت قراهم وأجزاء كبيرة من جزرهم «فالتجأت تلك القبائل إلى الشواطىء الشرقية والجنوبية للمتوسط وجاء فريق منهم إلى سواحل برقة وطرابلس فامتزجوا بالقبائل الليبية المحلية بالمصاهرة والتجارة».

وبعد استقرار استمر عدة أجيال حدثت خلاله العديد من الحروب والمناوشات مع المصريين على وادي النيل، رأت هذه القبائل، ولأسباب غير معروفة حتى الآن التوجه إلى فزان في حوالي القرن العاشر قبل الميلاد «وهناك أقامت وشيّدت المدن والقرى، واشتغلت بالزراعة وصيد الحيوانات البرية، وتؤكد الأساطير الإغريقية هذه الهجرة من شمال المتوسط عقب الزلازل المدمرة التي حدثت هناك، غير أنها جعلت اتجاهها ليس إلى برقة وطرابلس، بل إلى شواطىء خليج قابس وجربة بتونس ثم تمكن الفينيقيون فيما بعد من طردهم عن الساحل فاندفعوا باتجاه الجنوب نحو فزان عن طريق واحة غدامس وأدري إلى حيث وادي الآجال».

وأما الرأي الثاني فيقول، إن الجرمنتيين قدموا من جنوب مصر وتحديداً من واحة «سيوه» التي كان بها نفوذ ديني قوي على القبائل الليبية نظراً لقيام معبد ـ آمون ـ فيها، وبسبب استيلاء الفرس على مصر وخوفاً من تقدمهم باتجاه الجنوب، حيث المعابد الفرعونية في سيوه «رتب أهلها أمورهم في التقهقر غرباً إذا ما تعرضوا للخطر، فأرسلوا جيشاً إلى فزان، ويبدو أن قسماً من سكان الواحة قد هاجر فعلاً وأقام في واحات فزان وعرفوا باسم الجرامنت».

ومؤخراً. . وعلى ضوء الحفريات الحديثة بدأ بعض المؤرخين يميلون إلى الاعتقاد بأن عرباً من سكان فلسطين، وعقب تغلب نبي الله داود على جالوت هاجروا من وطنهم إلى مصر، غير أن أهالي وادي النيل لم يرحبوا بهجرتهم وإقامتهم بينهم فواصلوا سيرهم باتجاه الغرب «فاستقرت مجموعة منهم في فزان وهم الذين عرفوا بالجرامنت».

وفي العهد الروماني، نجد أن المؤرخ ـ سترابو ـ الذي عاش في الفترة بين 66 إلى 24 قبل الميلاد قد تطرق في الكتاب الذي وضعه باسم ـ الجغرافيا ـ للجرامنتيين، وإن كان قد اشتكى من قلة المعلومات المتوفرة لديه عنهم بسبب عدم ارتياده لبلادهم في الدواخل، وهو يقول عنهم بعد أن يصف مواقعهم نقلاً عما سمعه عنهم (وهؤلاء القوم المسمُّون بالجرامنت معتدلون في طعامهم وزينتهم. ويقتني الواحد منهم الكثير من الزوجات ولديهم الكثير من الأبناء، ويعنى ملكهم بتربية الخيول، حتى أنهم يقيمون سنوياً حفلاً يحضره الملك ليشاهد تعشير الخيول التي تلد لهم سنوياً حوالي مائة ألف مُهر).

وبعده كتب مؤرخ روماني آخر هو ـ بليني ـ عن بداية الاحتكاك العسكري بين الرومان والجرامنت، حيث وصف حملة قام بها الرومان لاحتلال الجنوب الليبي عام 19 قبل الميلاد وهو الاحتكاك الذي دام قرناً كاملاً من الزمن، ووصف ـ ثيرانهم ـ ذات القرون الطويلة وحياتهم الاجتماعية. .

وكل المعلومات التي دوَّنها الرومانيون عن الصراع الذي خاضوه مع الجرامنتيين عقب سقوط قرطاج بتونس في القرن الأول قبل الميلاد كان أساسه خوفهم، وهم الذين بسطوا نفوذهم على العديد من سواحل شمال القارة وحتى موريتانيا على الساحل الغربي، خوفهم من قوة الجرامنت في فزان، وقد قامت بين الطرفين عدة حروب لم تنته بانتصار أي منهم، ثم انتهت تلك الحروب برضوخ الطرفين لإيجاد نوع من التعاون بينهما، خاصة بعد أن لاحظ

الرومان مدى الخراب والكساد التجاري الذي ضرب مدنهم على الساحل بسبب انقطاع طرق تجارة القوافل الصحراوية مع أفريقيا، والتي كان الجرامنتيون سادتها بلا منازع.

وهكذا عقد الطرفان معاهدة بينهما أتاحت إعادة الأمن إلى طرق القوافل التجارية مع وسط أفريقيا والتي كانت قد سادتها الفوضى بسبب الحروب السابقة بين الطرفين، وهكذا قام قائد روماني يدعى (جوليوس ماتيرنوس) بالخروج مع ملك جرمة «مرسيس» لتطهير طرق التجارة وتأمينها (حيث أتما مهمتهما في تطهير المسالك والدروب التي تربط جرمة ببلاد أفريقيا الوسطى من عصابات قطاع الطرق ثم سارا صوب الجنوب لمدة أشهر).

ويعتقد الدكتور محمد سليمان أيوب في كتابه «جرمة.. من تاريخ الحضارة الليبية» أن بلاد ـ اجيزيمبا ـ التي وصل إليها ملك الجرامنت مع ضيفه الروماني هي بلاد النيجر حالياً، والتي أطلق عليها العرب اسم ـ كوار ـ والتي كانت لها علاقة تجارية قديمة عبر القوافل مع جرمة، وقال أن قبيلة اسمها جرمة لا زالت تقيم في النيجر حتى الآن (وهم أحفاد الجنود الجرامنت الذين ظلوا منذ القرن الأول الميلادي بذلك المكان).

وكانت ـ جرمة ـ عاصمة الجرامنتيين ترتبط بعدة طرق للقوافل التجارية مع بلاد السافانا فيما وراء الصحراء الكبرى، فكانت تلك الطرق تربطها بنهر النيجر في الجنوب الغربي وبحيرة تشاد في الجنوب، ودارفور وكردفان بالسودان وجنوب مصر في الشرق، مع تواصل تلك الطرق بطرق أخرى تربطها بغدامس في الشمال الغربي وصبراتة وطرابلس ولبدة على الساحل في الشمال.

وكانت تجارة الجارمنتيين الرئيسية مع الجنوب إضافة إلى الأصواف وجلود الحيوانات والعاج والبخور والبهارات، الذهب والفضة وأحجار الفيروز الذي كان يتوفر بأراضيهم بكثرة، وكانوا يتاجرون أيضاً بالملح الذي كان يباع

في أسواق النيجر وأسواق جنوب الصحراء بمثل حمولته ذهباً.

ويقول المصدر السابق أن الجرامنت لعبوا في تاريخ الصحراء الكبرى «نفس الدور الذي لعبه الفينيقيون في تاريخ البحر المتوسط فكان لهم الفضل في تمدين الشعوب الأفريقية الموجودة إلى الجنوب منهم، وذلك عن طريق إدخال علوم ومعارف العالم المتحضر إليهم، كما كان لهم الفضل أيضاً في تعريف الكتاب الرومان وغيرهم بعالم أفريقيا الواقع للجنوب من الصحراء الكبرى وامدادهم بالمعلومات التي دوّنها جغرافيّو العالم الروماني في كتبهم».

وبعد معارك متواصلة شهدتها المنطقة وخاضها الجرامنتيون مع القبائل الأخرى، كان لا بد أن يأخذ التاريخ مجراه وأن يعتري عاصمة الجرامنتيين ما اعترى غيرها من المدن العظيمة السابقة، فدب الضعف إليها، وهجرها سكانها فزحفت الرمال التي بدأت تغطي المنطقة بعد سنوات طويلة من الجفاف إليها، فغطت أغلب ميادينها وشوارعها، وفي القرن التاسع الإفرنجي خلت تماماً من السكان.. خاصة بعد وصول جيش عقبة بن نافع إليها وإسلام سكانها الذين عاد بعضهم للإقامة على انقاض المدينة الأولى، كما يقول المصدر السابق - في القرن الثالث عشر الإفرنجي - واستمر تواجد بعض السكان فيها تتنازع حكمهم حكومات وقبائل شتى إلى أن تم هجر المدينة نهائياً سنة 1936ف، ولم يتبقّ منها سوى أطلال تحكي ماضياً تليداً.. وقصة حضارة سادت.. ثم بادت.

هجراتهم .. انسابت من الشرق

بعد أن استعرضنا في الصفحات السابقة ما مرَّ به الجرامنتيون في جنوب ليبيا من تطور أدَّى إلى سيطرتهم في البداية على كامل منطقة الصحراء الكبرى والتحكم في طرق التجارة والقوافل فيها، ووصول قوافلهم التجارية ونفوذهم إلى تشاد ونهر النيجر ونيجيريا جنوباً قبل أن تزحف الرمال على مدينتهم العظيمة ـ جرمة ـ وخرابها في نهاية المطاف.

وهو استعراض أردت من خلاله أن أبين، أن الجرامنت كوّنوا صلات قوية مع مناطق ما وراء الصحراء الكبرى في زمن ما قبل التاريخ، وهو أمر أثبته المؤرخ الإغريقي (هيريدوت) الذي تحدث عنهم في القرن الخامس قبل الميلاد، وذكر أنهم كانوا متواجدين بالمنطقة، وأن تجارتهم كانت واسعة مع جنوب الصحراء، وأنهم كانوا على درجة كبيرة من التقدم، حيث كانوا يستخدمون العربات التي تجرها الخيول، وحدد بشكل خاص أنهم كانوا يمتلكون نوعاً من الثيران التي كانت عظيمة القرون بحيث أنها كانت ترعى في مراعي الجرامنتيين وهي تسير إلى الخلف بسبب طول قرونها، وهو أمر أكد عليه العديد من المؤرخين اللاّحقين في فترة ما قبل الميلاد وبعدها بقليل.

وقد أردت بذلك السرد أن أُركز بشكل خاص على مسألة امتلاك الجرامنتيين لهذا النوع من الحيوان الذي اشتهروا به إضافة إلى اشتهارهم بامتلاك الخيول التي تجر عرباتهم.

وسبب تركيزي على هذا الأمر هو قول مؤرخي قبائل «الفولانيين» الأفريقية بأن هذه القبائل عرف عنها تربية الأبقار منذ أن قدمت إلى المنطقة «من جهة الشرق» قبل آلاف السنين.

وقد رأينا من قبل قول المؤرخين الأفارقة من أن قبائل الفولانيين التي تحدثنا عنها من قبل تنحدر أصولها من بلاد ما بين النهرين، وقول غيرهم إنّهم من مصر الخ.. وحتى الآن لا أحد يعرف بالضبط من أين قدم الفولانيون قبل استقرارهم في المناطق المتواجدين بها حالياً في غرب أفريقيا، وحتى وسطها وأجزاء عديدة من شرقها، بعد أن تكاثرت بطونهم وتفرعت قبائلهم وتكاثرت.. غير أن المؤكد أنهم لم يكونوا أصلاً من سكان غرب أفريقيا، وإنما قدموا إليها «من جهة الشرق» قد يكون من مصر.. أو من شبه جزيرة العرب.. أو من ليبيا.. التي تقع في الشرق بالنسبة لهم.

ولمعرفة المزيد عن حقيقة أصولهم تتبع العلماء السّر في كلمة «فوت» التي عُرفوا بها، وكانوا يطلقونها على كل موقع يستقرون فيه في بداية استيطانهم بالمنطقة مثل ـ فوتا جالو ـ فوتا كيندي ـ فوتا ماسينا ـ فوتا وادي السنغال ـ ثم أضيف لهذه الكلمة، كلمة أخرى هي ـ تورو ـ فأصبحت «فوتا تورو».

ويقول المؤرخ السنغالي الشهير «أنت جوب» عن الاسم الأول ـ فوتا ـ «إنه من أصل نيلي من مصر أو السودان، بينما كلمة «تورو» تعني الشجاعة والمقدرة، ولا يُستبعد أن يكون الاسم الأخير يعني ـ الصنم الذي على صورة ـ ثور عظيم ـ في «الآلهة المصرية» بينما يقول آخرون إن كلمة تورو هي كلمة محرّفة من كلمة «ثور» في اللغة العربية والعبرية والأمهرية وهي تعود إلى أصول اشتقاقية واحدة».

ويقول الأستاذ ـ أبو بكر خالد ـ الباحث بمعهد اللغات الوطنية بموريتانيا

في بحث مطول له بعنوان «العلاقة التاريخية بين اللغة البولارية «الفولانية» واللغة العربية عبر التاريخ» يقول «وقد بقي اسم ـ فوتا ـ في أذهانهم إلى أن انتهوا في أفريقيا الغربية فأطلقوه على الأقاليم التي استوطنوا فيها».

ونجد أيضاً أن مؤرخ أفريقيا الكبير ـ الشيخ موسى أحمد كمرا ـ يقول في مخطوط له بجامعة داكار بالسنغال تحت عنوان «زهور البساتين في تاريخ بلاد السودانيين» «إن أصل كلمة ـ فوت ـ هو اسم واحد من أولاد حام بن نوح «عليه السلام» فَلِحَام أربعة أولاد هم: كوش ـ مصر ـ كنعان ـ فوت.

«فكوش والد الأحباش، ومصر والد المصريين الأقباط، و«كنعان» والد الصوريين الذين كانوا يقطنون سواحل الشام، أما «فوت» ذهبت جماعة من العلماء للقول أنه يدل على قوم الليبيين الأولين، أي أهل بلاد برقة».

ومما سبق.. وعلى ضوء كل هذه الحقائق التي دونها علماء تاريخ وعلماء أجناس عن أصول ـ الفولانيين ـ لماذا نستبعد انتماءهم إلى ـ ليبيا ـ وأنهم كانوا يستوطنون ليبيا أيام الجرامنتيين ثم ولسبب من الأسباب، قد يكون لقلة المرعى وهم المعروفون برعاية الثيران والبقر في تلك الفترة الموغلة في القدم، وعقب الجفاف الذي ضرب المنطقة هاجروا باتجاه الغرب، حيث استقروا على مواقع الأنهار التي وجدوها هناك، ولم يهاجروا شرقاً بسبب سيطرة المصريين على وادي النيل وهم الذين صدوهم عن تلك الأماكن عديد المرات من قبل.

ويقول علماء التاريخ الذين اهتموا بهذا الأمر، أن هجرات الفولانيين «إنسابت من الشرق» على دفعات، وكانت كل دفعة منها تستقر في مكان يتواجد به الماء والمرعى في غرب أفريقيا، وأثناء هذه الهجرات القديمة نَسي الفولانيون لغتهم الأصلية التي كانوا يتكلمون بها واستبدلوها بلغة البلاد التي استوطنوا فيها، أو كوَّنوا لغة أخرى خاصة بهم.

وإذا عدنا إلى كلام ـ هيريدوت ـ عن القوم الذين كان الجرامنتيون يطاردونهم بعرباتهم وخيولهم، وقوله «بأنهم يتكلمون بلغة تشبه حفيف الخفافيش»، ربما وصلنا. . إلى أن أولئك القوم لم تكن لهم لغة أصلاً عندما قرروا الهجرة باتجاه الجنوب الغربي، خاصة وأن من قدم بعد هيريدوت للمنطقة لم يتحدث عن تواجد لأولئك القوم بعد القرن الخامس قبل الميلاد، وإن تحدث عن تواجد مكثف للجرامنتيين ومعارك خاضها الرومان معهم استمرت حقباً طويلة من الزمن.

ولنعد إلى ـ الفولانيين ـ لاستكمال الحديث عنهم، حيث تذكر المصادر التاريخية أن هجراتهم انسابت من الشرق على دفعات قبل أن تستقر في مواقعها الجديدة على مجرى الأنهار في السنغال والنيجر، وكانوا في أثناء هذا الاستقرار يندمجون بسرعة في تلك المواقع سواء مع أولئك الذين سبقوهم من قبل، أو مع الأقوام الأفريقية الأخرى، وفي أثناء هذه الهجرات، نسي الفولانيون أغلب مفردات لغتهم الأصلية التي كانوا يتكلمون بها، وأصبحوا يتكلمون لغة البلاد التي استوطنوها إلى أن كوَّنوا لغة أخرى خاصة بهم أصبحت تعرف باللغة ـ البولارية ـ أو ـ الفولانية ـ المعروفة الآن.

وقد أوردت فيما سبق من حديث كيف أن المؤرخ ـ سليجمان ـ قال عن لغة الفولانيين بأنها تمثل نمطا قديماً من الكلام انبثقت عنه سائر لغات الحاميين، وهي ليست من جيل لغات البربر، أو الصومال «وإنما الأوفق اعتبارها منتمية إلى جيل أقدم، فهي عمَّة كبرى للغات البربر المعاصرة» والبربر وهم عرب أقحاح من شبه جزيرة العرب استوطنوا منذ هجرتهم الأولى، مكاناً وحيداً وهو المنطقة الممتدة من برقة في ليبيا، إلى المغرب الأقصى على ساحل المحيط الأطلسي، وبالتالي. . فلا بد أن تكون هجرة الفولانيين القدماء قد قدمت تحديداً من هذه المنطقة وليس من مكان آخر غيرها. . هذا من جهة. .

ومن جهة أخرى نجد أن ـ كارل مانيهوف ـ يقول في بحث له عن ـ السلالات البشرية في أفريقيا ـ «أن من اللغات ذات الأثر الحامي، لغة البولار، ولغة الهوسا، واللغات الأخرى مثل الهنتوت في جنوب أفريقيا، والماسي، وكل اللغات الأخرى التي تعنى بتربية الماشية». أي أن لغة الفولانيين بالإضافة إلى احتمال كونها لغة بربرية قديمة، فهي أيضاً لغة قوم يعرف عنهم عنايتهم بتربية الماشية وبالذات تربية الأبقار والثيران، وهو أمر عرف عن الجرامنتيين القدماء الذين كانوا يتواجدون في الجنوب الليبي، وكانوا يهتمون بتربية الثيران ويتخذونها وسيلة للتنقل قبل أن يعرفوا الحصان، ثم الجمل بالتتابع فيما بعد. . .

ويقول الأستاذ ـ أبو بكر خالد با ـ الباحث بمعهد اللغات الوطنية في نواقشوط أيضاً «إننا كثيراً ما نصادف الروايات التي تقول بأن شعوب أفريقيا الغربية الكثيرة هي من ليبيا» وكان أول من قال بذلك المؤرخ الأغريقي الشهير ـ هيريدوت ـ في القرن الخامس قبل الميلاد عندما قال: «إن اسم ليبيا كان يطلق على كل الأراضي الواقعة من مصر وشمال أفريقيا حتى بحر الغرب ويسكنها الليبيون، وكثير من الشعوب الليبية بخلاف ما يملكه الأغريقيون والفينيقيون هناك» فإذا عرفنا هذه الحقائق يمكننا التوفيق بين قصة قدوم الفولانيين ـ من الشرق ـ وعدم استبعاد قدومهم من ليبيا، وتحديداً من جنوبها حيث كان الجرامنتيون يتنقلون في كافة أنحاء الصحراء الكبرى الحالية، عندما كانت تزخر بالخضرة والمياه، وعندما تعرى غطاؤها النباتي بسبب الظروف المناخية التي ضربت المنطقة، «قد يكون» أن طائفة منهم والاحتمال الأقرب، طائفة من القوم الذين كانوا يتحدثون لغة تشبه ـ حفيف الخفافيش ـ كما وصفهم ـ هيرودوت ـ والذين كانت تطاردهم خيول وعربات الجرامنتيين، هي التي هاجرت باتجاه الغرب والجنوب بحثا عن المرعى والكلأ والمياه، وعندما وجدت مرادها على ضفاف نهر النيجر جنوباً استقرت هناك.

ونعود إلى مسألة ـ الثيران ـ التي اشتهر بها الجرامنتيون في زمن ما قبل الميلاد والتي استرعت انتباه أبي التاريخ ـ هيريدوت ـ في القرن الخامس قبل الميلاد وقال أن بعض الليبيين القدماء كانوا يتعبدون لثور أطلقوا عليه اسم ـ غرزيل ـ وقال إن هيكله الأعظم كان في الإقليم الغربي من ليبيا، وكان لتأثير هذه العقيدة فيهم أنهم حرَّموا أكل لحوم البقر بتاتاً، حيث نجد ـ الدكتور محمد سليمان أيوب ـ في كتابه القيِّم «جرمة. . تاريخ الحضارة الليبية» يقول «كانت الثيران تستخدم في التنقل قبل بداية عصور الجفاف بالصحراء» و«من المحتمل أن تكون الثيران قد استعملت في قوافل الصحراء ولو أنه يستبعد أن يكون استعمالها قد استمر فترة طويلة بعد العهد المسيحي، ولا زالت الثيران تستعمل حتى اليوم في دارفور وغرب كردفان بالسودان في الانتقال بين القرى القريبة، وقد عثر بالصحراء الكبرى على عدد من النقوش التي تمثل الثيران وعليها السروج» ويضيف «ثم أخذت الحمير تحل محل الثيران بالتدريج وظل الأمر كذلك حتى ظهرت قبائل الجرامنت بالخيول والعربات».

وبعد هذه الفترة سادت عوامل الجفاف منطقة الصحراء الكبرى فجفت الآبار أو أصبحت مياهها أكثر غوراً وبعداً، وزحفت الرمال على الغطاء النباتي فأحالت الأراضي الصلبة التي كانت تسير عليها الثيران والحمير والخيول إلى كثبان من الرمال الهائلة، وهو أمر أفسح الطريق فيما بعد لظهور الجمال في المنطقة والتي بها شهدت الصحراء عهداً جديداً من تاريخها، سادت فيه قبائل العرب التي قدمت في هجرة جديدة. . ومعها الجمل. . سفينة الصحراء بلا منازع.

وعلى كل. . أترك البحث عن أصول هذه القبائل التي قد تكون ـ فعلاً ـ قبائل ليبية قديمة هاجرت إلى هناك، إلى الأخوة المختصّين، ويكفيني هنا. . أنني أشرت إليها. . وإلى هذا الاحتمال غير المستبعد. .

كيف دخلت المسيحية إلى أفريقيا؟

وبعد..

لقد استعرضنا خلال الصفحات السابقة تاريخاً طويلاً.. عرضنا على بعض فتراته بعجالة وتوسعنا في سرد فترات أخرى منه.. وفيه، عاصرنا أجداداً عظماء كتبوا ملحمته عبر قوافلهم التجارية البرية والبحرية بهجراتهم المتتالية من شبه جزيرة العرب، وانطلاقتهم في كافة الاتجاهات..

وبعد هذا السرد.. كان لا بد أن نسرد ـ ولو بعجالة أيضاً ـ قصة ما فعله الآخرون، وأعنى هنا الأوربيين، ومسيحيتهم «المحرَّفة» التي استجلبوها معهم إلى أفريقيا وحاولوا فرضها بالقوة تارة.. وبالخديعة والمكر تارة أخرى... وهي قصة تستحق السرد.. حتى نعرف الفرق بيننا.. وبينهم.. وبين ديننا ودينهم..

وتلك قصة الصفحات التالية

بعد سقوط ما كان يعرف بالاتحاد السوفييتي السابق وهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على مقدرات العديد من أجزاء هذا العالم، سعت هذه الإدارة الإرهابية لمحاولة فرض هيمنتها بشكل أساسي على العالم الإسلامي، باعتباره كما قال ساستها أكثر من مرة «الخطر الحقيقي المتبقي» أمام مخططات الهيمنة، وكانت هذه الإدارة في سعيها المحموم لمواجهة هذا الخطر تنطلق لخدمة غرضين في نفس الوقت، خدمة غرض داخلي أساسه الطمع والجشع الأمريكي المتأصل والمبني أساساً على أن كل شعوب العالم يجب أن تخضع بشكل أو بآخر للهيمنة والصلف الأمريكي، وغرض خارجي يتلاعب به اللوبي اليهودي المسيطر على القرار السياسي في واشنطن، خدمة لأغراض الإسرائيليين في محاولاتهم فرض رؤيتهم وهيمنتهم تحديداً على الوطن العربي، الذي هو أساس منبع عقيدة الإسلام ومهبط الوحي الإلهي العظيم على آخر أنبياء الرحمن عليه الصلاة والسلام، وهو هدف لا تخفي الصهيونية العالمية سعيها لتحقيقه على المدى البعيد، بعد أن تم استكمال إيجاد موضع قدم من خلال قيام الدولة العنصرية ـ رأس الحربة ـ في تنفيذ هذا المشروع الاستراتيجي بالنسبة لهم على تراب فلسطين العربية.

وقد التقت مع الطرفين الأمريكي والإسرائيلي في سعيهما المحموم

لتنفيذ هذا الغرض الكنيسة المسيحية التي تهدف هي الأخرى لنشر ما تعتقد أنه دين المسيح، بين أكبر عدد ممكن من البشر وخاصة في المناطق التي يتواجد فيها الإسلام، أو تلك المرشحة لانتشار الإسلام فيها في المستقبل، خاصة على ضوء فشل مساعيها السابقة في العمل، أو مواجهتها بعراقيل كان أساسها من الذين تشبعت أرواحهم وقلوبهم بالإسلام قبل وصول المسيحية وبعدها.

ويعتبر الحلف الثلاثي المذكور أن أفريقيا، وباعتبارها قارة تتوسط العالم والتي سجل فيها الإسلام ومنذ البدايات الأولى للدعوة الإسلامية انتصارات باهرة نقلته إلى كل مكان فيها تقريباً، وتوطد على أيدي أبنائها في شمالها وشرقها وغربها بشكل خاص، فهي وبحكم ذلك المرشح الأول لتحركهم.

وهذا الهدف ليس جديداً، بل إنه يرجع إلى بدايات القرن وتحديداً إلى عام 1910ف، أثناء ـ مؤتمر أدنبره للإرساليات العالمية ـ حيث أشار أحد القساوسة المشاركين في ذلك المؤتمر بوضوح إلى حقيقة هذا الهدف عندما قال كما جاء في كتاب «جذور الإرساليات التنصيرية في مصر» للدكتور ـ خالد نعيم ـ «إنه إذا نجح التبشير المسيحي في الشرق الأقصى، فستوجد مملكتان للمسيحية إحداهما الكنيسة الكاثوليكية في الغرب، والأخرى مملكة الكنيسة في الشرق، وعندها سيحد من تلاقي المملكتين حاجز مركزي ضخم وغريب ومعاد لهم، وهو الإسلام الذي ينتشر في القسم الأوسط من العالم ويسيطر عليه ويقسم مملكة المسيح إلى نصفين».

ويضيف نفس المصدر «ولذلك، إذا ظفرت المسيحية بأفريقيا فإن أول ما يجب عمله هو إلقاء قوة مسيحية ضخمة في أفريقيا الوسطى لتعوق تقدم الإسلام ولتحمل الإنجيل في اتجاه الشمال».

وتابع «إن الإمر يكمن في التغلب على الإسلام والسيطرة على المناطق التي لم يسيطر عليها بعد، وإن ما يجب الحذر منه هو أن يتمكن الإسلام من السيطرة على هذه المناطق»..

وعلى ضوء هذه الاستراتيجية الثلاثية الأبعاد والأهداف، حدد المخططون للتنفيذ مواقع معينة على خارطة العالم لتكون أهدافاً ـ أولية وأساسية ـ لمسعاهم، وجاءت أفريقيا على رأس تلك القائمة دون منازع تليها قارة آسيا وبالتحديد جنوبها الشرقي، ثم أمريكا الجنوبية وأستراليا في مراحل لاحقة.. ومن هنا.. بدأت مساعي الحلف الثلاثي غير المعلن في التحرك باتجاه أفريقيا تحديداً في محاولة لاستباق الزمن، وفرض واقع نشر المسيحية فيها تحت ستار الجمعيات الخيرية والإنسانية، والمساعدات الطبية، وجمعيات الإغاثة، وهي كلها منظمات وجمعيات تتخفى تحت ردائها المسيحية بشكل أو بآخر، وهدفها الخفي نشر المسيحية بين أبناء القارة السمراء وقطع الطريق على أبنائها قبل وصول الإسلام إليهم.

ومن هنا رأت الجمعيات الصوفية الإسلامية التي أسسها الأجداد قبل قرون عديدة وحافظ عليها الأحفاد بعدهم حتى الآن، وعلى الرغم من إمكانياتها المتواضعة، ضرورة مواجهة هذا الخطر الماحق بوسائل بدائية للغاية ـ للأسف ـ وهي أقل من القليل إذا ما قورنت بالوسائل التي يمتلكها الطرف الآخر والمسخّرة من أجله كافة الإمكانيات ودون حدود.

وقد حدث أني التقيت في عاصمة عربية ـ الخرطوم ـ قبل سنتين تقريباً بعدد من قادة الحركات الصوفية الإسلامية، وخاصة في منطقة وسط أفريقيا الذين سردوا لي بتفاصيل طويلة قلة إمكانياتهم أمام وفرة ما وضعته الكنيسة المسيحية تحت تصرف اتباعها، وكثرة أعدادهم واستعدادهم للعمل لنشر دين الله، مع قلة عدد اتباع الطرف الآخر وعدم قدرتهم على العمل وسط القارة بحكم الظروف المعيشية والطبيعية وغيرها.

وقد التقيت في أثناء تلك الزيارة للقطر العربي الشقيق بشيخ «الطريقة التيجانية» في النيجر ونيجيريا، وهو رجل دمث الأخلاق وعلى درجة عالية من الثقافة والوعي حيث سرد على مسامعي في جلسة طويلة قصة كفاح القائمين

على نشر الدعوة الإسلامية في أفريقيا وما يبذلونه من جهد يفوق الوصف لنشر الإسلام بين أكبر عدد ممكن من أبناء القارة الذين لا زال الملايين منهم على دياناتهم الوثنية السابقة القديمة، في مقابل تسهيلات تستخدم فيها الطائرات لتنقل أعضاء البعثات التبشيرية المسيحية وصكوك مالية بالملايين للصرف منها على تنصير أبناء أفريقيا، إضافة إلى تسهيلات ليس لها حدود في إقامة المستشفيات ودور الرعاية الصحية وملاجيء الأيتام والعجزة وما في حكم هذه المشاريع الإنسانية التي يحتاجها أبناء القارة كطعم يتلقفه الأفارقة المحتاجون دون تردد، وهناك يتم اصطيادهم. . واحداً. . واحداً. . ليتم بالتالي غسل أدمغتهم وتنصيرهم.

وتعمل الكنيسة المسيحية وبجهد لا يعرف الكلل أو التوقف ولو للحظة، من أجل تحقيق هدف محاولة فرض المسيحية على قارة أفريقيا بأكملها، وهي من أجل ذلك وضعت خططاً وبرامج مكثفة يتولى الإشراف والتنفيذ فيها أكثر من ـ 115 ألف ـ مسيحي تحت إشراف مباشر من «مجلس الكنائس الإنجيلية» العاملة في أفريقيا بدعم مباشر من كنيسة روما وغيرها من المنظمات الكنسية المماثلة في أوروبا وأمريكا، وهدفهم هو تنصير القارة بكاملها بحلول عام 2000 افرنجي.

وفي مقابل هذا الجهد الذي تبذله الكنيسة نجد جهوداً متواضعة تبذلها بعض الأقطار العربية والإسلامية هنا وهناك في عمل انفرادي غير منظم، هدفه في أغلب الأحيان الدعاية والترويج مقابل مسجد يقام في هذه المنطقة، وجمعية دينية تقام هناك وتسخّر منذ اليوم الأول لافتتاحها في الدعوة إلى من أقام هذا الصرح أكثر من دعوتها للإسلام ونشر الدين الحنيف بين المحتاجين إليه.

وقد لمست بنفسي أثناء تواجدي بقطر عربي في أقصى الشمال الأفريقي مدى تخبط مثل هذه الجهود الانفرادية وتشتت أعمالها وضياع جهود القائمين

بهذا العمل في أغلب الأحيان بسبب التنافس على الدعوة للسلطان، وليس الدعوة لدين الله، وكان البعض من أبناء دولة أفريقية مجاورة لهذا القطر ممن لا يزالون على بدء درب دخول الدين الإسلامي يضطرون في أغلب الأحيان لمجاراة هذا وذاك في سبيل الحصول على أكبر قدر ممكن من المعرفة والتفقه في الدين.. وقد حكى لي الكثير ممن اضطروا لانتهاج هذا الأسلوب كيفية معاناتهم من هذا الأمر.

أقول.. إن قيام القائد الثائر المسلم معمر القذافي بالاحتفال بأول أيام السنة القمرية الجديدة في النيجر ونيجيريا السنة الماضية وفي شتاء هذا العام، وتقاطر الملايين من أبناء القارة الأفريقية لاحتضانه ممن يتولون بجهدهم المتواضع نشر دين الله في تلك المجاهل البعيدة والوعرة، وهو الحدث الذي لم يسجله أحد من قبل، هو بداية الطريق الصحيح لفرض عمل إسلامي جماعي منظم ومنسق ومبني على أسس علمية سليمة وصحيحة لمواجهة خطر المساعي المحمومة لتنصير القارة السمراء، وهو أيضاً بداية صحوة إسلامية جماعية دشنها القائد معمر القذافي بكل فخر لتكون طريقاً صحيحاً لكيفية ما يجب أن يتم، لمواجهة الخطر المحدق بأمة الإسلام سواء في أفريقيا أو آسيا أو بقية المناطق الأخرى.

«كانو» لم تكن صدفة

في جولة قمت بها في بداية السبعينات رفقة وفد إسلامي إلى الهند وجنوب شرق آسيا، والتي شملت الهند وماليزيا وتايلاند قص علينا الأشقاء في العقيدة في تلك البقاع البعيدة، وتحديداً في ولاية مدراس بجنوب الهند، قصصا أغرب من الخيال عما يقوم به أتباع الكنيسة المسيحية هنا من حملات تنصير لأبناء ذلك الجزء من العالم وكسبهم إلى صف دينهم، مقابل جهود جد متواضعة يقوم بها المسلمون، وجهود متقطعة تتم هنا وهناك بشق الأنفس وضد تيار جارف تدعمه وتقف وراءه حكومات ودول ومنظمات عالمية لها من الإمكانيات والأموال ما يفوق الوصف.

من بين تلك القصص مثلاً.. أن القساوسة المسيحيين القائمين بحملات الدعوة إلى المسيحية هناك، وهم في الغالب من أوروبا وأمريكا يتقاضون مرتبات عالية جداً تصل إلى عشرة آلاف دولار للقسيس الواحد في الشهر، إضافة إلى توفير المسكن والأكل بالمجان وعلى حساب الكنيسة البابوية.

ويقوم أولئك القساوسة بالتنقل بين القرى والمدن النائية وسط غابات تلك المناطق ومجاهلها، لدعوة سكانها إلى المسيحية بواسطة الطائرات المروحية المجهزة والخاصة، وإذا تعذر ركوب الطائرة توضع تحت تصرفهم أفخم أنواع السيارات القادرة على السير في كافة الطرقات والأحوال الجوية

حتى يتمكنوا من الوصول إلى أبعد مدى ممكن حيث إقامة المطلوب في دعوتهم إلى المسيحية.

وتقوم الكنيسة المسيحية إضافة إلى ما سبق، بالتوسع بشكل هائل في فتح المستشفيات ودور الرعاية للعناية بالمرضى والمحتاجين من أهل المنطقة المستهدفة، إضافة إلى فتح المدارس وتسهيل تعليم من يريد الإلتحاق بها أو بالجامعات في المدن الكبيرة، مع القيام بين الحين والآخر بتوزيع الملابس والأغطية على أبناء المناطق الفقيرة كسباً لعطفهم ورضاهم.. وكل ذلك مقابل أن يوقّع متلقي هذه الخدمات بأنه قبل الدخول في صفوف الكنيسة المسيحية وأن يحضر الدروس الخاصة التي تلقى بواسطة قساوسة متخصصين أيام الآحاد.

ويقوم القساوسة أيضاً بالاتصال بالمسؤولين في تلك الدول، الذين هم على دينهم لتسهيل مهمتهم في التنقل والإقامة والعمل بحرية مطلقة مقابل رواتب شهرية تدفع نقداً وتسهيلات أخرى.. وفي مقابل كل هذا يقوم أولئك المسؤولون في الدول التي يعمل بها القساوسة إضافة إلى ما سبق بتوفير الحماية والأمن للقائمين بالدعوة للمسيحية.

وعلى الجانب الآخر.. لا تتوفر لاتباع الديانة الإسلامية سوى بعض الهبات البسيطة التي «تتصدق» بها دول عربية وإسلامية بين الحين والآخر، لا تكفي حتى للعناية بالمساجد المقامة والمبنية غالبيتها بجهد ذاتي من السكان المحليين، فما بالك بعملية التوسع فيها، أو الإكثار منها، إضافة إلى هبات تأتي بين الحين والآخر من كتب القرآن الكريم وبعض كتب التفسير.. مع كميات ضخمة من كتب الدعاية.

يومها كانت قضية شعب فطاني المسلم في تايلاند تتصدر واجهة الأحداث في تلك المنطقة، وكان جهاد أبنائها لفرض دينهم يواجه بالحديد والنار من قبل أتباع الديانة المسيحية وحماتهم في البلاد، والتي ـ للأسف ـ يبدو أنها انتصرت في نهاية المطاف وحققت أغراضها على حساب المسلمين

والإسلام، لأن أحداً لم يعد يسمع بقضية شعب فطاني منذ أكثر من عقد من الزمن على الأقل. .

وفي تلك الفترة قامت صحيفة ـ الجهاد ـ التي كان يرأس تحريرها صديقنا طيب الذكر ـ الأستاذ سالم والي ـ بإرسال ـ الدكتور حالياً ـ محمد أحمد وريث إلى تلك المجاهل لمعايشة أحداث قضية شعب فطاني، وفعلاً تمكن الزميل وريث من الوصول إلى هدفه وعاش بين أهل فطاني فترة من الزمن عاد بعدها بحصيلة وافرة من المعلومات والحقائق سجلها جميعاً في كتاب قيم شرح فيه قضية شعب فطاني وما يعانيه من اضطهاد وجور يفوق الوصف في سبيل نشر دعوة الإسلام والتصدي للحملات التبشيرية المسيحية هناك.

أقول. . إن ما ساقني لسرد هذه الذكريات هو ما ألهبه فينا وفي كافة مسلمي العالم خطاب القائد المسلم الثائر معمر القذافي في كانو بنيجيريا من حماس وأمل في أن تجد أمتنا الإسلامية وأبناؤها مواقع لأقدامهم في هذا العالم الذي تحاول الكنيسة وبدعم أوروبي كامل السيطرة عليه لصالحها ولصالح تنفيذ المخططات الاستعمارية الامبريالية التي تريد الهيمنة على شعوب الأرض لخدمة أغراضها ودسائسها.

إن جهداً عظيماً بحق يجب أن يبذل على مستوى عالمنا العربي والإسلامي معاً إذا أردنا فعلاً وبحق أن نحقق الرؤية الصادقة التي تحدث عنها القائد المسلم معمر القذافي في النيجر ونيجيريا، وتشاد وهو جهد يجب أن يكون موحداً هدفه خدمة الإسلام والمسلمين لقطع الطريق عن مساعي المسيحيين لتنصير العالم كله ـ إن استطاعوا ـ.

لقد حدد القائد معمر القذافي في ـ كانو ـ بنيجيريا والتي لا شك أن اختياره لها لم يكن وليد صدفة، على اعتبار مكانتها ودورها الريادي في السابق في التبشير بالإسلام وسط أفريقيا. . حدد أبعاد المخطط المعادي، ورسم بفكره الثاقب ورؤيته البعيدة والشاملة حقيقة ما يجب أن تكون عليه الأمة

الإسلامية العظيمة التي تتوفر لها القوة المادية والروحية معاً لتكون سيدة العالم وفقاً لمنهج القرآن الكريم دين الله وخاتم رسالات السماء.

ويجب أن نضع في اعتبارنا وقبل أن نبدأ التحرك لتحقيق هذا الهدف، أن الموقع الذي لا تتواجد فيه أقدام المسلمين ستتواجد فيه حتماً أقدام النصارى.. والجهد الذي قد نتراخى في بذله في هذا الموقع أو ذاك سيكون مرتعاً للنصارى ومن في حكمهم بطبيعة الحال.. وأن نعي جيداً أن هدف الكنيسة إضافة إلى محاولة تنصير العالم، هو فرض الوصاية على أمة محمد ﷺ أينما كانت وأينما تواجدت - إن استطاعوا - وهو هدف لو تم تحقيقه «لا قدر الله» فإنه سيخدم حتماً وفي نهاية المطاف هدف الصهيونية العالمية التي تتخفى وراء كل الجهد التنصيري بعد أن استطاعت بواسطة أعوانها على مدى القرون الماضية تحريف ما جاء به عيسى ابن مريم عليه السلام ووظفته لخدمة أهدافها الشيطانية البعيدة في السيطرة على العالم كله.

الاحتلال.. بقرار من البابا

والآن. .

وكما استعرضنا جهود أجدادنا في نشر رسالة الإسلام. . كان لا بد أن نستعرض ولو بشكل موجز جهود المسيحيين ومحاولاتهم المستميتة لنشر ما يعتقدون أنه دينهم في بعض مناطق أفريقيا. . وذلك لاستكمال الصورة. . وحتى نكون على بيِّنة مما يخطط للإسلام وللأفارقة معاً. .

بعد مرور 23 عاماً من صدور قرار البابا نيكولا الحاسم عام 1454ف والذي أباح فيه حق البرتغاليين في احتلال كل الأراضي التي يمكن بلوغها على طول سواحل غرب أفريقيا، وهي فترة كانت كافية للرحالة الجغرافيين لوضع تقاريرهم وخرائطهم على المواقع المستهدفة بالاحتلال أولاً ثم نشر المسيحية فيها فيما بعد.

بعد هذه الفترة وفي العام 1481ف أمر ملك البرتغال بتسيير عشرة سفن كانت تقل أكثر من 500 جندي وعدداً كبيراً من القساوسة المسيحيين إلى المناطق الساحلية الواقعة على سواحل غرب أفريقيا، وخاصة على سواحل السنغال وحتى الكونغو، وفي تلك المناطق وبواسطة الأموال المتدفقة عليهم من الكنيسة البابوية، تمكن أولئك القساوسة على مدى قرنين من الزمن من تنصير العديد من الملوك والسلاطين الأفارقة على طول ذلك الخط الساحلي

الأفريقي، وفي هذه الفترة أيضاً بدأ البرتغاليون في اكتشاف ما يمكن أن تدره عليهم تجارة الرقيق من أموال هائلة بعد اكتشاف الأراضي الجديدة في أمريكا وحاجتها إلى الأيدي العاملة لتعميرها.. وهكذا تحول جنود وقساوسة البرتغال إلى التجارة الجديدة وتركوا عملية الدعوة إلى دينهم لفترة مؤقتة.

وفي هذه الفترة أيضاً ولانكشاف حقيقة القساوسة المسيحيين بعد تحولهم إلى المتاجرة في «العبيد» والمساهمة في شحنهم إلى الأراضي الجديدة، أو على الأقل التبليغ عن أماكن تواجدهم ليسهل على صائدي «العبيد» الأوروبيين سرعة القبض عليهم وشحنهم في السفن عبر المحيط، فإن أحداً لم يعد يستمع إليهم أو يصدق ما يتحدثون عنه عن المساواة والعدالة والتسامح.. إلى آخر ما كان يدّعي القساوسة المسيحيون الدعوة إليه وهكذا.. وعلى مدى قرن بكامله خمدت أنفاس القساوسة المسيحيين في غرب أفريقيا وحدّت حركتهم بشكل كامل تقريباً ولم يعد أحد يتحدث عنهم أو إليهم، وخلال هذه الفترة الطويلة شحن الأوروبيون، تجاراً، وقساوسة، الملايين من أبناء أفريقيا في أبشع عملية استرقاق للبشر تمت على مدى التاريخ كله، لدرجة أن الأراضي الجديدة في الأمريكيتين امتلأت ولم تعد في حاجة للمزيد.. وهو أمر أدى بالحكومات التي كانت تقف وراء تلك التجارة إلى سن قرارات ـ حرَّمت ـ تجارة العبيد، وبدأت سفن التجار تعود بهم إلى أفريقيا مرة ثانية..

ولأن كل خطواتهم لنشر المسيحية في أفريقيا قد باءت بالفشل تفتق ذهن الأوروبيين الاستعماري المسيحي على فكرة إنشاء دولتين على الساحل الغربي لأفريقيا وهما سيراليون وليبيريا، لتكونا مكاناً لإطلاق حرية العبيد فيهما، وهم العبيد الذين قيل أنهم أعيدوا من أميركا وإنكلترا بعد أن حرَّمت هذه التجارة في تلك البلدان، والحقيقة التي يعترف بها الأوروبيون أنفسهم هي أن الأرض الجديدة في أمريكا قد امتلأت بالعبيد وبالتالي فإن الحاجة لم تعد قائمة للمزيد منهم، ومن هنا خرج الأوروبيون بفكرة تحريم تجارة العبيد.. ليس حباً في

«العبيد» أو رأفة بحالهم وهم الذين قتلوا منهم الملايين أثناء عمليات النقل عبر المحيط الأطلسي باتجاه الغرب وبسبب الأمراض والأوبئة الخ. . ولكن لحاجة الكنيسة المسيحية لأشخاص من داخل القارة نفسها ليكونوا حاملي راية الصليب.

بعد هذه الفترة وبعد الانتهاء من إنشاء المستعمرتين الجديدتين في سيراليون وليبيريا وفي السنوات التي أعقبت العام 1800ف تدفقت على دور غرب أفريقيا عشرات الجمعيات والارساليات التنصيرية من أوروبا وأمريكا، التي رأت في فكرة إنشاء المستعمرتين في سيراليون وليبيريا فرصة ذهبية أمام الكنيسة للعودة منهما إلى دول القارة مرة أخرى لنشر المسيحية فيها. . ومعهم الدليل هذه المرة على نبذهم للعبودية واسترقاق الغير من خلال العبيد الذين كانوا يلقون القبض عليهم من الدول المجاورة ثم يتم الإعلان عن تحريرهم في الدولتين السابقتين على اعتبار أن أوروبا قد حرَّمت تجارة الرقيق، بل أنها أصبحت تحارب من يقوم بهذه التجارة.

وهكذا مرت قرابة 85 عاماً شهدت فيها أفريقيا تواصل تدفق الارساليات الكنيسية على أفريقيا إلى أن جاء العام 1885ف وهي السنة التي عقد فيها ما يسمى بمؤتمر برلين بين الدول التي أرادت من خلاله تقنين استعمارها وتنظيم عملية الاستيلاء على مقدرات وحقوق بقية شعوب العالم وخاصة في القارة الأفريقية. . وهكذا تم في هذا المؤتمر الإعلان رسمياً عن «سيطرة الحكومات الاستعمارية الفعلية على جميع الدول الأفريقية».

وانطلاقاً من هذا المؤتمر بدأت جيوش المسيحية الأوروبية في انتهاج طريقها الواضح والمعلن بشكل رسمي في استعمار شعوب أفريقيا من جهة، وتنصير وإدخال سكانها في المسيحية من جهة أخرى، وكان القساوسة والرهبان المسيحيون ينطلقون في عملهم هذا تحت حماية بنادق جيوش الاحتلال.

ولإدخال فكرة العدالة والتسامح والمحبة في عقول الشعوب المراد تنصيرها، تم إنشاء العديد من المستشفيات والمستوصفات الطبية والمدارس التعليمية التي اتخذت كوسائل رئيسية وهامة لدى القائمين بعملية التنصير من أجل الوصول إلى عقول متلقي تلك الخدمات الإنسانية، وبالتالي السيطرة عليهم من خلال حاجتهم الماسة لها ولإدخالهم رسمياً في الديانة المسيحية.

وسرعان ما تمكن القساوسة والرهبان البيض بعد تثبيت أقدامهم في العديد من أجزاء غرب القارة الأفريقية من تخريج العديد من القساوسة والرهبان من أبناء المنطقة نفسها ليكونوا رسل الدعوة للديانة المسيحية، وحتى يكون تأثيرهم على الأهالي أكثر اندفاعاً وشمولية.

وعلى الرغم من الادعاءات الكاذبة عن جعل سيراليون وليبيريا كمواقع لإعادة الحرية للعبيد المدعى إعادتهم من إنكلترا وأمريكا، إلا أن الغربيين أنفسهم أكدوا في كتاباتهم «أن الهدف كان جعل سيراليون وليبيريا مراكز إشعاع في مكان مظلم، ومن هناك كان الهدف نشر الدين المسيحي والحضارة المسيحية في ربوع القارة بكاملها في نهاية المطاف» وهو هدف بالطبع وكما أثبتت الوقائع فيما بعد لم يكن حقيقة، بل كان يخفي خلفه نوايا استعمارية واضحة لاحتلال القارة والسيطرة على ثرواتها لصالح البيض فقط، إضافة إلى جعل الموقعين السابقين مكاناً لإنطلاق ونشر الديانة المسيحية بشكل منظم ومبرمج وبدعم لا محدود من الكنائس الأوروبية والأمريكية، للإنطلاق إلى وسط القارة وجنوبها في مراحل لاحقة لتنصير أهلها والوقوف في وجه المد الإسلامي الذي كان نوره يواصل إشعاعه بهدوء وبطء، وبخطوات ثابتة وراسخة.

فرض لغتهم

رأينا في الصفحات السابقة كيف كانت تتم عملية محاولات تنصير القارة الأفريقية وبخاصة في الجزء الغربي منها، من خلال تكوين مستعمرتي ليبيريا وسيراليون: حيث بدأت الارساليات المسيحية تعمل من هناك في محاولة لوقف المد الإسلامي المنطلق من الدول المعروفة الآن بدول الساحل جنوب الصحراء الكبرى حيث امتد الإسلام المنطلق من شمال القارة إلى تلك المجاهل وانتشر في قراها ومدنها سلماً، بعد اقتناع السكان به على ضوء ما حمله لهم هذا الدين من عدل ومساواة وعزة وكرامة احترمت آدميتهم وإنسانيتهم وعاملتهم أسوة بمن حمل إليهم الدين أنفسهم من عرب، كانوا يتنقلون بينهم عن طريق التجارة بصفة أساسية.

وعلى الرغم من الجهود المحمومة التي بذلتها الكنسية المسيحية وبعض الدول الأوروبية في محاولاتها لتنصير هذا الجزء من القارة السمراء، على اعتبار أنه في حالة النجاح في عملية تنصير أهله، سيتم وقف تدفق الإسلام إلى باقي أنحاء القارة، وبالتالي خلو الساحة أمام المد المسيحي فيها، إلا أن تلك الجهود وكما رأينا في الصفحات السابقة قد باءت بالفشل الذريع، أولاً بسبب عزوف السكان عن اتباع الديانة الجديدة، ثم بسبب الهفوة الهائلة والخطيرة التي اقترفها القساوسة والرهبان الذين بعثت بهم الكنسية الباباوية من أجل عملية التنصير،

وتحول أولئك إلى المشاركة في أقذر عملية شهدها العالم، وهي عملية اصطياد وترحيل ملايين المواطنين الأفارقة غصباً وقهراً عنهم لتعمير الأراضي الجديدة في أمريكا وفرض العبودية والقهر عليهم بحد السيف.

وقبل انتهاء القرن الثامن عشر قامت العديد من الدول الأوروبية بإرسال العشرات من الإرساليات التنصيرية إلى منطقة وسط وغرب أفريقيا، وبالذات إلى سيراليون وليبيريا على ساحل المحيط الأطلسي، ومنها للإنطلاق إلى بقية المناطق الأفريقية الأخرى المجاورة.

غير أن شيئاً غريباً حدث خلال هذه الفترة، إذ واجهت تلك الحملات التنصيرية عمليات فشل أخرى ذريعة مني بها من أرسلهم بسبب أمراض فتكت بهم أثناء تنقلاتهم داخل القارة، بينما استهوت الأرباح الهائلة التي كانت تدرها تجارة العبيد البقية الباقية ـ كما قلنا في الصفحات الماضية ـ فتركوا واجباتهم وأعمالهم المكلفين بها أصلاً واتجهوا للإتجار في ـ العبيد ـ.

ولم ييأس قادة المسيحية في روما ولشبونة من إمكانية نجاح مساعيهم لتنصير القارة السمراء، وهكذا تواصل إرسال الإرساليات التنصيرية تباعاً، وفي هذه الفترة تمكن قس يدعي «وليام جونسون» من العبيد المحررين في سيراليون من تنصير قبائل أفريقية بكاملها في تلك المنطقة، ولأن هذه القبائل كانت لغاتها متباينة ومختلفة فإن هذا القس اقترح عليها التحدث بلغة مشتركة ليسهل على أتباعه مخاطبتهم بها والتحدث إليهم من خلالها، وهكذا فرض عليهم التحدث بالإنكليزية التي عمم استعمالها من خلال المدارس التي أقامها في سيراليون. . ولم يكتف هذا القس بذلك بل إنه فرض على أفراد القبائل التي قبلت التنصير تغيير أسماء أفرادها الأفريقية إلى أسماء إنكليزية وأوروبية، فإن مساعدات هائلة أُرسلت إليه على وجه السرعة للاستمرار في عمله والتوسع فيه، وهكذا تسارعت وتيرة إنشاء الكنائس المسيحية في كل مكان من سيراليون، كما توسع أثناء ذلك في إنشاء دور الرعاية والتعليم والصحة،

وقامت الكنائس والمدارس والمعاهد المسيحية بتخريج الأفارقة المنصَّرين والدفع بهم إلى بقية أنحاء المناطق المجاورة للعمل على تنصير أهلها ومواصلة نشر المسيحية بينهم على أوسع نطاق ممكن.

وهذا القس هو أول من قام بإنشاء أول معهد في سيراليون وغرب أفريقيا خصص لتخريج أفواج من الأفارقة الذين قيل أنهم «حُرِّروا» من العبودية والدفع بهم فيما بعد إلى باقي أنحاء القارة، وكان ذلك في العام 1814ف.

وبالفعل سرعان ما خرّج هذا المعهد التنصيري عشرات الأفارقة المنصَّرين وقام بالدفع بهم إلى أواسط أفريقيا وغربها للدعاية للديانة النصرانية والترويج لها، خاصة وأن الكنيسة البابوية في روما اقتنعت أخيراً بعد الأمراض والأوبئة التي فتكت بإرسالياتها الأوروبية السابقة، إضافة إلى الصعوبات التي كان يواجهها القساوسة والرهبان المرسلون من أوروبا بسبب الطقس والمناخ، اقتنعت بأن خير من يقوم بمهام مثل هذه هم أبناء القارة أنفسهم، بعد إجراء عمليات غسل الدماغ والعقل اللازمة داخل الكنائس.

الغريب في قصة المعهد المقام في سيراليون أن أول من سجل اسمه فيه كان شخصاً اسمه «صموائيل اجاي كروذر» وهو طالب نيجيري الأصل من قبيلة ـ أكو ـ النيجيرية الجنوبية.. وهو نفسه الذي قام فيما بعد بنقل المسيحية إلى نيجيريا كما سنرى ذلك في الصفحات التالية.

أول إرسالية مسيحية

في العام 1814ف كانت إحدى سفن شحن العبيد من أفريقيا إلى الأراضي الجديدة في أمريكا مشحونة عن آخرها بالعبيد الذين تم اصطيادهم من أفريقيا، وكانوا في طريقهم إلى كوبا بالتحديد حيث كان سيتم بيعهم هناك لمن احتل تلك الأراضي من المستعمرين البيض الأوروبيين الذين استولوا عليها من أصحابها الشرعيين، بعد أن أبادوهم عن آخرهم تقريباً في أبشع عملية تقتيل جماعية تتم ضد البشر عرفتها البشرية على مدى تاريخها كله وحتى الآن.

وفي عرض البحر وأمام سواحل كوبا.. تمكن بعض العبيد المقيَّدين بالسلاسل والأغلال في تلك السفينة البرتغالية من فك قيودهم.. وعندما أصبح عددهم كافياً فوق ظهر السفينة، تذكر بعض المصادر أنهم قاموا بالاستيلاء عليها والسيطرة على طاقمها وقتل أغلبهم، وأرغموا ربّانها على تحويل وجهة السفينة وعادوا بها إلى أفريقيا بعد أن تزودوا بالمؤونة لرحلة العودة من على سواحل أمريكا الشمالية، وعاد معهم على نفس السفينة بعض القساوسة المسيحيين المتطوعين قامت بإرسالهم الكنيسة الأمريكية، وكانت تلك أول إرسالية أمريكية مسيحية تصل القارة الإفريقية عن طريق تلك السفينة.

بعد ذلك تواصلت الإرساليات الأمريكية في الوصول إلى سيراليون

وليبيريا، فقامت إضافة إلى عملها الأساسي في نشر النصرانية، بالتوسع في إنشاء المدارس والمعاهد التنصيرية والمدارس الخاصة بتعليم اللغة الإنكليزية في المناطق التي تواجدوا بها، إضافة إلى تعليم السكان المنتمين إليها بعض أنواع الحرف اليدوية.

وكان أول هدف قامت بالعمل على تحقيقه الإرساليات التنصيرية الأوروبية والأمريكية على السواء في سيراليون وليبيريا باعتبارهما مراكز أولية وهامة في نشر المسيحية في أفريقيا، هو التوسع في إنشاء المدارس والمعاهد التنصيرية الخاصة بتخريج القساوسة والرهبان من «العبيد المحررين» فقط كما كانوا يطلقون عليهم زوراً. وهكذا اقتصر تقديم علوم هذه المدارس على الفئة التي قيل إنه تم تحريرها وإلغاء العبودية عنها دون بقية سكان الدواخل وبقية السكان غير المنضوين تحت لواء المسيحية.

وعلى الرغم من تعثر عمل هذه الإرساليات في بداية الأمر، إلا أنها سرعان ما وجدت ترحيباً لدى السكان، من العبيد المحررين بصفة خاصة، والذين كانت أعدادهم تتزايد باستمرار نتيجة عمليات الإعادة من أمريكا التي كانت تتم بعد أن امتلأت الأرض الجديدة بهم، وكانت جهود القائمين بالتعليم منصبّة بالأساس على هدف آخر خفي هو تهيئة إداريين أفارقة يمكن الاعتماد عليهم في المستقبل في تسيير شؤون الناس بدلاً من أبناء البلاد الأصليين، الذين كان الهدف الأبعد هو اقصاؤهم عن تلك المراكز الإدارية وبخاصة من اعتنق الإسلام منهم.

ومن هنا. . ونتيجة للجهود الهائلة والأموال الطائلة التي أنفقت على هذين الهدفين حققت الكنيسة المسيحية بمختلف اتجاهاتها في سيراليون الهدف الأول من عملها، وهو التكوين النفسي والعلمي للأفارقة المختارين ليكونوا نواة الحركة المسيحية في غرب أفريقيا، ولذلك كانت انكلترا بصفة خاصة تعتمد اعتماداً كبيراً على المتخرجين من تلك المدارس والمعاهد

التنصيرية المقامة في سيراليون لتطعيم إدارتها الناشئة في غرب أفريقيا ووسطها، وخاصة منهم فئة الموظفين والأطباء والقضاة والقائمين بتنظيم الخدمات العامة بين السكان، إضافة إلى فئة التجار والحرفيين الذين اعتمدت عليهم الحركة التنصيرية.. والاستعمارية فيما بعد.. في نقل التجارة الأوروبية إلى الدواخل لقطع طرق التجارة التي كان يمارسها العرب القادمون من الشمال، والذين بواسطتهم انتقل الإسلام إلى تلك المجاهل البعيدة وسط القارة وغربها كما رأينا من قبل.

وعلى الرغم من كل هذه الجهود التي بذلتها الكنيسة المسيحية واتباعها، وعلى الرغم من الجهود التي قام بها القائمون بعملية التنصير والتي خيّل لأولئك أنهم تمكنوا من خلالها من بسط سيطرتهم ونفوذهم في المناطق التي استهدفوها، وخاصة في سيراليون وليبيريا.. إلا أن نكسة أخرى حاقت بالجميع مرة ثانية وخاصة الذين توهموا أنهم نجحوا في مسعى تنصير الأفارقة في تلك المناطق.

وهي نكسة لم يكن أحد يتوقعها ولا عمل لها حساباً.. لا من قبل رجال الكنيسة ولا من قبل مخططي عملية التنصير في أوروبا وأمريكا.. ولا من قبل الأفارقة الملتحقين بهذا الدين أنفسهم.. هذه النكسة تمثلت في أن الأفارقة الذين تنصّروا وتعلموا النصرانية في مدارس المسيحيين وتلقوا تعليمهم في معاهدهم قد تعالوا واستكبروا على أهلهم وبني جلدتهم وكانوا لا يتعاملون حتى مع أبائهم وأمهاتهم والأقربين إليهم، إلا من خلال الاستعلاء والتكبر، ومن هنا نفر منهم أهلهم ومجتمعهم وابتعد عنهم وعن مساعيهم الهادفة لتنصير من لم يتنصر بعد.. بل إن الأفارقة من أصحاب النفوذ في تلك المناطق امتنعوا عن إرسال أطفالهم لمدارس المسيحيين خوفاً من أن يتعالى عليهم أولئك الأبناء فيما بعد.

وهكذا ابتعد الجميع عن هذه الفئة من المنصرِّين الأفارقة، ولم يعد أحد

يستمع إلى مواعظهم وأحاديثهم الدينية ولا إلى كلامهم عن التسامح والعدل والرأفة. . وهم يطبقون غير ما يعلنون ويفعلون.

لقد كانت تلك ـ وبحق ـ نكسة لم يكن أحد قد وضع لها حساباً ولا توقع حدوثها ولا وضع خططاً لمواجهتها. . وهي عندما حدثت كانت بمثابة الكارثة بالنسبة لمطامع وآمال القائمين بعملية التنصير في أوروبا.

خليط من الديانات في الأسرة الواحدة

قلنا إن هدف المسيحيين كان ومنذ البداية هو تكوين أطر وكوادر وطنية من الأفارقة أنفسهم ليكونوا لها عوناً في نشر المسيحية في المراحل اللاحقة بين أبناء القارة السمراء، ثم ليكونوا أداة طيعة في أيدي الذين سيتولون في مراحل لاحقة تنفيذ الاحتلال العسكري الأوروبي وفرض الوصاية على دول القارة بكاملها. . وقلنا أن شيئاً غريباً حدث في تلك الفترة لم يكن أحد يتوقعه أو وضع حساباً له، ذلك أن الذين تم تنصيرهم واختيروا ليكونوا أداة طيعة في يد المستعمرين ورجال الكنيسة من الأوروبيين، تعالوا وتكبروا على قومهم من الوطنيين وأصبحوا لا يجلسون في مجالسهم ولا يأكلون من طعامهم ولا يشاركونهم في أفراحهم وملماتهم الخ. . وكان هذا سبباً رئيسياً في بغض وكره الأهالي لهم بالدرجة الأولى، وكره المدارس التي تخرجوا منها، وبالتالي امتنع الوطنيون من أبناء البلاد الأصليين عن الدفع بأبنائهم للتعلم في هذه المدارس أو المعاهد المسيحية، حتى لا يخرج أبناؤهم متكبرين متعالين عليهم وعلى أهلهم وقبيلتهم، مستنكرين عاداتهم وتقاليدهم الشعبية الراسخة في تراثهم على مدى قرون بكاملها.

وهكذا هجر الوطنيون من سكان سيراليون هذه المدارس والمعاهد، ولم يعد أحد يبعث بأبنائه للتعلم فيها وهو أمر استمر عدة سنين، ولم يتبقّ في

صفوف الدراسة فيها سوى بعض الذين قيل أنهم حُرِّروا من العبودية في أمريكا وإنكلترا وتمت إعادتهم إلى سيراليون وليبيريا تحديداً حيث مراكز التنصير، والذين كانوا بحق وخصوصاً الأجيال الأولى منهم عوناً حقيقياً للاستعمار الأوروبي عندما قرر القدوم بعدته وعتاده لاحتلال أفريقيا بعد مؤتمر برلين عام 1885ف.

وبعد هذه الفترة من النفور الذي أبداه الوطنيون تجاه المدارس المسيحية والتي لم تستمر طويلاً بسبب الحاجة، قام الأفراد الأوائل من جيل العبيد المحررين في سيراليون بفرض الديانة المسيحية على كل من يريد أو يرغب في التعلم في مدارس الكنائس المسيحية أو يستفيد من خدماتها، واستطاعوا بهذه الوسيلة تنصير الآلاف من الأفارقة سواء منهم من كان من أصيلي سيراليون أو أولئك القادمين إليها بحكم التجارة والتنقل من المناطق المجاورة، ومن بين أولئك الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة الأمر الواقع، كان المسلمون الذين اضطروا في غياب المدارس الخاصة بهم لإلحاق أبنائهم بالمدارس الكنسية حيث كان يفرض عليهم هناك تلقي الدروس المسيحية وتعاليم الديانة المسيحية، مما أوجد فيما بعد خليطاً من الديانات المختلفة داخل الأسرة الواحدة، وكانت أشد القبائل الأفريقية تأثراً بهذا الأمر قبائل ـ المندي ـ و ـ التمني ـ في سيراليون والتي كان أرباب الأسر فيها على ديانة الإسلام منذ قرون عديدة بينما خرج أبناؤهم على ديانة المسيحيين، وهو أمر ترتب عليه فيما بعد أن انقرض الأباء والأجداد المسلمون الأوائل، وأصبحت الأسرة بكاملها مكونة من المسيحيين.

لقد نجح المستعمرون الأوروبيون في اتخاذ سيراليون بالكذبة التي ألفوها وصدقها الأفارقة، من جعلها «قاعدة لتحرير العبيد» المعادين من الأراضي الجديدة في أمريكا ونجحوا في جعلها مركزاً لتنصير وتغريب أجزاء كبيرة من غرب أفريقيا بكاملها، وهو هدف مكّن المسيحيين فيما بعد من الإنطلاق من

هذه القاعدة المتقدمة بالنسبة إليهم إلى الدول والمناطق الأفريقية المجاورة لسيراليون مثل غامبيا وغانا وجنوب نيجيريا وأجزاء من السنغال، وحتى كينيا في الشرق مروراً بجنوب السودان وأوغندا الخ. . حيث كان المتخرجون من مدارس المنصِّرين المسيحيين كلفوا أساساً بنقل الديانة المسيحية إلى هذه الدول والمناطق والتوغل بديانتهم إلى داخل المناطق الأفريقية الأبعد عن خط الاستواء وما بعده حيث القبائل الأفريقية الوثنية.

وقد حققت الكنيسة وفي خط متوازٍ مع خط التنصير هدفاً آخر من خلال التوسع في مد النفوذ التنصيري داخل المنطقة، وهو هدف السيطرة على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خلال من قامت بتنصيرهم من أبناء القارة نفسها، ليتم التمهيد بهدوء لمراحل لاحقة لا بد أنها كانت مرسومة ومعدة قبل ذلك بحقب طويلة للسيطرة على القارة السمراء وثرواتها، وتسخير ما فيها بما في ذلك البشر أنفسهم لصالح المستعمرين الأوروبيين، وهو هدف تحقق فيما بعد، وفيه سيطر الأوروبيون على كل دول القارة وتقاسموا في مؤتمر برلين عام 1885ف مناطق النفوذ فيها وهو أمر استمر حتى إلى ما بعد منتصف القرن الحالي.

وإضافة إلى هذه الأهداف المتعددة التي استطاعت من خلالها الكنيسة المسيحية الوصول إلى قلب القارة السمراء عن طريق قاعدتها وأطرها المتقدمة في سيراليون وليبيريا فيما بعد تمكنت الكنيسة والدوائر الغربية المساندة لها وعن طريق ما يسمى بالمكتشفين الجغرافيين الأوروبيين الأوائل، من رسم كل معالم القارة وقراها وبواديها وطرق القوافل فيها وما تحويه من ثروات وأماكن تواجدها، بحيث أن أولئك الجغرافيون تمكنوا وفي زمن قياسي من رسم كل ما يخطر، وما لا يخطر على بال، من معالم وطرق ومنافذ مكّنت جيوش المحتلين الأوروبيين فيما بعد من بلوغ أهدافها بسهولة ويسر عندما زحفت لفرض الاحتلال العسكري الرسمي على القارة.

المسيحية في بلاد ـ يوربا ـ

أشرنا في صفحة سابقة إلى أن أول مواطن من نيجيريا والتي كانت تعرف باسم «بلاد يوربا» دخل المعهد المسيحي الذي أقامته الكنيسة في سيراليون عام 1814ف والذي كان أول لبنة حقيقية لإدخال التعليم المسيحي إلى تلك الدولة أولاً، ثم التوسع فيما بعد إلى غرب أفريقيا بكامله، ذلك المواطن النيجيري كان «صمويل أجاي كروذر».

وكان هذا الرجل من العبيد الذين حرروا من السفن الأوروبية التي كانت تقله مع عدد كبير من أبناء قبيلته إلى الأراضي الجديدة في أمريكا، وعندما وصلت السفينة الناقلة لهم إلى الأراضي الجديدة في أمريكا مع المئات من بني جلدته، اتضح لهم هناك أن ملاك الأرض من الأوروبيين لم يعودوا في حاجة إلى المزيد من العبيد بعد أن امتلأت بهم تلك الأراضي بسبب الملايين من الأفارقة الذين نقلوا عبر المحيط الأطلسي في أوقات سابقة..

وهكذا أعيدت السفينة بشحنتها كاملة إلى سيراليون التي اتخذتها الكنيسة كقاعدة يتم فيها الترويج «لسماحة المسيحية» و«رأفتها بالعباد» من جهة، ويتم فيها ثانياً تنصير من يعاد إليها من الأفارقة ليكونوا عوناً لها في نشر الديانة المسيحية بين بقية أبناء القارة فيما بعد.. ثم وكهدف تالٍ اتخاذهم مخالب متقدمة للاستعمار الغربي العسكري الذي عم القارة الأفريقية فيما بعد.

و. . صمويل. . هذا يقال أنه أسر من بين قبيلته أثناء معركة كانت تخوضها القبيلة مع قبيلة أخرى مجاورة على مناطق الرعي والماء، وهو في الخامسة عشر من عمره عام 1822ف بواسطة تجار العبيد، وبعد تعرضه لعمليات بيع وشراء عديدة على أيدي العديد من التجار المهتمين بهذه المهنة، انتهى به المطاف في أيدي التجار البرتغاليين الذين قاموا بشحنه مع عدد كبير من أبناء قبيلته وقبائل أفريقية أخرى إلى الأرض الجديدة الواقعة فيما وراء المحيط الأطلسي. .

وعندما أعيدت الشحنة الناقلة لأولئك العبيد إلى السواحل الأفريقية وإلى سيراليون تحديداً، تم هناك الإدعاء من قبل الأوروبيين بأنه قد تم تحريرهم من رق العبودية وأنهم في هذا الموقع أصبحوا أحراراً في حياتهم. . ولم يكن ذلك في حقيقة الأمر حباً في الأفارقة السود، ولا لأن قانون تحريم الرق الصادر في أوروبا قد تم احترامه في تلك الفترة، وبعد الملايين من الأفارقة الذين تم شحنهم إلى الأراضي الجديدة في أمريكا، الذين مات الملايين منهم أثناء عملية النقل، بل لأن الأرض الجديدة في أمريكا لم تعد أصلاً في حاجة إلى المزيد من الخدم لزراعتها.

وفي سيراليون اعتنت الكنيسة بتعليم هذا الرجل النيجيري الأصل باعتباره أول شخص من قبائل ـ اليوربا ـ يصل إلى تلك المنطقة، كما أن الصفات التي كان يتحلى بها من الذكاء والفطنة أهَّلته لأن تهتم به الكنيسة بشكل أكبر، وهو أمر أهَّله فيما بعد، وبعد سنوات قضاها في تعلم أساليب التنصير في الكلية المسيحية في سيراليون لأن ترسله تلك الكلية إلى لندن لمواصلة دراسته العليا في علوم «اللاَّهوت» وطرق عمل الارساليات المسيحية وكيفية نشرها بين الناس، عاد بعدها إلى سيراليون، ثم أرسل على رأس أول حملة تنصيرية منظمة إلى نيجيريا عام 1841ف وهي الحملة المعروفة باسم ـ حملة نيجيريا ـ والتي كان هدفها الرئيسي إنشاء قاعدة تنصيرية في نيجيريا والتي «صرفت عليها

الحكومة الإنكليزية 100 ألف جنيه «استرليني» وهو مبلغ هائل في ذلك الوقت وشارك فيها 150 أوروبياً «وبعض الأفارقة» المحررين من سيراليون.

ولأن الرجل من أبناء القارة.. ولأن الكنيسة لم تختره اعتباطاً.. فإنه اقترح على القائمين بشؤون نشر التنصير في روما ولندن ضرورة العمل على كتابة لغة القبيلة التي ينتمي إليها بالحروف اللاتينية وهي التي كانت تكتب حتى ذلك الوقت بالحرف العربي.

وبالفعل وبمساعدة القساوسة البيض تُرجم «الإنجيل» بهذه اللغة ليكون في متناول أهل نيجيريا بكاملهم.. وهو بهذا العمل «استطاع القضاء على الحروف العربية التي كانت تكتب بها لغة قبائل اليوربا».

وعقب النجاح الذي صادفته حملة نيجيريا التي قادها «صمويل كروذر» بنفسه وأشرف عليها حتى الانتهاء من مرحلة بناء الأديرة والكنائس التي أقيمت في تلك المنطقة، قام هو نفسه بتنظيم حملة تنصيرية مماثلة علم 1857ف إلى النيجر حيث أقام هناك كنيسة في مدينة «أونتشا».

وعقب النجاحات التي حققتها بعثات التنصير التي أشرف عليها «صمويل كروذر» في النيجر ونيجيريا تقاطرت على المنطقة إرساليات التنصير الأوروبية والأمريكية، والتي توسعت في نشر المسيحية على طول سواحل نيجيريا وعلى أغلب مناطق ضفتي نهر النيجر، وكان تركيز هذه الحملات التنصيرية على جنوب نيجيريا بالتحديد، على اعتبار أن الإسلام كان مستوطناً هناك منذ قرون عديدة بواسطة التجار العرب والمسلمين الذين كانوا يجوبون تلك الفيافي وينشرون معهم دينهم بالحكمة والموعظة الحسنة، كما كانت العديد من القبائل العربية موجودة هناك، ولا زالت حتى الآن وعلى رأسها قبيلة ـ يوربا ـ التي أطلق اسمها على نيجيريا بكاملها في فترة من الفترات، وكانت العديد من القبائل الأفريقية تدين بالإسلام في تلك المنطقة قبل وصول المسيحية إليها بعدة قرون، إضافة إلى أن الإسلام ومن تلك المنطقة كان مهيئاً للإنطلاق إلى

مسافات أبعد وسط القارة وغربها مما استوجب ـ حسب مخططات المسيحيين ـ ضرورة التصدي له أولاً والعمل على محاولة وقف انتشاره في تلك المناطق.

عندما استتب الأمر لدعاة المسيحية في سيراليون وجنوب نيجيريا وبعض الأجزاء من النيجر واستطاعوا إنشاء مواقع أقدام لهم في بعض المناطق الأخرى في غرب أفريقيا، وكان أول هدف سعوا إليه بإلحاح وبرغبة جامحة دلت على خبث نواياهم وحقيقة استهدافاتهم، وهو محاربة الإسلام والمسلمين في تلك المناطق ومحاولة قطع الطريق وكل سبيل ممكن أمام المؤمنين به حتى لا يعم الإسلام باقي أنحاء القارة، خاصة على ضوء ما كان المسيحيون قد سجلوه من تقدم لهذا الدين سلماً ودون دماء في العديد من مناطق القارة السمراء في مراحل سابقة لوصولهم بعدة قرون.

وهكذا.. أغلق المسيحيون المدارس الإسلامية التي كانت موجودة وتشع بنورها على أبناء تلك المنطقة منذ قرون عديدة سبقت وصول المسيحية، وقاموا في خطوة لاحقة بمحاربة المسلمين وأبنائهم حتى في أرزاقهم ومعيشتهم من خلال قطع الطريق عنهم في مسألة الحصول على الوظائف وممارسة التجارة سواء داخل تلك المنطقة، أو مع بقية المناطق المجاورة، وإضافة إلى ذلك مارس المسيحيون سواء من الأوروبيين أو الأفارقة المنصَّرين أساليب عديدة من الاحتقار والاضطهاد تجاه المسلمين.

وحدث في هذه الأثناء، وقد ضاقت الأرض بما رحبت على المسلمين الذين تمت محاربتهم ومحاصرتهم حتى في ديارهم كما أسلفنا، أن قام أولئك المسلمون بتجميع أنفسهم في مكان معين قرب العاصمة الرئيسية لسيراليون المعروفة الآن باسم ـ فري تاون ـ أي «المدينة الحرة» ومن هناك وعلى الرغم من كل ما واجههم من اضطهاد وتفرقة، استطاعوا حماية دينهم وحماية أنفسهم، بل إنهم وبتوفيق من الله تمكنوا من إدخال الآلاف من الوثنيين

الأفارقة المحاذين لهم في السكن والجوار إلى الدين الإسلامي، مما مكنهم من إقامة مسجدين كبيرين كانا يصدحان في الأوقات الخمسة بنداء الحق «الله أكبر» خمس مرات في اليوم.

وهنا.. ولأن الأمور سارت على عكس ما اشتهى المسيحيون، فإن حاكم المستعمرة الإنكليزي الجنسية أصدر أمراً لكافة المسلمين، طالبهم فيه وخلال مهلة محددة.. إما بدخول النصرانية.. أو الرحيل إلى خارج المستعمرة.. وعلى الرغم من خطورة الأمر فإن المسلمين اختاروا عن طواعية الفرار بدينهم والخروج معه إلى حيث يمكنهم الإقامة والعيش بسلام، وأبلغوا حاكم المستعمرة بقرارهم النهائي، وتشاء عناية الرحمن، جل شأنه أن يصدر أمر من لندن يقضي بنقل الحاكم الحاقد من منصبه وإعادته إلى بلاده، واستبدل بحاكم آخر ألغى قرار سلفه وأبقى على المسلمين في وضعيتهم السابقة، ولم يشأ التعرض لهم، ولا إلى دينهم.

ولم يكن هذا بدافع الرحمة بالمسلمين أو شفقة منه على أحوالهم، ولكن وكما اتضح الأمر فيما بعد، كان ذلك خوفاً من ردة فعل السكان المحليين الذين أجبروا على اعتناق المسيحية، حيث رأى الحاكم الإنكليزي الجديد بفطنته ودهائه أن هذا العسف الذي مارسه سلفه ضد المسلمين قد يخلق ردود فعل خطيرة على بقية سكان المنطقة نفسها وعلى مستقبل نشر المسيحية في المستقبل، خاصة وأن هذه المسيحية تدَّعي العدل والمساواة بين الناس وعدم التفرقة بينهم إلى حين وقوع الفريسة في حبائلها.

وقد اتضحت حقيقة هذا الأمر عندما تم الإيعاز عقب إلغاء أمر طرد المسلمين من ديارهم، لاتباع المسيحية من أبناء المنطقة للقيام بعملية إرهابية واسعة النطاق ضد المسلمين وتحت حماية السلطات الحاكمة نفسها، بحيث يبدو الأمر في نهاية المطاف وكأن الموضوع هو صراع داخلي لا دخل للكنيسة أو السلطات الاستعمارية به.

وهكذا. . قاموا في العام 1839ف بإحراق المساجد القليلة التي كانت للمسلمين، وتعدوا على حرمات منازلهم مما حدى بأتباع ديانة الرحمن للهجرة من مناطقهم إلى مناطق أخرى آمنة، أصبحت فيما بعد مراكز هامة للمسلمين، حيث توسعت تجارتهم ومنَّ الله عليهم بالمزيد من البشر من أتباع الوثنية الذين تحوّلوا على أيديهم وبفضل جهودهم، إلى دين الحق. . وهناك توسعوا في إِقامة المزيد من المساجد والمدارس القرآنية التي كانت منارات تشع بالإسلام على بقية المناطق المجاورة.

والآن. . وبعد مرور كل هذه الحقب الطويلة من الزمن منذ أن دنَّس الأوروبيون أرض أفريقيا، يحق للمسلمين في كل أنحاء العالم الافتخار بأشقائهم في العقيدة من أبناء أفريقيا الذين وطدَّوا أركان الدين الحنيف في كل مجاهل القارة السمراء، ولا زالوا يفعلون ذلك حتى الآن، ولم تستطع حملات التنصير ولا حملات القمع والاضطهاد ولا عمليات الحرمان والحرب حتى في مصدر الرزق والمال أن تنال منهم ومن إيمانهم بحتمية النصر على أعدائهم، فحافظوا على دينهم وحموه من كل ذلك إلى أن أوصلوه إلى ما وصل إليه الآن، حيث يشع نداء «الله أكبر» من مآذن عشرات الآلاف من المساجد في أفريقيا بكاملها، وحيث يزداد عدد المسلمين وعدد مآذنهم كل يوم بفضل جهود، وإن كانت كما قلت مشتتة وغير موحدة تقوم بها دول عربية وإسلامية، إلا أنها وبفضل الله استطاعت أن تقف في وجه عمليات التنصير ـ إلى حد ما ـ حتى الآن على الأقل.

وعلى الرغم من مرور كل هذه السنوات الطويلة منذ أن نكبت القارة السمراء بأقدام المسيحيين الذين غزوها تارة باسم «نشر ديانتهم» وتارة باسم «تحضير أهلها» وهم في كلا الحالتين قدموا لنهب خيراتها والاستحواذ على ما في باطن أراضيها من ثروات سخَّروها على مدى قرون بكاملها من أجل رفاهية أبنائهم في أوروبا وأمريكا، وتركوا المواطن الأفريقي المسكين في تخلفه وجهله الذي وجدوه عليه في القرن السادس عشر.

على الرغم من ذلك، فإن المسلمين الأفارقة في منطقة ما وراء الصحراء الكبرى لا زالوا وعلى الرغم من كل ما مَرَّ بهم من محن وشدائد يكافحون حتى الآن في ملحمة جهادية دائمة للمحافظة على دينهم بكل الطرق والوسائل الممكنة.

أيضاً.. وعلى الرغم من كل ما مرَّ على المسلمين من معاناة ودسائس على أيدي النصارى الحاقدين، فإنهم استطاعوا الصمود في وجه كل الحملات التنصيرية الهائلة التي قامت ولا زالت تقوم بها الكنائس المسيحية، وتغلبوا عليها وفرضوا وجودهم بقوة بفضل إيمانهم بعقيدتهم السمحاء في العديد من مناطق نفوذها ذاته..

ويكفي للتدليل على النجاحات التي حققها المسلمون في مناطق أفريقيا، وخاصة في غربها أنّ هناك حالياً 15 دولة أفريقية فيما وراء خط الاستواء يشكل المسلمون فيها 5% من عدد سكانها، وتليها عشر دول أفريقية أخرى تزيد نسبة المسلمين فيها على 3% من عدد السكان إضافة إلى أن الغالبية العظمى من سكان الدول المتاخمة للصحراء الكبرى هم مسلمون بالكامل.

وعلى الرغم من هذه النجاحات التي حقّقها المسلمون في العديد من مناطق أفريقيا إلا أن هناك عملية ـ وَهْن عام ـ كما وصفها المشير ـ عبد الرحمن سوار الذهب ـ رئيس جمعية الدعوة الإسلامية في السودان تُطْبق على عمل المسلمين في أفريقيا بصفة عامة بسبب الجحود الذي يجابهون به حتى وهم في بلدانهم، وعدم إتاحة الفرصة لهم للمشاركة السياسية والاجتماعية فيها، فدولة مثل ـ السنغال ـ مثلاً التي تبلغ نسبة المسلمين فيها 97% على الأقل كانت وحتى وقت قريب يتولى رئاستها «مسيحي» كان لا يتورع في الدعوة علنا للمسيحية، بل إنه سخَّر عبقريته الشعرية للتغزل بفرنسا التي تَعَلَّم، وتَنَصَّرَ فيها وخدم الجيش تحت علمها، والتي فرضت هيمنتها الاستعمارية على بلاده وشعبه طوال أكثر من قرن من الزمان.

وفي أثيوبيا التي تفوق نسبة المسلمين فيها 50% وتنحدر أصول أغلب الطوائف المكونة لها من شبه جزيرة العرب، لم يكن يوجد فيها حتى وقت قريب وزير مسلم واحد في حكومتها، وكانت الأولوية في تولي الوظائف الرسمية فيها للمسيحيين.

ونفس المثل ينطبق أيضاً على كينيا التي تبلغ نسبة المسلمين فيها أكثر من 30% ومع ذلك لم يحظ فيها مسلم واحد بوظيفة وزارية منذ حصولها على الاستقلال.

وبالإضافة إلى ذلك. . . يعاني المسلمون في العديد من دول القارة من الجهل والفقر الذي فرضته عليهم المؤسسات التنصيرية التي احتكرت التعليم ومحت الثقافة الأفريقية واللغة الأفريقية، بعد أن فرضت استبدال حروفها العربية التي كانت تكتب بها بحروف لاتينية، وفرضت وبصفة اجبارية اعتناق المسيحية، واستبدلت الأسماء الأفريقية بأسماء مسيحية أوروبية كشرط أساسي لنيل قسط من التعليم أو التمتع بالخدمات الصحية. . وهو أمر رفضه المسلمون بشدة ولا زالوا يواصلون رفضهم له حتى الآن على الرغم من أن ذلك حرمهم من التعليم، وبالتالي من الحصول على الوظائف الحكومية. . . وحتى غير الحكومية.

وتعاني المجتمعات الإسلامية في أفريقيا إضافة إلى ما سبق كما تقول الدراسات الحديثة في هذا الشأن. . «من ضعف اتصالها ببقية أجزاء العالم الإسلامي نتيجة للعزلة التي ضربها عليها الاستعمار الصليبي، وأخذت بها الحكومات التي أعقبته في الحكم».

كما أن للحكومات في العالم الإسلامي دور سلبي هي أيضاً تمثل أساساً في عزوفها عن التوسع في إقامة المراكز الثقافية في البلاد الأفريقية على غرار المراكز الأوربية والأمريكية المنتشرة في كل مكان. بالإضافة إلى عدم كفاية المنح الدراسية التي تخصصها الدول الإسلامية للدارسين الأفارقة، «فالناظر

إلى المنح المقدمة من الدول الإسلامية للطلبة الأفارقة مع ما تقدمه الدول الأوروبية مثلاً، يجد أن أثرها لا يكاد يذكر» كما يقول المصدر السابق.

لقد كان لصمود الإسلام أمام الضغوط الاستعمارية التنصيرية العنيفة وانتشاره رغم هذه الضغوط، ثم صحوته الباهرة بعد انقشاع سحب الاستعمار البغيض، مثار دهشة وحيرة الغرب الصليبي الاستعماري الذي وقف مذهولاً أمام الذي حدث، رغم كل مؤامراته وإغراءاته المادية وعمليات تشويهه المتعمد للدين الإسلامي في فترة من الفترات عن طريق كنائسه وإعلامه، أثناء محاولته البائسة لوقف زحف الإسلام المستمر بين خلق الله.

وبعد أن فشلت ـ أو كادت ـ كل محاولات المستعمرين النصارى لوقف مد الإسلام وإشراقة نوره العظيم على أفريقيا وعلى غيرها من بقاع العالم الأخرى، أخذ الغرب الصليبي يدق ناقوس الخطر عبر إعلامه بكل أنواعه، في نغمة صاخبة لا تكف عن التنبيه والإنذار من خطورة الصحوة الإسلامية في أفريقيا، وخطرها، وإمكانية نسفها لكل المكاسب التي حققتها الثقافة الغربية والكنائس المسيحية التي فرضتها على شعوب أفريقيا في أوقات سابقة..

كما أن هذه الوسائل الإعلامية الغربية أصبحت ترى في تطور اللغة باعتبارها لغة القرآن الكريم وانتشارها في البلدان الأفريقية وظهور العديد من النداءات عبر المثقفين الأفارقة بالعودة إليها لأنها **أولاً** لغة قرآنهم الكريم، **وثانياً** لأن كل تاريخهم كتب بحروفها عبر القرون السابقة على وصول المستعمرين الأجانب، أصبح الغرب يرى في كل ذلك تقويضاً لمصالحه وتهديداً لكل ما تحقق للثقافة الغربية وكنائسها على مدى العقود الماضية..

وكما يقول الأستاذ ـ مصطفى سيسي ـ مستشار الرئيس السنغالي عبدو ضيوف في كلمة ألقاها أمام المؤتمر السادس للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية المنعقد في الإسكندرية عام 1994ف إن دهشة الغرب وحيرته وخوفه من المد الإسلامي في أفريقيا ليست وليدة اليوم، وإنما لها جذور يلمسها كل

متتبع لردود الفعل الغربية مواقفها الإعلامية تجاه حركية الإسلام وحيويته، وتلك المخاوف والحيرة ليست إلا تعبيراً عن الصراع الذي فُرض على الإسلام أن يخوضه منذ أن نادى بنداء «لا إله إلا الله.. محمد رسول الله...».

ومن جهتها عبَّرت مجلة «الايكونوميست» اللندنية في أحد أعدادها الصادر عام 1995ف عن الرعب الغربي من صحوة الإسلام في أفريقيا والعالم كله بصفة عامة بقولها «إن الإسلام أصبح يهدد الغرب الآن.. وإن احتمال الحرب القادمة هي بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي».

وعبّر الكاتب الغربي «فريد هاليدي» في كتابه ـ الإسلام والغرب ـ الصادر عام 1997ف عن هذا الرعب بشكل أكثر وضوحاً بقوله «إن الخوف الغربي من الخطر الإسلامي هو الآن البديل الجاهز من الناحية الأيدلوجية للحرب الباردة المنتهية»..

خاتمة

كان عدد المسلمين في المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى في مطلع القرن الحالي لا يتجاوز العشرة ملايين نسمة أغلبهم عرف الإسلام عن طريق التجار العرب الذين أوصلوا دينهم بالحسنى والموعظة الحسنة إلى تلك الفيافي منذ قرون عديدة، ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن أي في أقل من مائة عام تجاوز عدد المسلمين في تلك المنطقة المائة مليون نسمة والعدد يزداد باستمرار.

ويقول المؤرخ ـ يوري كيشانف ـ في كتابه القيّم عن «تاريخ انتشار الإسلام في أفريقيا» حول هذا الموضوع: «إن نسبة المسلمين تتعاظم باستمرار بين جماهير السكان ولا سيما في البلدان الأفريقية الواقعة شمال خط الإستواء وعلى طول ساحل المحيط الهندي في الشرق.. فالإسلام الآن هو دين أكثرية السكان في كل من نيجيريا الشمالية ومالي، وسيراليون».

ويجب الإعتراف هنا بأن الدعاة الإسلاميين سواء منهم الأفارقة ممن تلقوا تعليمهم الإسلامي في الدول العربية والإسلامية وعادوا إلى بلدانهم، أو من الدعاة الذين يُرسلون عن طريق أقطارهم لنشر الدعوة في تلك المناطق قد قاموا وبحق وبشهادة حتى الغربيين أنفسهم من أتباع الكنيسة المسيحية، بجهود عظيمة في سبيل تبليغ رسالة الإسلام بيسر وسهولة إلى الأفارقة المتعطشين

لمعرفة الطريق إلى الخالق عز وجل، خاصة عقب الفترة التي عانت فيها أفريقيا من ظلم الاستعمار الغربي الأوروبي، حيث اكتشف الأفارقة الفرق بين معاملة المسلمين لهم والذين كانت صلتهم بالسكان ومنذ البداية عن طريق التجارة ومحاولة نشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة كما أوصاهم الله ورسوله مع عدم فرض دينهم على أحد أو فرض عاداتهم وتقاليدهم على أحد بالقوة، باستثناء فترات قليلة استخدمت فيها القوة لمواجهة حركات ارتداد حاولت التصدي لدين الله بالقوة، ومعاملة المسيحيين الأوروبيين لهم طوال قرنين، هما الفترة التي نكبت فيها أفريقيا أولاً بمرحلة ما يسمى بالاكتشافات الجغرافية، والتي كانت وبحق وكما اعترف الأوروبيون أنفسهم الآن بعثات استطلاعية عسكرية متخفية هدفها وضع الخرائط وجمع المعلومات عن المواقع المستهدفة ومواقع الثروات المعدنية والطبيعية المطلوب نهبها في مراحل لاحقة، ثم نكبتهم فيما بعد بما يسمى بالإرساليات التنصيرية المسيحية التي تدفقت على القارة منذ بدء القرن الثامن عشر، والتي كانت تحمل في ثنايا كتابها نفسه سوط العبودية والرق للرجل الأسود، وأخيراً تنفيذ مرحلة الاستعمار والاستحواذ الكبرى بالقوة المسلحة على كامل أفريقيا منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى ما بعد منتصف القرن الحالي، بل أن دولة جنوب أفريقيا التي مارس فيها البيض بمسيحيتهم وحضارتهم المزعومة أبشع أنواع التفرقة العنصرية لم تتخلص من ربقة الاستعمار الغربي وممارساته العنصرية البشعة إلا منذ سنين قليلة مضت.

ولعل أهم عامل ساعد الأفارقة ـ ولا زال حتى الآن ـ في معرفة نوايا المستعمرين الأوروبيين وكشف حقيقة ما يدَّعون أنه دينهم، هو مسألة استعمالهم للرق واتخاذهم لسكان أفريقيا «كعبيد» لا رأي لهم لا كلمة ولا كرامة ولا شرف، وقيامهم بتلك الحملات الهائلة التي صادروا خلالها عشرات الملايين من أبناء القارة وقيامهم بتصديرهم مغلولين بالأصفاد إلى العالم

الجديد في أمريكا، حيث كانوا يباعون هناك من يد أخرى مثل الحيوانات. . ومن هنا وعلى ضوء هذه الحقائق كلها والتي لمسها الأفارقة بالتجربة تحولت الكثير من القبائل الأفريقية بكاملها إلى الإسلام دين السماحة والفطرة الحقيقية للإنسان، ودين المساواة بين البشر جميعاً لا تفرقة فيه بين لون ولون، أو شخص وآخر إلا بالتقوى ومدى التقرب من الخالق سبحانه وتعالى.

وتعليقاً على هذه الحقائق يقول المصدر السابق «أن شعوباً بكاملها اعتنقت الإسلام خلال حياة جيل واحد كما هو الحال مثلاً لدى شعوب «بوكومو» في كينيا و«شامبالا» في تنزانيا وأقليات كثيرة من الجيلين في نيجيريا وشمال الكاميرون. . كما اعتنق الإسلام في أفريقيا المدارية قائدا دولتين هما ـ عمر بونغو ـ في الغابون ـ و ـ بوكاسا ـ في أفريقيا الوسطى. . إضافة إلى زعماء قبائل وشخصيات سياسية مرموقة».

وبالطبع. . وعلى ضوء هذه الانتصارات الباهرة التي سجلها الإسلام باتجاه الجنوب في المنطقة الواقعة ما وراء الصحراء الكبرى، كان الطرف المقابل من القائمين بنشر المسيحية في نفس المنطقة يتميزون غيظاً ورعباً وهم يشاهدون «أن الإسلام والثقافة العربية إلى جانب اللغة العربية هي جميعاً ظواهر تمتد نحو الجنوب إلى أفريقيا المدارية، بل حتى الاستوائية» ومن هنا انكب باحثوا المسيحية على الدراسة والبحث في محاولة لمعرفة السر وراء هذه الانتصارات التي يسجلها الإسلام باستمرار في قلب القارة السمراء. .

وبعد البحث والتحري خرج بعضهم باستنتاجات كان أهم ما لفت النظر فيها اعترافهم «بأنه لا يوجد في الإسلام طبقة كهنة تمثل الوسيط بين المؤمنين وربهم». . بينما اعترف بعضهم الآخر بشكل أكثر وضوحاً بأن الإسلام «هو دين فائق التطور، بل هو أكثر الأديان شباباً بين الأديان العالمية المعروفة» ثم «إنه ليس مجرد دين بالمعنى الضيق للكلمة أي بوصفه نسقاً من الطقوس والمعتقدات الدينية، بل إنه إلى جانب ذلك هو ـ أيديولوجية ـ دينية سياسية

ونمط حياة وحضارة» وهذه أمور لا وجود لها في الأديان الأخرى كما أنه لا وجود لها في ثقافة الأفارقة.

ومن هنا.. لم يكن غريباً أن ينتشر الدين الإسلامي ويمتد في القارة شرقاً وغرباً وجنوباً بعد أن وطّد أركان وجوده في الشمال الأفريقي مباشرة، حيث كان لتجار القوافل العرب القادمين من شمال أفريقيا إلى وسطها وغربها ومن شبه جزيرة العرب إلى شرقها وجنوبها أبلغ الأثر في إيصال دين الله على أيديهم إلى تلك المجاهل النائية.

وبواسطة أولئك التجار المسلمين وقوافل الدعاة المبشرين بالإسلام الذين لحقوا بهم، عرف الإنسان الأفريقي لأول مرة أن الإنسان الأبيض والأسود يمكن أن يكونا شيئاً واحداً.. وأنه لا فرق بين الاثنين إلا بمدى تقوى وتقرب كل منهما من الخالق عز وجل.

وكما انتشر الإسلام في غرب أفريقيا بالحكمة والموعظة الحسنة بواسطة التجار العرب الذين كانوا أول من أوصل هذا الدين إلى ما بعد التخوم الجنوبية للصحراء الكبرى في بداية سنوات الدعوة الإسلامية، انتشر أيضاً وبنفس الطريقة في شرق أفريقيا ووسطها في نفس الفترة تقريباً على يد التجار العرب القادمين من شبه جزيرة العرب.

ولكن كيف كان سكان أفريقيا يتقبلون الدين الإسلامي بسهولة وهم المعروف عنهم فيما مضى تعصبهم لوثنيتهم وعبادتهم لزعمائهم وكبار القوم لديهم؟.. في هذا المجال يقول «مسيو غن ف.م» في كتابه ـ ثقافة ولغات شعوب أفريقيا ـ الصادر في موسكو عام 1966ف «إن فئات السكان المنعمة في المدن الساحلية كانت قد اغتنت بواسطة التجارة ولذلك فإن ممثليها يعتنقون الإسلام بمحض إرادتهم، إذ أنهم يعرفونه من خلال اشتغالهم بالتجارة.. أما جمهور السكان المحرومين والمظلومين والذين يزداد استغلالهم من جانب العائلات الارستقراطية بحكم التنافس بين الفئات المالكة القديمة والجديدة

فإنهم يميلون إلى الإسلام لأنهم يرون في انتشار هذا الدين تحطيماً للأعراف الاجتماعية القديمة. . وهنا في هذه التغييرات الاقتصادية والاجتماعية تحديداً يكمن سبب انتشار الإسلام بين سكان شاطىء أفريقيا الشرقي».

وإضافة إلى هذه الخاصية التي ميّزت اقتناع الوثنيين الأفارقة بالإسلام، فإن هناك ميزة أخرى يصفها المصدر السابق نفسه كما يلي: «إن أفكار المساواة التي يبثها الإسلام تجتذب الشرائح المظلومة بين السكان. . ذلك أن العمل والدخل الذي يجنيه المزارع والحرفي والتاجر يعتبر مباركاً وطيباً في الإسلام، إذا كان الربح المتحقق من ذلك مساوياً للجهد المبذول، وجميع المؤمنين متساوون فيما بينهم بوصفهم عبيد اللّه، وهم يقفون في صفوف متراصة متساوية أثناء الصلاة لا يتقدمهم إلا إمام المصلين».

لقد أمضى بعض كبار كتاب المسيحية ردحاً طويلاً من الزمن في البحث والدراسة عن الأسباب التي أدت إلى انتشار الإسلام، وتعلق من تقبله به في بداية ظهوره، وقيامه بالدعوة إليه عن قناعة وطيب خاطر في الوسط المجاور له بدءاً بأسرته وقبيلته وصولاً إلى مجتمعه فيما بعد، دون مقابل سوى طلب رضى خالقه، بينما صُدّت الأبواب أمام دعاة المسيحية على الرغم من جهدهم المتواصل لنشر ديانتهم وقيامهم بإنفاق الكثير من الأموال من أجل ذلك، وحتى عندما يتمكن القائمون بنشر المسيحية من إقناع أحد بما يدعون إليه، فإن تأثير من قاموا بتنصيرهم لا يتعدى حدود أنفسهم في أحسن الأحوال، بل إن العديد ممن نُصِّروا في البداية وقبلوا بأن يكونوا مسيحيين عادوا وارتدُّوا عن مسيحيتهم بعد أن لاحظوا الفروق الهائلة بين مسيحيتهم، وإسلام غيرهم.

وبالنسبة لأفريقيا بالذات وبعد اعتقاد ساد فترة من الزمن لدى القائمين بنشر المسيحية بين أبناء القارة بعد تمكنهم من تنصير أعداد غفيرة من البشر هالهم أن من قاموا بتنصيرهم قد ارتدُّوا ورفضوا بشكل جماعي هذه الديانة بعد أن لمسوا الفرق بين دعوة الإسلام للمساواة بين خلق الله، ودعوة المسيحيين

التي تفرق بينهم وتجعل هذا سيداً وهذا عبداً. . وهو أمر حدث بالفعل في العديد من المناطق الأفريقية جنوب الصحراء الكبرى.

ومما زاد وعمَّق الشعور لدى الأفارقة بأهمية الفروق بين الديانتين. ذلك الانكباب الهائل الذي مارسه الأوروبيون في بداية تعرفهم على القارة السمراء، حيث مارسوا مهنة نهب كل ما تقع عليه أيديهم من خيرات القارة وما في أيدي أهلها، ثم قيامهم بذلك العمل الشنيع الذي مارسوه على مدى قرون كاملة في تجارة الرقيق وتصدير الملايين منهم إلى الأرض الجديدة في الأمريكتين. .

ومن هنا وبسبب ذلك وجد الأفارقة في الإسلام الدين الذي يجمع شمل أسرهم وقبائلهم ولا يفتتها، ويحافظ على عاداتهم وتقاليدهم ولا يتدخل فيها بالتغيير والإضافة والحذف كما تفعل المسيحية، والتي تطلب تغيير الاسم والملبس والالتزام بطقوس معينة لا بد من ممارستها في أيام الآحاد مثلاً. . . الخ.

كما أن العلاقة بين الإنسان وخالقه في الإسلام لا يتدخل فيها أحد، مهما كان شأنه ومهما ارتفعت مرتبته، بينما أوجدت الكنيسة رجالاً يدَّعون أنهم وسطاء بين العبد وخالقه، وأنّ بإمكانهم قبول التوبة وتوصيلها، ونقل اعترافات الإنسان لخالقه الخ. . وفوق ذلك كله كانت الكنيسة وهي تدخل أفريقيا قد حملت معها ومنذ البداية معْوَل هدمها من خلال تلك القصة العجيبة الملفقة والمنسوبة في «الإنجيل» لسيدنا نوح عليه السلام مع أبنائه ـ حام ـ وسام ـ و ـ يافث ـ وكيف استحق ـ حام ـ لعنة أبيه، وبسبب تلك اللعنة أباح لأخويه أن يكون ـ حام ـ وذريته من بعده عبيداً لهم ولذريتهم، وهي القصة التي يستند إليها الأوروبيون في تبرير استرقاق الزنوج واتخاذهم عبيداً لهم، والنص على ذلك في كتابهم «المقدس» نفسه صراحة.

ومن هنا. . لا غرابة في أن سهولة الدين الإسلامي وسهولة مواعظه ونواهيه وحرصه بل وتحريمه على عدم إيجاد أية فوارق بين البشر إلا من

خلال طاعة الله، هي السبب الذي جعل الإسلام ينتشر في أفريقيا بسهولة طولاً وعرضاً، بينما تتعمق وتزداد المشاكل التي تواجه المسيحية، وبالذات عقب كل قراءة متمعنة من قبل المتلقين فيما حوته كتبهم من مغالطات هائلة وتلفيقات نسبتها الكنيسة لرسول الخالق عيسى ابن مريم عليه السلام زوراً وبهتاناً.

وقبل أن اختتم هذه الصفحات، أحب أن أشير إلى كلمة بليغة ألقاها الدكتور محيي الدين صابر المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تتعلق بنفس موضوعنا، حيث قال: «إن العرب جزء من أفريقيا منذ كانت.. وكانوا، وجوداً متكاملاً جغرافياً وبشرياً، فهما يلتقيان في الزمان ويلتقيان في المكان، وقد بنوا معاً حضارة مشرقة..

لم يدخل العرب أفريقيا غازين، وإنما تفاعلوا وامتزجوا وأسَّسوا دولاً مشتركة، وقد تبنت اللغات الأفريقية الكبرى الحرف العربي، وانتجت به في مختلف المعارف إنتاجاً رفيع المستوى، ومن الأفارقة علماءٌ هم موضع اعتزاز الثقافة العربية والإسلامية، والعكس أيضاً صحيح، وكانت اللغة العربية من أكبر اللغات الأفريقية وأقدمها كتابة، فقد كانت لغة العلم والثقافة لأكثر من ثمانية قرون متتالية وحتى مطلع القرن الحالي».

المراجع

فيما يلي أهم المراجع التي استعنت بها في كتابة هذه الدراسة وهي كما يلي، مع ملاحظة أن بعضها ذكر وسط الصفحات، وملاحظة أن أغلب ما كتب كان استلهاماً منها.

- **جرمة.. من تاريخ الحضارة الليبية** ـ الدكتور محمد سليمان أيوب.
- **نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان** ـ محمد بن عبد العزيز الإدريسي.
- **المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب** ـ أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري.
- **تاريخ المغرب الكبير** ـ محمد علي دبوز.
- **العرب والعروبة من القرن الثالث عشر حتى القرن الرابع عشر الهجري** ـ محمد عزه دروزه.
- **المسلمون والاستعمار الأوروبي لأفريقيا** ـ د. عبد الله عبد الرزاق إبراهيم.
- **العلاقة التاريخية بين اللغة البولارية واللغة العربية** ـ بحث للأستاذ أبو بكر خالد با.
- **معهد اللغات الوطنية** ـ أنواكشوط.

- **زهور البساتين في تارخ بلاد السوادين** - مخطوط تاريخي للشيخ موسى كمرا.
- **السلالات البشرية في أفريقيا** - س. ج. سليجمان.
- **أفريقيا تكتشف من جديد** - باسيل داود سون.
- **صورة من كفاح المسلمين** - الأستاذ أبو بكر خالد با.
- **أنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور** - الإمام محمد بلو.
- **الإسلام والمسلمون في أفريقيا الغربية** - بحث د. سيد حامد حريز - جامعة الخرطوم.
- **اللغة العربية في اللغات الأفريقية، الخلفية التاريخية** - أحمد إبراهيم دياب.
- **أمبراطورية غانا الإسلامية** - د. إبراهيم طرخان.
- **العلاقات العربية الأفريقية، رؤية تاريخية** - د. جمال زكريا قاسم.
- **انتشار الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا** - صلاح الدين المنجد.
- **نيل الابتهاج بتطريز الديباج** - أحمد بابا التمبكتي.
- **تاريخ العرب والشعوب الإسلامية** - كلود كاهن.
- **العرب قبل الإسلام** - جرجى زيدان.
- **تجارة القوافل ودورها الحضاري** - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
- **التنصير في سيراليون خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر** إسماعيل إبراهيم كروما - مجلة كلية الدعوة الإسلامية - 1992ف.
- **الإسلام في نيجيريا** - آدم عبد الله الألوري.
- **سيراليون وليبيريا** - محمد إسماعيل محمد.
- **أفريقيا بين الإسترقاق والتحرر** د. محمد عبد المنعم يونس.

الفهـرس

المقدمة 15

أسئلة حائرة 19

عرب عاربة . . وعرب بائدة 29

الفراعنة . . عرب 33

هجرات متتالية 36

الهجرة . . جنوباً 39

التوسع العربي في كافة الاتجاهات 43

معلومات مطمورة تحت الرمال 50

قصص . . . أغرب من الخيال 53

اليمنيون سادة البحر 57

الهجرة . . سببها الجفاف 61

امتزاج الدم العربي بالدم الأفريقي 65

شعلة الإسلام . . يحملها العرب 69

قارة تتكلم بـ 800 لغة والعربية . . أولها 73

لغة العرب . . وسط مجاهل القارة 77
حرب ضد اللغة 81
30 لغة أفريقية . . كتبت بالحرف العربي 85
مقارنة . . بعد ألف و400 عام 89
صور الأجداد . . في كل مكان 93
«ينّي» انقرضت . . وبقيت «تمبكتو» 97
قوافل الإبل . . تنقل الإسلام 101
مملكة غانا . . أول العنقود 106
مملكة مالي . . الثانية 110
حج إلى بيت الله . . أصبح تاريخياً 116
مملكة سنغاي . . الثالثة: 118
الملح . . والذهب 126
جيش المغرب يتجه جنوباً 129
بلاد التكرور 136
من أين قدم ـ الفولانيون ـ؟ 140
البربر . . عرب أقحاح 147
غلبهم الحياء . . . فتلثموا 151
قلاع لنشر الإسلام 155
الفولانيون . . هل قدموا من ليبيا؟ 162
هجراتهم . . انسابت من الشرق 168

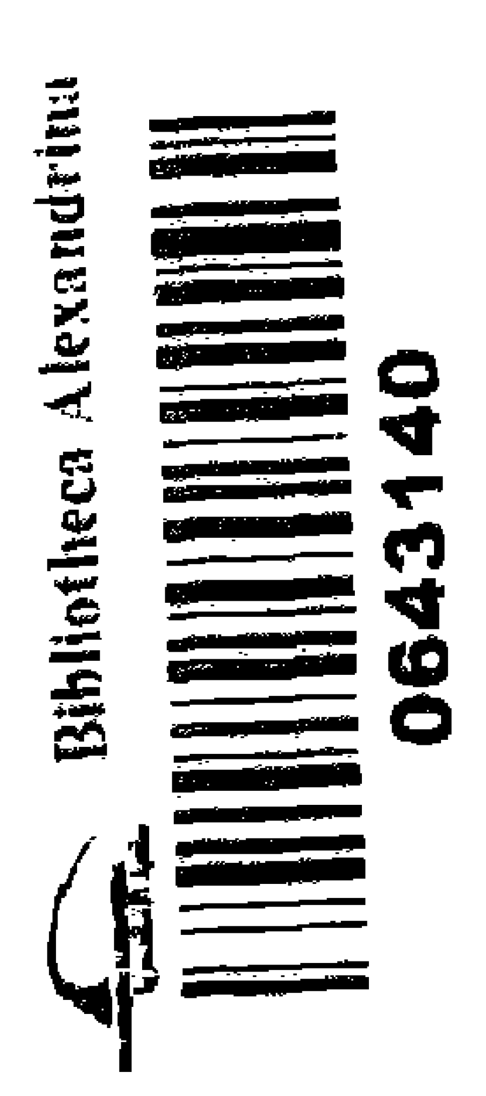
كيف دخلت المسيحية إلى أفريقيا؟ : 174
وتلك قصة الصفحات التالية 175
«كانو» لم تكن صدفة 180
الاحتلال. . بقرار من البابا 184
فرض لغتهم 188
أول إرسالية مسيحية 191
خليط من الديانات في الأسرة الواحدة 195
المسيحية في بلاد ـ يوربا ـ 198
خاتمة 209
المراجع 217

هذا الكتاب

عبر الصحارى.. والقفار.. وفي رحلات تمتد شهوراً طويلة.. لا أنيس فيها ولا خليل.. سوى قلب عامر بالإيمان، وحب وتطوع لنقل أنبل وآخر رسالات السماء إلى خلق الله كافة.

كانت قوافل إبل الأجداد تنتقل عبر تلك الصحاري حاملة مع أرزاق السائرين خلفها دين التوحيد الختامي إلى أشقاء وأحباب خلف الصحراء الكبرى.. وهناك احتضنهم أولئك الأشقاء.. واحتضنوا الدين الإسلامي الذي قدموا به.. ومعاً كوّنوا تاريخاً مشتركاً.. وصنعوا حضارات لا زالت معالمها وآثارها باقية حتى الآن.. وستبقى كذلك إلى الأبد.

وفي هذا الكتاب قصة كل ذلك.





جمعية الدعوة الإسلامية العالمية